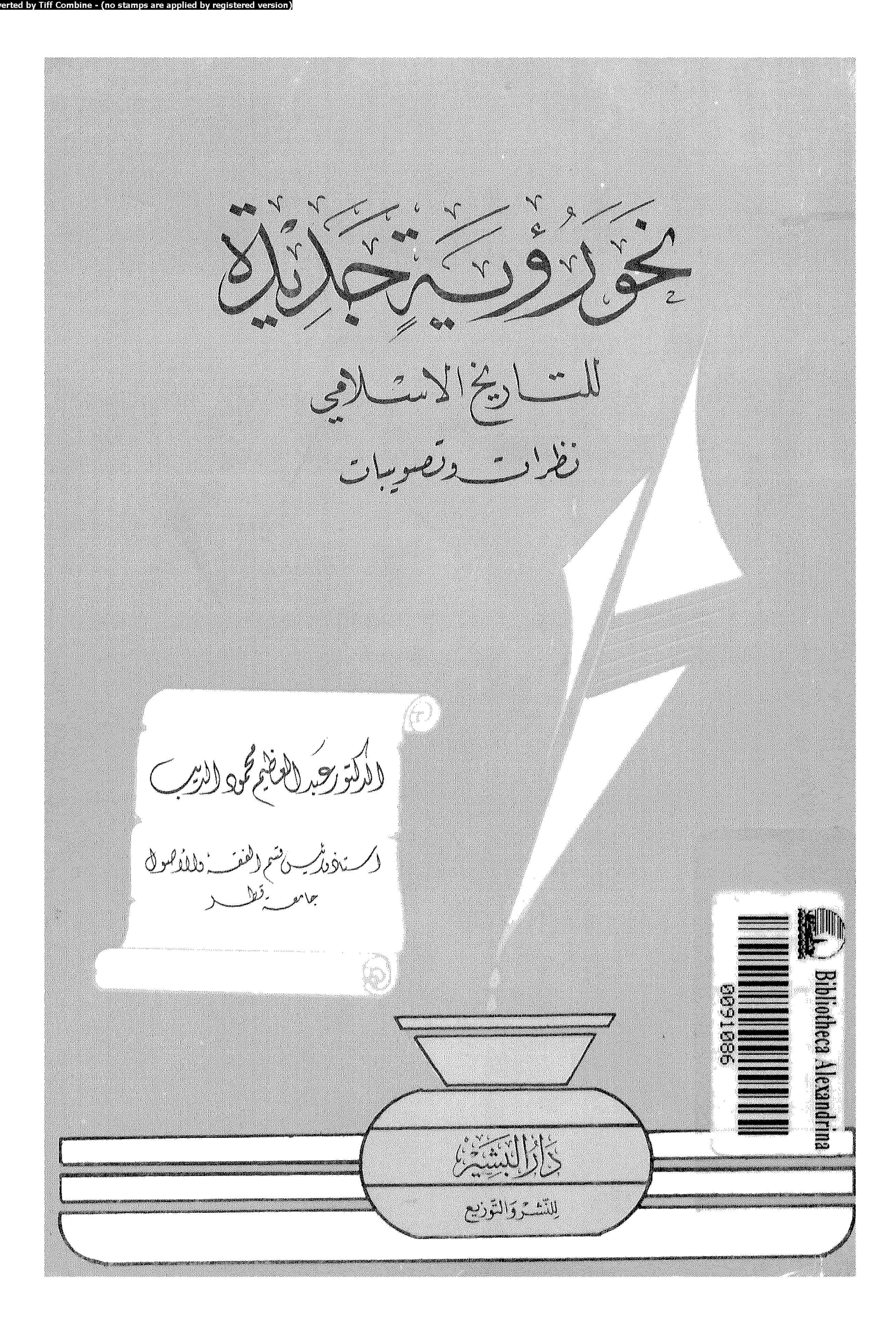


نحو رؤية جديدة
للتاريخ الإسلامي
نظرات وتصويبات
الدكتور عبد العظيم محمود الديب
أستاذ ورئيس قسم الفقه والأصول
جامعة قطر
دار البشير
للنشر والتوزيع
Bibliotheca Alexandrina
0091086



نحو رؤية جديدة

للتاريخ الإسلامي

نظرات وتصويبات

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

٩٥٦

عبـد	عبد العظيم الذيب

نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي/ عبد العظيم الذيب.

عمان: دار البشير للنشر ١٩٩٣

(٢٠٨) ص

ر. أ (١٩٩٣/١٢/١٣٣٢)

١ـ التاديخ العربي الإسلامي	أ ـ العنوان

(تمت الفهرسة من قبل المكتبة الوطنية)

دار البشير

ص. ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)
هاتف: (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢)
فاكس: (٦٥٩٨٩٣) / تلكس (٢٣٧٠٨) بشير
مركز جوهرة القدس التجاري / العبدلي
عمان ـ الأردن

Dar Al-bashir
For Publishing & Distribution

Tel: (659891) / (659892)
Fax: (659893) / Tlx. (23708) Bashir
P.O.Box. (182077) / (183982)
Jerusalem Jewel Trade center Al-Abdali
Amman - Jordan

نحو رؤية جديدة

للتاريخ الإسلامي

نظرات وتصويبات

الدكتور عبد العظيم محمود الديب
أستاذ ورئيس قسم الفقه والأصول
جامعة قطر

دار البشير
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

مثلُ القومِ نَسوا تاريخهم
كلقيطٍ عيّ في الناس انتسابا
أو كمغلوبٍ على ذاكرةٍ
يشتكي من صلة الماضي انقضابا

أمير الشعراء : أحمد شوقي

« التاريخ عرضُ الأمة »

عباس محمود العقاد



إهداء

إلى الشباب

إلى شباب أُمتي!

إلى شباب أُمتي الذين لم تفتنهم عن دينهم كل ذرائع المسخ والتشويه، ولم تلههم عن رسالتهم كل مغريات التنصير والتهويد.

إلى الشباب الطاهر، النقي، الصالح، الذي أغرقوه بكل ألوان ما يسمى (بالفنون)، وأحاطوه، بلجامة ما يسمى (بالإعلام) وحاصروه بإلحاح ما يسمى (بالثقافة)، وتجاذبوه بما يسمى (الرياضة) ـ ولكنه استعصى على ذلك كله، ووجد هُويتَه في تراث أُمته، وتاريخ أُمته، وأمجاد أُمته.

إلى شباب أُمتي الذي لم يخلب لبه، بل لم يلفت نظره، ما زينوه له من (أباطيل قرن التنوير) من مثل (الثقافة العالمية) و(الفكر الإنساني)، و(الحضارة العالمية) ونحو ذلك مما أوصى به (الماسون).

إلى شباب أُمتي الذي اتخذ كتاب ربه دستوراً، وسُنَّة نبيه ﷺ نوراً.

إلى هؤلاء الشباب، فهم وحدهم القادرون على فهم هذه الفصول، ووعي هذه القضايا.

سائلاً الله لي ولهم الهدى والرشاد.

الدكتور عبد العظيم محمود الديب



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاته وَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنتُم مُّسْلمُونَ) (آل عمران: ١٠٢)؛(يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحدَة وَخَلَقَ منْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ منْهَا رجَالاً كَثيراً وَنسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذي تَسَاءَلُونَ به وَالأَرْحَامَ إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيكُمْ رَقيباً)(النساء : ١)؛(يَأَيُّهَا الَّذين آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَولاً سَديداً * يُصْلحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظيماً) (الأحزاب ٧٠، ٧١)

اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وعليك توكلنا ، وإليك أنبنا وإليك المصير ، اللهم إنا نبرأ من حولنا وقوتنا ونلوذ بحولك وقوتك ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك ، ونصلي ونسلم على صفوتك من خلقك ، وخاتم رسلك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد :

لقد ترددت كثيراً وطال ترددي سنوات طوال في نشر هذه الأبحاث أو هذه الكلمات ؛ ذلك أنّي امرؤ يخشى أن يطلُع على الناس بشيء فيه نقص أو خلل ، أو بشيء لا طائل من ورائه ، فيكون قد أضاع منهم وقتاً أو جهداً ، فيلقى الله بعد ذلك مسئولاً عن هذا ، فيما سيسأل عنه ، وما أكثر ما سيسأل عنه.

ثم إن سوقَ النشر قد صار لها ضجيج وعجيج ، ووميضٌ وأضواء ، وأعلام ورايات ، وأبواق وطبول ، وزينة وزخارف ، فتطلعت لها أحداق ، وأشرأبت لها أعناق ، وصارت من أوسع أبواب الشهرة، وأنا امرؤ كُرِّه إليه هذه الشهرة ، وصرتُ أعافها ، بل أزدريها من طول ما رأيتها تصنع بعشاقها من امتهان ، أراهم يستعذبونه ولا يشعرون ، من شدة ما أسكرتهم نشوتها ، ومن إذلالٍ يستلذونه ولا يدرون ، من طول مادار برأسهم حميّاها. والعياذ بالله .. ولست أتمدح بذلك زاعماً أني كذا خلقت ، وعلى هذا فطرت ، ولكنه أمرٌ اكتسبته، وشأن تعلمته ، وخيرٌ خاره الله لي، وإذا أراد الله أمراً هيأ له أسبابَه ، وفتح له أبوابه.

فقد قدر الله سبحانه لي أن أتصل بتراث أمتي، فعرفت قدر أئمتنا ، ورأيت عظمة أعمالهم.

ورأيت الإمام الجليلَ أبا عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤هـ يقول :
« ما نحن فيمن مضى إلا كَبَقْلٍ في أصول نخلٍ طوال ».

ثم قُدر لي أن أعيش في كنف أساتذة أجلاء يقدّرون الكلمة حقٌ قدرها ، ويعرفون للعلم آدابه وأخلاقه ، ورأيت فيهم العظمة بأجلى معانيها والتواضع بأصدق معانيه ، وكان من عظمتهم أنهم كانوا أكبر من أن تحتويهم هالة ، أو تضمهم شاشة ، أو يجذبهم ميكرفون ، أو تستهويهم صورة .

وكان من أكثر أساتذتي تأثيراً شيخي الجليل الأستاذ/ محمود محمد شاكر، متعه الله بالصحة والعافية وأطال بقاءه.

فقد رأيت هذا العملاق العلامة ، يطيل التدقيق في كل ما يكتب ، وعرفت قصته مع كتابه الفذّ (المتنبي)، وكيف كانت معاناته ، وكيف كان تردّده ، وعدم رضاه عما يكتب !!«اقرأ هذه القصة كاملة بقلمه ، وبأدبه العالي، في السفر الأول من المتنبي طبعة ١٩٧٧م. ص٤٦-٦٥» ؛ رأيت هذا من شيخي الجليل، فوعيت ، وتعلمتُ ، واقتديت ، بل وجدتني أولى بالتردد ،

والخشية ألف مرة ..

ولقد أدرك ذلك مني بعض الأساتذة الأجلاء ، والكرام الباحثين فكانوا يستنفرونني، ويحثونني على أن أنشر ما أكتب ..

فقال لي الشيخ عبد الجليل شلبي-مد الله في عمره-: أنت تريد أن تقول آخر كلمة في الموضوع الذي تكتبه ، وهذا يابني مستحيل ، إن الكلمة الأخيرة لن تقال أبداً ، وسيظل الباب دائماً مفتوحاً ؛ انشر هذا الذي كتبته ، ودعْ غيرك يُكمله ، أو يبني عليه أو يصححه ، ولا حرج في ذلك ؛ بل أقول لك : لا تلتفت أنت لتصححه.

أما شيخنا الشيخ محمد الغزالي: فقال بأسلوبه الفكه -بعد أن اطلع على بعض ماكتبت :«أنت تحسن الكتابة ، والوضع في الدرج ، وهذا لا بأس به ، فقد تنمو هذه المقالات ، وتتوالد وهي في ظلام الأدراج » ..

أما أخي الفاضل الكريم الأستاذ الدكتور/ يوسف القرضاوي ، فقال لي في هدوء بأسلوبه الهين اللين الحيي -والحياء من أخص شيمه-: ياأخي اجمع الأشياء التي كتبتها والكلام الذي تقوله في التاريخ هذا ، وأخرجه للناس ، ماذا تنتظر؟!

وتكرر ذلك من كثير من الأحبة الكرام ، وكنت أستمع وأشكر ، وأهم بالاستجابة ، ولكن أعود ليغلبني ماتعلمته وتعوّدته.

إلا أن هاجساً أخذ يُلح عليّ من حين لآخر ، يقول لي : منذ سنوات تتحدث عن دنوّ الأجل، وقرب اليقين ، وأنك بلغت سنّ الحصاد ، وتستشهد بقول سيدنا معاوية (رضي الله عنه) حين كان يقول كلما بلغه نعيُ أحد أترابه:« أنا والله من زرعٍ قد استَحْصَدَ وحان أوانه» ..

يقول هذا الهاجس: ففيم الانتظار إذاً وقطار الرحيل قادم؟ فخشيت أن يكون في حبس هذه الكلمات كتماناً للعلم الذي حذرنا ديننا منه ، وأنذرنا

بأن من كتمه يلجم بلجام من النار يوم القيامة.

فها أنا ذا أقدم هذه الصفحات ، ولا أقول البحوث ، بين يدي الموعد مع المولى عز وجل ، لا أبغي بها في الناس ذكراً ، فأنا عن دنياهم إلى رحيل ، ولا أبغي بها مالاً ، فكسوتنا إلى الآخرة بغير جيوب ..

وإلى الله ضراعتي، أن يجبر ضعفي وعجزي ، وأن يجيرني من ذنوبي ويستر عيوبي ، وأن يقيلني من عثراتي، وإليه أبرأ من حولي وقولي ، وألوذ بحوله ، وقوته ، فإنه لا حول ولا قوة إلا به ؛ وأسأله جل وعلا أن يمن علينا بحسن العقبى، وأن يختم بالصالحات أعمالنا ، وأن يقبضنا إليه غير مفتونين ولا خائبين ، ولا خزاي ولا ندامي. ونشكره جل وعلا على ما أفاضه علينا من نعم ، وما منحنا إياه من فضله وبره وإحسانه ، مع ما كان منا من قصور وتقصير ، سبحانه. أهل الفضل كله ، وأهل العفو كله ، وأهل الحمد كله ، وأهل الثناء كله ، وأهل الشكر كله.

ياربنا لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت علي نفسك جل جلالك.

وكتب أبو محمود
عبد العظيم محمود الديب
الدوحة في
فجر الخامس والعشرين من رمضان
١٤١٢ هـ

لماذا رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي؟ (*)

تمهيد لابد منه:

ترجع فكرة هذا البحث ، وبذرته الأولى إلى سنواتٍ بعيدة ، حين قدّر لي أن أعيش في قطرٍ عربي شقيق هو «السودان» بضع سنين، وهناك بدأت أرى حياة هذا القطر على صورةٍ غيرِ الصورة التي رسمتها الدراسةُ والكتب في ذهني ، وجلستُ إلى شيوخ هذه البلاد ومعمريها ، أسمع منهم ذكرياتهم ، وحكايات شبابهم ، يحكونها على البديهة مفعمة بالمشاعر، مليئة بالأحاسيس. وكان أن رأيت لهذه البلاد تاريخاً غير التاريخ الذي قرأته ، وواقعاً غير الذي تصوّرته ، أو بالأحرى صُوِّر لي.

اتفق ما سمعته مع ما قرأته إلى حد كبير في الأحداث نفسها والوقائع ذاتها، ولكن كان الخلاف واسعاً جداً ، وعميقاً جداً في تفسير هذه الأحداث والوقائع .

وأضرب مثالاً واحداً على ذلك ، هو وجود جاليات مسيحية كثيرة في مدن السودان الكبرى ، كانت المقولة الشائعة الذائعة أن هؤلاء نزحوا من شمال الوادي «مصر» إلى جنوبه ، هرباً من استبداد المسلمين وظلمهم ،

(*) نشر في العدد الأول من حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، بجامعة قطر ، ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م .

وأشاع ذلك كل من كتب في هذه المسألة من الانجليز والمسيحيين أولاً ، ثم تابعهم ونقل عنهم الكاتبون بعد ذلك.

ولكن الذين عاصروا الأحداث ، وعايشوها يذكرون تفسيراً آخر لوجود هذه الجاليات المسيحية ، فيقولون:

«إن الإدارة الإنجليزية المستعمِرة في السودان كان لابد لها من أن تستعين بجماعات من الموظفين والعمال ، ولما جلبتهم معها من مصر، وجدت أنهم سرعان ما يندمجون مع السودانيين ، ويرتبطون معهم بالإخاء والمصاهرة ، فيكونون متعاطفين مع أهل السودان ، لا يحققون ما تبغيه السلطة المستعمِرة من قهرٍ وبطش ، فلجئوا إلى الشام يجلبون من المسيحين بها ما يريدون ، ولكن هؤلاء الشوام لم يستطيعوا أن يتحملوا مُناخ السودان الحارّ، الذي يختلف كثيراً في طبيعته عن بلادهم ، فرجعوا إلى بلادهم عاجزين. فكان أن اتجهت الإدارة المستعمرة إلى مصر ثانية ، تجلب منها عمّالها وموظفيها، ولكن بشرط أن يكونوا من نصارى مصر. حتى لا يتمكنوا من الاندماج مع السودانيين ومؤاخاتهم ، بل يبقى ولاؤهم للإنجليز ، أرباب نعمتهم ، وإخوانهم في المسيحية.

هكذا . جاء القبط النصارى إلى السودان ، وأقاموا بها جاليات . هذه حقيقة ! ولكن فرق كبير وبون شاسع بين أن يكون مجيئهم هرباً من استبداد المصريين المسلمين بهم ، وبين أن يكون مجيئهم للعمل في خدمة السلطة المستعمِرة ؛ حيث لم يفلح في هذا العمل غيرهم.

أقول : منذ هاتيك الأيام بدأت بذرة هذا البحث ، وبدأت أنظر لتاريخ أمتنا ، وأتأمل في وقائعه وأحداثه ، وأعيد النظر فيما كان يعتريني من قلق غامض خانق، حينما أقلّبُ كثيراً من صفحات تاريخنا الإسلاميّ.

وبدأت أرصد -قدر جهدي- ما يقال ويكتب عن هذا التاريخ الإسلاميّ العظيم ، فوجدت عجباً.

وسأحاول أن أسجل في الصفحات التالية بعض وسائل ومظاهر تشويه تاريخنا الإسلامي:

معنى التاريخ :

من المناسب قبل أن نتكلم عن تشويه تاريخنا ، أن نبين معنى التاريخ ومفهومه.

وبعيداً عن المصطلحات الغريبة ، أو العبارات الغامضة ، نستطيع أن نقول : إن التاريخ ليس سجلاً للمعلومات والحوادث ، وجمعاً لها ، فلو كان كذلك، لكان مجرّد اجترارٍ للماضي للتسلية أو الفخر ، وما كانت العنايةُ بدراسته ، وما استحق هذا الاهتمامَ من رجال التربية ودعاة الحق ، والحثَّ على العناية به وإبرازه. يقول المفكر الإسلامي الكبير السيد «أبو الحسن الندوي»:« فلنكثر من تدريس كتب التاريخ ، من دراسة الحوادث والحكايات، فإن للحوادث والحكايات تأثيراً ليس للمنطق والبرهان والمقالات العلمية (نحو التربية الإسلامية ص ١٦).

وإذا لم يكن التاريخ سجلاً للأحداث ، «وأرشيفاً» للمعلومات ، فما هو ؟

إن التاريخ في حقيقته «ليس هو الحوادث » ، ولا سردها وتبويبها، ولكنه تفسير هذه الحوادث ، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها ، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات ، متفاعلة الجزئيات ، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحيِّ في الزمان والمكان ».(سيد قطب: في التاريخ : فكرة ومنهاج: ٣٧).

ويقول المفكر المعاصر الدكتوررشدي فكّار:« إن أحد أضلاع الغائب المثلث ، هي غيبة التعرف الاستيعابي على الماضي ، فلابد من التحفظ على أهواء المؤرخين ، وإخضاع ما دوّنوه للتمحيص والتدقيق، ثم نخضع هذه الحوادث والوقائع الثابتة المؤكدة الصحيحة للتحليل والدرس ، ولفلسفة التاريخ، وبالدراسة الموضوعية يمكن أن نجد قُدرةً هائلة تعطينا ثقة في مستقبلنا »(محاضرة له بعنوان:الإنسان العربي بين التأزم والانطلاق).

وبهذا المفهوم للتاريخ تُهرع الأمم في الأزمات والنكبات إلى تاريخها ، تستلهمه العبرة والعظة ، وتستضيء به في حاضرها ، ومستقبلها.

والتاريخ بهذا المعنى ليس علمَ الماضي ، وإنما هو علم الحاضر والمستقبل ، ولذا كان حرص أعدائنا على طمس تاريخنا وتشويهه ، لتضليل الحاضر ، وطمس الطريق إلى المستقبل .

ما يتميز به التاريخ الإسلامي :

إذا كان تاريخ كل أمة ، هو ضوء مستقبلها ، ومجد حاضرها ، فإن تاريخ الإسلام أكبرُ من كل هذا ، وأبعد خطراً من كل تاريخ ؛ ذلك أن التاريخ الإسلامي في حقيقته هو التطبيق العملي للإسلام ؛ فالتاريخ الإسلامي هو الإسلام مطبقاً منفذاً ، فإذا كان القرآن الكريم والسنة الصحيحة هما شرائع الإسلام وهديه ، فإن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصحابته والمسلمين من بعدهم هي الإسلام مطبقاً منفذاً ، وإذا حاولت أن تفصل بين عمل المسلمين في القرون الأولى وبين الإسلام ، فأنت بين أمرين كلاهما خطير ، وأخطر من الخطير.

خطورة تشويه التاريخ الإسلامي :

وأحسب أن هذه الخطورة من الوضوح بمكان ، فهي تتمثل في ناحيتين:

أ - تشويه الإسلام نفسه ، حيث يظهر عجزُه عن التطبيق ، وأن يسود دنيا الناس ويحكمها . ولقائلٍ معاند أن يقول:مبادىء الإسلام وهديُه وشرائعُه أعظمُ وأجلُّ ما عرفته البشرية ، ولكنها منهاجٌ ربانيٌّ لا يطيقه البشر !! وإلا فيم تفسرّون عجزَ صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنفسِهم عن الالتزام بهذا الإسلام ، منذ عهد عثمان إن لم يكن قبل ذلك ؟ حينما نُسلِّم ونقرّ بهذا التشويه للتاريخ ، نُسوِّغ للمعاندين الجاحدين أن يقولوا هذا .

ب- القضاء على النموذج والمثال الذي يُتَّبع ويحتذَى ، فحين ينادي الدعاة بتطبيق الإسلام دينا ودولة ، عقيدة وشريعة ، سيجدون من يسأل : على أي نظام ؟ على أية هيئة ؟ على النمط الأموي؟ الذي كان وكان ..

.. أم على النمط العباسي ..؟! أم على النمط العثماني ..؟؟

فإذا قلنا : على نمط الخلفاء الراشدين . قالوا: على نمط عثمان بن عفان وما جرّه على الأمة من فتنة ؟ وإذا قلنا : على النمط العُمري . ربما لا يمانعون ، ولكن يقولون: كانت فلتة، ولم تطل ، وانتهت بمقتل عمر ! ثم يقولون : وأي نظام هذا الذي يسقط بعد بضع عشرة سنة ؟!

هكذا يقول أعداء الإسلام ، بينما يجد دعاة الشيوعية النموذج الذي يدعون إليه، وكيف خرج بـ « روسيا »[1] من عهد القياصرة المظلم إلى عصر القوة والسيادة، والمشاركة في قيادة العالم بمقدار النصف .

ويجد دعاة الرأسمالية النموذج الذي ينادون به في أمريكا زعيمة العالم الحر ، ويجد دعاة «الليبرالية» نموذجَ الحرية والديمقراطية في انجلترا ، وهكذا..

نقول هذا لنؤكد أن الحديث عن تشويه التاريخ الإسلامي ، وضرورة إعادة كتابته ليس مسألة ترف ، وإنما هو أمرٌ يتصل بكياننا ، وبصميم عقيدتنا وديننا ، وأن نكون أو لا نكون .

مظاهر تشويه التاريخ الإسلامي :

إن هذه المظاهر لا تحتاج إلى دليل أو بيان ، فما عليك -إذا أردت أن تتأكد من ذلك ، وترى مظاهر هذا التشويه -إلا أن تسأل أيَّ دارس لهذا التاريخ ؛ على أي مستوى من الدراسة من الابتدائي إلى الجامعة- أن يرسم لك بالكلمات والجمل صورةً لأي فترة من فترات التاريخ ، أو يلخص لك ما يعرفه عن أي عصر من عصور التاريخ ، وحينئذ ستسمع ما تدمى له القلوب.

وقد حاولت شخصياً شيئاً من ذلك حين سألت طلابي: من يوجز لنا في سطور صورة عهد عثمان بنِ عفان -رضي الله عنه- ؟ فكانت الإجابة

(١) قلنا ذلك قبل انهيار الاتحاد السوفيتي ، وسقوط الشيوعية ، ومع ذلك تبقى روسيا زعيمة الكومنولث الجديد ، نموذجاً يماري به الرافضون والمعاندون لكل ماهو إسلامي .

-بنفس الألفاظ تقريباً-: «كان -رضي الله عنه- رجلاً تقياً صالحاً ، ولكنه كان شيخاً كبيراً ضعيفاً، وكان فيه ضعف شديد نحو أسرته وقبيلته ، فأقطعهم الإقطاعات ، وولاهم الولايات بغير حق ، وغلبه هو أيضاً حب الدنيا، فاستولى على أموال المسلمين، وسكن بها القصور، وترفه وتنعم بها» كذا قال. وجميع زملائه يقرون ويوافقون .

والتجربة الثانية حين سألت : من يوجز لنا الحديث عن عصر «هارون الرشيد» ؟ -وكما توقعت- علت البسمة الخبيثة شفاه الجميع ، وكأنهم يقولون: اعفنا من الحديث في هذا الموضوع ، حتى لا نصرّح بما يقبح ذكره !!

إن تشويه التاريخ الإسلامي حقيقة واقعة ، يدركها كل من له إلمام -مجرد إلمام- بالتاريخ ، فلسنا بحاجة إلى تلمّس مظاهره. وإن عارض في ذلك معارض ، فمعناه : أنه آمن بما سمع ، وصدّق ما قرأ ، واعتقد أن هذه الصورة الشوهاء هي الحقيقة.

وسائل تشويه التاريخ الإسلامي

مثل كل محاولات الغزو الفكري تتم في هدوء ، وتلبس أقنعةً تجوز بها ، وتدخل إلى الأفئدة والعقول ، ووسائل تشويه التاريخ الإسلامي لا تقف عند حد ولا عدّ ، ولكننا نستطيع أن نشير إلى خطوطها العريضة على النحو التالي :-

١- التركيز على الأعمال العسكرية :

في كثير من الأحيان يقدّم التاريخ الإسلامي وكأنه تاريخ غزوات وفتوحات وحروب وبطولات وكفى ، وهذا الأسلوب يعمد إلى الأعمال العسكرية ، فيشبعها تمجيداً وثناءً ، وحديثاً عن التضحيات والبطولات الفذّة ، والمهارة في القيادة والتعبئة .. إلخ .

وربما يبدو للبعض أن هذا عمل جيد ، وأسلوب قيمٌ ، حيث يملأ النفوسَ حماساً وقوة ويملأ القلوبَ إعجاباً بالأسلاف الأمجاد الذين (دوّخوا العالم وهزموه). وقد يكون ذلك مطلوباً مرغوباً ، وهدفاً مقصوداً.

ولكن خطورة عرض التاريخ الإسلامي بهذه الصورة أنه ييسرّ السبيل للقائلين بأن الإسلام انتشر بحد السيف ، ويجعل أبناءنا عاجزين عن ردّ هذه التهمة.

كذلك. حينما ينطفيء هذا الحماس وهذه الفورة ، يبقى الشعور بأن الإسلام والأمة الإسلامية لم تقدم للحضارة والإنسانية شيئاً.

وإذا أردت دليلاً على ذلك ، فما عليك إلا أن تتناول أي كتاب من كتب التاريخ الإسلامي ، الذي يدرس في المدرسة الابتدائية ، أو الإعدادية ، أو الثانوية ، أو الجامعة ، وبدون اختيار ، وعشوائياً أمامي الآن كتابان: أحدهما:«التاريخ الإسلامي العام» للدكتور علي إبراهيم حسن الأستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة ؛ والثاني:« تاريخ العرب القديم وعصر الرسول » للدكتور نبيه عاقل الأستاذ بكلية الآداب جامعة دمشق ، فالكتابان مما يدرس في الجامعات . وإذا نظرت في الكتاب الأول تجد نسبة عدد الصفحات التي تحدثت عن المعارك العسكرية إلى عدد الصفحات التي تحدثت عن كل الجوانب الأخرى هى نسبة٨٢ : ١٨ أي ٨٠٪ من الصفحات تتحدث عن الأعمال العسكرية ، والعشرون الباقية تتحدث عن باقي الموضوعات: منذ ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم ،وإرضاعه ونشأته حتى وفاته.

والكتاب الثاني ليس أحسن حالاً من سابقه ، فقد عقد فصلاً بعنوان «محمد(٢) في المدينة» يستغرق ١١٧ صفحة شمل الحديثُ عن الجانب العسكري والمعارك الحربية فيها نحواً من مائة صفحة !!

* * *

٢- عدم إعطاء الأعمال العسكرية حقها من التفسير والتعليل:

ومع ما في التركيز على الأعمال العسكرية، والاهتمام بها ،وإبرازها من خطر، إلا أنهم يضيفون إليه خطراً آخر ، حين لا يعطون هذه الأعمالَ نصيبَها من التفسير والتحليل والتعليل ، فيعزلونها عن ظروفها التي وقعت فيها ،

(٢) صلى الله عليه وسلم .

ومبرراتها التي دعت إليها ، والعوامل التي أدت إلى خوضها.

وأقرب مثال إلى ذلك «غزوة بدر» ؛ حيث تُعرض أحداث هذه الغزوة ، ووقائعُها بصورة كل ما فيها تمجيد لشجاعة المسلمين ، وكيف انتصروا مع قلة عددهم وكثرة عدوّهم.

ولعل من الأفضل أن أعرض ما كتبه أحد المؤلفين الكبار ، صاحب الكتاب المشهور الذي يُعدُّ مرجعاً هاماً من مراجع التاريخ الإسلامي ، وأعنى به الدكتورحسن إبراهيم حسن في كتابه« تاريخ الإسلام» ؛ فقد جاء في الجزء الأول ص ١٠٩ ما نصه بالحرف الواحد:« وفي رمضان من السنة الثانية للهجرة وقعت غزوة بدر الكبرى ، فقد ندب الرسول (صلى الله عليه وسلم(*)) نفراً من المسلمين لاعتراض قافلة قريش وهي قادمة من الشام ، فلما علم بذلك أبو سفيان بنُ حرب -رئيس القافلة- بعث إلى قريش من يخبرها باعتراض المسلمين لتجارتهم ، ويستنفرهم لاستنقاذها ، ثم غير طريقَه ، وتوجه إلى البحر وسار بحذائه حتى جاوز موقف المسلمين ، ثم انسل إلى مكة دون أن تُمس تجارة قريش بسوء . وقد التقى الرسول بقريش عند ماء بدر ، وكان عددهم يتراوح بين تسعمائة وألف ، فيهم العباس بن عبد المطلب عم الرسول (صلى الله عليه وسلم(*)) ، وأبو جهل بن هشام بن المغيرة فنصر الله المسلمين ، وقُتل سبعون من رجالات قريش وساداتهم ، أما المسلمون، فقد استشهد منهم أربعةَ عشرَ .

كان لهذه الغزوة أثر كبير في تاريخ الإسلام ، فقد كانت أولّ اصطدام جِدّي بين المسلمين وقريش ، انتصر فيها المسلمون على الكفار ، وتجلى فيه للمشركين مبلغ تمسك المسلمين بعقيدتهم وتفانيهم في نصرة دينهم . وقد أحفظ ذلك رجالات قريش ؛ فأجمعت أمرها على أن تغسل عار تلك الهزيمة بغارة أخرى تشنها على المسلمين»أهـ. وليس بعد هذا إلا بقية حديث عن أثر غزوة بدر في المسلمين والمشركين.

(*) الصلاة والتسليم ليست بالأصل مع أن المؤلف أشار إلى أن مرجعه سيرة ابن هشام،والطبري. فلماذا حذف الصلاة والتسليم ؟ ألا يدل ذلك على أنه ينقل عن أحد المستشرقين ، ويزعم أنه رجع بنفسه إلى ابن هشام والطبري .

وتستطيع أن تتناول بيدك عشرات الكتب التي كتبت عن غزوة بدر، فلا تجدها تعرضها إلا بهذه الصورة ، والاختلاف بينها ليس إلا في التفصيل والإجمال ، ولكنها جميعاً تقول : إن الرسول نادى في المسلمين: أن اخرجوا إلى طريق القوافل، لتعترضوا تجارة قريش وتأخذوها. فلما تيقظ لهم أبو سفيان وأفلت منهم ، اتجهوا إلى بدر، حيث فتكوا بالذين جاءوا ، فتكوا بقريش التي جاءت تنقذ تجارتها.

هكذا .. قطعٌ للطريق ! ونهبٌ للتجارة ! وإلا ففتكٌ بالنجدة التي جاءت لإنقاذها! ويقرأ شبابنا في الجامعات تاريخ نبيهم وصحابته بهذه الصورة ، فيترسب في أعماقهم ما يترسب ، ثم يُدعوْن إلى الإسلام والتمسك بهديه ، فيحارون ويضطربون !

ألم يكن في وسعه أن يقول : إنه باستقرار النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة بدأ عهدٌ جديد ونظام جديد ، لم تره جزيرة العرب من قبل ، بدأ لأول مرة ميلاد دولة ذاتِ حدود ومعالمَ ، الولاء فيها ليس للقبيلة ، ليس للدم ، ليس للعصبية ، فقد تآخى المسلمون من المهاجرين والأنصار ، وامتزج المسلمون على اختلاف القبائل وتباعدها ، بل وتصارعها وتحاربها ، بل وقوتها وضعفها ، ورفعتها وضعتها، لأول مرة كان في الجزيرة دولة تؤمن بعقيدة ، وتحمل رايتها ، ومن الطبيعي أن يكون لهذه الدولة حدود ، ومن حقها أن تحمي حدودها وتدفع عنها . وإذا كان طريق القوافل يمرّ في أرضها ، فمن حقها أن تسيطر عليه ، ومن حقها أن تصادر تجارات الأعداء التي تمر في أرضها. بهذا تقضي القوانين الطبيعية ، ومازلنا ليومنا هذا في عصر «القانون الدولي» نسمح لكل دولة أن تسيطر على الممرات الدولية التي تمر بأرضها ، وبالتالي تمنع أعداءها من استخدام هذه الممرات ، وتصادر كل من يخالف أو يعتدي ، وأقرب مثال إلى أذهاننا «قناة السويس » ومصادرة أي بضائع إسرائيلية تمرّ بها.

وكان من الممكن أن يقول : إن المسلمين خرجوا يعترضون تجارة قريش ، لأنها كانت في جملتها أموال المسلمين التي تركوها وراءهم عندما هاجروا متخفين مستترين .

ولا يحاول أحد أن يعتذر عن الكاتب بأنه غير مطالب بكل شيء عن الغزوة ، حيث من حقه أن يوجز أو يطنب كما يشاء .

أقول : لا يقبل هذا عذراً ، لأن الكاتب استمر في حديثه عن الغزوة وما يتصل بها ، فأفاض في خبر الغنائم وكيف قسمها المسلمون ، مبيناً أنها كانت مجال صراع وتنازع وحرص .وقد أحصيتُ ما كتبه عن نزاع المسلمين حول الغنائم بالسطر، فوجدته يزيد عن نصف ما كتب عن الغزوة وآثارها.

وهكذا تعرضُ الأعمال العسكرية معزولة عن ظروفها ، مقطوعةً عن ملابساتها؛ لتوحي بما توحي به من تشويه وإساءة !

* * *

٣- إعطاء تفسيرات لبعض الأحداث ودوافع لبعض الأعمال أقل ما توصف به الخبث وسوء النية:

والأمثلة على ذلك لا تقع تحت حصر :

* تعالَوْا نقرأ في كتاب « تاريخ الإسلام » جـ ١ ص ٢١٦ للدكتور حسن إبراهيم حسن مانصه:

« .. وجه «أبو بكر » همَّه بعد ذلك إلى إخماد الفتن والثورات الداخلية ؛ ليشغل العرب بالحروب الخارجية ؛ لأنها كانت تفي بما أمر به الدين من نشر الإسلام من جهة ؛ ولأنها كانت من جهة أخرى استغلالاً صالحاً لما جُبل عليه العربي من حب القتال ، لذلك لم يكد «أبو بكر» ينتهي من حروب الردّة الطاحنة، التي شنها على العرب المارقين ، حتى أرسل تلك الجيوشَ ، وزوّدها بالأمداد يتلو بعضُها بعضاً لفتح البلاد ، ونشر الإسلام فيها ..».

ثم نقرأ في كتاب «الدولة العربية» للدكتورالسيد عبد العزيز سالم، وهو يعدد العواملَ المساعدة للفتوح الإسلامية ، فيقول في صفحة ٤٦٦ مانصه:«ومن العوامل النفسية أيضاً ، حرصُ «أبي بكر» على ملء

الفراغ الهائل الذي ترتب على وفاة رسول الله(٣) ، فقد زعزعت وفاةُ رسول الله كيانَ الدولة العربية ، وساعد عليها التنازع على الخلافة وحركة الردة، ولولا حكمة أبي بكر وحُنكته السياسية ، لما أمكنه إعادة توحيد العرب ، وتقويم البناء ، ويبدو أن أبا بكر كان يميل الى شَغْل القوى التي تمكنت من قمع حركة الردة بمهامٍّ جديدة، حتى لا يتفرغوا للفتن التي ألفها العربُ في أوقات فراغهم ، فلم يجد أنسبَ من تسخير هذه الطاقة الكبيرة التي أثبتت قدرتَها وكفايتَها في حرب الردة ، في مشروعات حربية ، تحقق للدولة العربية الفتية أهدافها».أ.هـ بنص حروفه.

ولعل الأمر بهذه الصورة ، وبهذا الوضوح لا يحتاج إلى تعليق !! هكذا -بكل ذكاء- لا يحسدان عليه ! أدرك المؤرخان البارعان - وأمثالُهم كثير- السرَّ الخبيء ، وعرفوا طويّة الخليفة الراشد، وتفضّلوا عليه بلقب الحُنكة والمهارة السياسية ، ورأوا بأعينهم ما أخفاه في ثنايا قلبه عن كل جيوشه، وصحابته ومستشاريه ، فافتعل المعارك مع جيرانه في الشرق والشمال ، وساق إليها عشراتِ الآلاف من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرّضهم للقتل والفناء ، حتى يشغَلهم عن الصراع الداخلي، ليثبت له سلطانهُ ، ويستقرّ ملكه، ويسن هذه السنة لمن بعده، فيستمرون على منواله ، في صراع الأكاسرة والقياصرة ، إلهاءً لأمتهم ، ولا أقول لجيوشهم ، فقد كانت الأمة كلها تخرج للجهاد !!

وبعد أن نهنيء هؤلاء المؤرخين «العظام جداً» على ذكائهم النادر، نستأذنهم في أن نسائلهم :

* ألم يتنبه واحد -فردٌ واحد فقط- من هذه الأمة ، فيسائلَ الخليفة عن جدوى هذه المعارك؟ في وقت كانت الأمة تناقش خلفاءها وأمراءها في النقير والقطمير ، وتسائلهم عن دقّ الأمور وجلّها ، بصورة من الشورى والحرية ، لم ترد الدنيا مثلها، ولا يستطيع هؤلاء المؤرخون أنفسهم إنكارها ؟! .

---

(٣) صلى الله عليه وسلم

* ثم هل يمكن أن تكون المعارك الحربية وسائلَ لإلهاء الأمم ؟! أخالُ هؤلاء المؤرخين يقيسون ذلك على من يلهون شعوبهم بمباريات الكرة ونحوها !!

* وهل إذا جاز ذلك من الحكام خلفاء «ميكيافيللي» وتلاميذ مدرسته ، إذا جاز ذلك من هؤلاء فهل يجوز من الصدّيق الراشد ، ومَنْ بعده من الراشدين خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

* ومن أمثلة ذلك الخطل في التفسير للأعمال والأحداث : ماقيل عن خروج «عائشة» -رضي الله عنها- يوم «الجمل» وأنها كانت بهذا الخروج والثورة على الإمام «عَلي» تُنَفِّس عن ضِغْنها وكراهيتها للإمام علي منذ حادثة الإفك !

* وأيضاً تفسيرهم لخروج طلحة ، والزبير -رضي الله عنهما- لنفس الموقعة ، بأنهما كانا يطمعان في الولاية على بعض الأقاليم ، فلما غير علي -رضي الله عنه- عماله وولاته ولم يولِّ واحداً منهما خرجا عليه اغتياظاً وحنقاً!(انظر التاريخ الإسلامي العام ص ٢٦٢ للدكتور علي إبراهيم حسن، وهو أيضاً من الكتب ذات الشأن في الجامعات المصرية) وانظر أيضاً (تاريخ الإسلام : ٣٧٢/١ للدكتور حسن إبراهيم حسن).

* ومنهم من يفسر خروج طلحة والزبير بأنهما كانا قد جمعا ثروات هائلة من الفتوح والمعارك ، وخافا عليها من جِدِّ «عليّ» واستقامته. يقول نبيه عاقل في كتابه «خلافة بني أمية» ص ٢٣:« ومن أجل الفصل في قضية موقف طلحة والزبير من عليّ ، واختلاف هذا الموقف قبل بيعته وبعدها، لابد أن نعود للتذكير بما أسلفنا من حديث عن أسباب النقمَة على «عثمان» ولاسيما الجانب الاقتصادي من هذه النقمة، بسبب توقف الفتوح واستئناف الأرستقراطية المكية القديمة نشاطها التجاري ، ونقلها لهذا النشاط من الحجاز إلى الأمصار ، حيث أثرى بعض رجالات قريش

ثراء فاحشاً ، وكنا قد ضربنا مثلاً بما حصل عليه كل من طلحة والزبير من أموال ومتاع وعقار وعبيد، جعلتهما من كبار رجال رأس المال اللذين يهمهم جداً أن تكون أمور الدولة بيد رجل يقبل بأن تسير الأمور على هواهما ، ووفق مصالحهما، وعليٌ رجل جد واستقامة ودين ، ويعرفان سلفاً أنه قد يقف حجر عثرة في طريق مصالحهما المادّية، ولو آلت الخلافة لواحد منهما على ما له من سابقة في الإسلام ، وعضوية في شورى عمر، لضمنا لأنفسهما يُسراً في الأمور ، لن يتحقق لهما في ظل خلافة شخص كعلي».

هكذا .. ! أم المؤمنين «عائشة» الطاهرة المبرأة ، ومعها «طلحة» الخير ، و«الزبير» حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهما من المبشرين بالجنة ، هؤلاء الثلاثة يثيرون حرباً ضارية يقتل فيها الآلاف ، من أجل إحنٍ شخصية، أو طموحاتٍ فردية ، أو مصالحَ مادية !!

٤- ذكر أحداث في صورة أكبر من حجمها :

مثال ذلك : ما كتبه الدكتور «نبيه عاقل » في كتابه«تاريخ العرب القديم وعصر الرسول» عن مقتل «كعب بن الأشرف» : فقد خصه بعنوانٍ وحده في الفهرس. وأبرزه بين الأعمال العسكرية التي عددها للرسول صلى الله عليه وسلم من غزوات وسرايا ، فصار مقتل «كعب بن الأشرف ، منسوباً إلى باقي الأعمال العسكرية ، كواحدٍ من بضع وعشرين عملاً عسكرياً ، مع أن مكان هذا العمل الطبيعي هو الحديث عن معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود ، ومعاهدته لهم ، وتسامحه معهم ، وحرصه صلى الله عليه وسلم على هدايتهم،وأمله في إيمانهم،وهم مع هذا يتآمرون عليه، ويدبّرون لقتله ، ويسبُّون المسلمين ويهجونهم ، ويشببون بنسائهم ، ويحرضون عليهم .. !! فإذا ذكر مقتل «كعب بن الأشرف» في مكانه الطبيعي هذا ، وفي هذا السياق ظهر أن القتل كان أقل جزاء يوقّع عليه ، وأنه قصاصٌ عادل.

* * *

٥- سوء التعبير والألفاظ في كثير من الأحيان :

فنجد بعض الكتاب يستخدم ألفاظاً وتعبيرات تضيف إلى سوء المعنى سوءاً آخر ، وإلى تشويه الأفكار تشويهاً آخر، مثال ذلك : ما نقرؤه في أحد الكتب التي تدرّس لأبنائنا في المرحلة الابتدائية ، في دولة إسلامية عربية كبرى ، يقول المؤلف : «كان ضعف دولتي الفرس والروم في عصر الخلافة الرشيدة مشجعاً للعرب على غزوة بلادهما ..» كذا ! خلافة رشيدة ويشجعها ضعف جيرانها على أن تغزوهم ! فأين الرُشْد؟ ويعلّم هذا لأبنائنا، في الوقت الذي يتنادى فيه العالم بالدعوة إلى السلام ، والتعايش بين الأقوياء والضعفاء ، في ظل رعاية القانون والحقوق !

في هذا الوقت نفتريْ على الخلفاء الراشدين ، ونقول لأبنائنا : إنهم استضعفوا جيرانهم فأغاروا عليهم ، ولا حرج عليهم حينئذ ، إذا جاش في أعماقهم سؤال يقول : وهل فعلت إسرائيل غيرَ هذا ؟ شجعها ضعف جيرانها على غزوهم!!

وفي نفس الكتاب نقرأ أيضاً : «اتسعت الدولة في عهد «أبي بكر» اتساعاً كبيراً على حساب دولتي الفرس والروم »!

وقد تكون الفكرة سليمة ، لكن سوء التعبير والألفاظ يشوه الفكرة ، ويكسو المعنى كله ظلالاً قاتمة تساهم في تشويه الموضوع كله.

ومثال ذلك : ما جاء في كتاب الدكتور نبيه عاقل « تاريخ العرب وعصر الرسول» ص ٤٦٦ :« ولعل أهم ما أظهرته غزوة بدر هو أن أبا جهل كان على حق حين اعتقد بأن «محمدا(٤)» ليس بالخطر الصغير الذي يستهان به، وأنه إذا كان لقريش أن تعيش بسلام ، فلابد لها من الخلاص منه» فأي سوء في أسلوب التعبير أكبر من هذا؟

ومثل هذا أيضا قول صاحب كتاب (التاريخ الإسلامي العام):« وكان علي يعتبر نفسه الخليفة الحق ، ولذا حاول إصلاح المفاسد التي وقعت في

---

(٤) صلى الله عليه وسلم

زمن سلفه عثمان ..» (انظر ص ٢٦٢) كذا !! (المفاسد التي حدثت في عهد عثمان)، وتسمونها خلافة راشدة.

وفي الصفحة التي تليها يقول :« ... وكان عبد الله بن عمر ، يرى في انزواء عائشة المحافظة على كرامتها ...» كذا (انزواء). وكرامة معرضة للامتهان في عصر الصحابة ، قدوة الأمة ونقلة الرسالة.

هذه مجرد نماذج ! وتستطيع أن تتناول أي كتاب من كتب التاريخ الإسلامي وتقرأ فيه بشيء من الاتئاد ، وستجد نماذج لا حصر لها.

* * *

٦- بتر الأحداث وعرضها من جانب واحد :

ونعني بذلك : أن يعرض الموضوع من زاوية واحدة، فيعرض بعض الحقائق دون البعض الآخر ، ولا يستطيع أحد أن يكذب هذه الحقائق ، ولكن ذكرها وحدها هو أخبث أنواع الكذب والتزييف والتضليل ، وهذا أمرٌ مشاهَد ملموس في حياتنا اليومية ، حيث يذهب الذاهب إلى إحدى المدن ويعود ، فيحدث بما رآه من مواخيرها، وملاهيها ، وفسادها، فيخيل إلى سامعه أن هذا كلُّ ما في المدينة.

وقد يعود آخر من المدينة نفسها ، فيحدث بما رآه من مساجدها ، ومكتباتها ، وعلمائها وأدبائها ، ومفكريها ، ومجاهديها ، فيخيل إلى السامع أن هذا كل ما في هذه المدينة !

وقد اتُّبِعَت هذه الوسيلة في كتابة التاريخ الإسلامي ، بصورة تكاد تكون عامة، فمع التركيز على الأعمال العسكرية ، وعدم إعطائها حقها من التعليل والتفسير ، مع هذا يذكر من الأعمال العسكرية -غالباً- ما قام به المسلمون من جهاد ، وصمود ، وبطولة ، ومهارة ، ثم ما حازوه من غنائم ، لكن لم نقرأ مثلاً في أحداث هذه الحروب ما كان يوصي به الخلفاء والأمراء قواد الجيوش من الطاعة ، والبعد عن المعاصي ، وعدم التعرض للنساء ، والأطفال، ومن لم يقاتل من الرجال ، وبلغة العصر : عدم التعرض للأهداف

المدنية.

كذلك لم نقرأ مثلاً عن كراهية «عمر» للحروب ، وأنه حين رُشّح له أحدُ القواد المهرة أقرّ بكفاءته ، ولكنه كره توليته لأنه متعجل مندفع ! ، ولم نقرأ مثلاً قولَ «عمر»الذي يؤكد كراهيّته للحرب حين قال:« وددت لو أن بيننا وبين فارس جبلٌ من النار ، لا يعلونه ولا نعلوه » وما ورد من أن المسلمين كانوا يتوقعون هجوم الفرس من قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وعلى هذا المنوال ذكر تاريخ الخلفاء المسلمين ، فهذا معنيٌ بالترفه والتنعم ! وهذا بالشعر والشعراء ! وهذا مفتون بالعروبة والعرب ! كاره للأعاجم محتقر لهم !! وهكذا .. ..

وإذا أردنا مثالاً من تاريخنا -هذا القريب- نجد المؤرخين للحملة الفرنسية يقولون لنا:« استيقظ الشرق علي طلقات مدافع نابليون ، وجاءت الحملة بأول مطبعة عرفها الشرق ، وأول معمل للكيمياء ، ورسمت أول خريطة للبلاد، وأصدرت أول صحيفة » وهذا صحيح !

ولكن كان يجب أن يقولوا أيضاً:إن الفرنسيين أولُ من نظموا المواخير والحانات، وأعطوْها التراخيص جهاراً ، وأولُ من أباحوا البغاء الرسمي ، وأولُ من أدخلوا السفور والفجور ! كان الأولى أن يقولوا هذا بجانب ذاك ، وأن يذكروا التخريب والتدمير ، وسفك الدماء ، واستنزاف خيرات البلاد....

بل قالوا أيضاً : إن الناس رأوا أول محاكمة عصرية ، ونظروا إليها بإكبار ، وعجبوا حين رأوا لأول مرة قاتلاً متلبساً لا يقتل لساعته ، وإنما يوقف أمره لحين التحقيق بطريقة عصرية متحضرة ! .. حيث يستقدمون له محامياً من « باريس» للدفاع عنه ، ثم يقف أمام المحكمة التي تتكون من عدة مستشارين ، ومجموعة من المحلفين ، حتى يكون الحكم عن يقين ، فيكون عادلاً لا تشوبه شائبة.

وهم بهذا يشيرون إلى ما كان من محاكمة «سليمان الحلبي» قاتل

«كليبر» . وكل هذا صحيح ! من حقهم أن يقولوه ! ولكن .. ..

ولكن كان يجب أن يقولوا أيضا: كيف كان حكمُ المحكمة «العصرية المتحضرة»؟! وماذا كان قبل أن تنعقد المحكمة المتحضرة جداً !! . كان يجب أن يقولوا: إن حراس «كليبر» ومعهم جماعات من جنود الاحتلال الفرنسي ، انطلقوا في شوارع القاهرة ، يقتلون كلّ من يقابلهم من الرجال والنساء والصبيان ، حتى قتلوا نحواً من مائتي شخص انتقاماً لمقتل كليبر ، قبل أن تنعقد المحكمة «العصرية» ! .. كذلك لم يقولوا : إن حكم المحكمة «العصرية جداً» ! كان ينص على :

١ - يقتل كل من حامت الشبهة حول اشتراكه مع سليمان أمام عينيه !
٢ - تشوى يد سليمان اليمنى حتى المرفق في النار ، وهي متصلة بجسده !!
٣ - ينفذ فيه حكم الإعدام ، بأن يُجلسوه على آلة حادّة تمزّق أمعاءَه ! هكذا.. أعجب آلة جهنمية تفتق عنها ذهن المحكمة «العصرية جداً» !!

وقد سخر منهم سليمان الحلبي ، أبلغ سخرية ، حينما طارت جمرة نار إلى ذراعه، فطلب إبعادها قائلاً: إن الحكم ينصّ على حرق اليد فقط !

وعندما طلب شربة ماء وهو في النزع الأخير، وهمّ أحد الجنود بإعطائها له ، منعه رئيس هيئة التنفيذ قائلاً: «إن الحكم يرمي إلى إطالة تعذيبه ، وقد تساعد شربةُ الماء على تخفيف آلام الحشرجة ، وتسهل خروج الروح» .(ارجع في هذه النقطة إلى مذكرات «فرانسوا» -أحد رجال الحملة الفرنسية- وقد ذكر هذا جلال كشك في كتابه « .. ودخلت الخيل الأزهر».!

كذلك لم يقولوا شيئاً عن وقع هذا الغزو الفرنسي ، وأثره في العالم العربي الإسلامي ، فمن الثابت تاريخياً : أن أهل الحجاز أعدوا جيشاً لمساندة مصر والشام ، وأعلنوا الغضب والحزن والآسى ، وجرّدوا الكعبة من ستائرها، إظهاراً للألم على ما أصاب جزءاً من بلاد الإسلام ! وقد عبر الجيشُ العربي البحرَ الأحمر فعلاً ، ووصل إلى صعيد مصر ، كما قامت بلاد الغرب -ليبيا

وما يليها- بإعداد قوات مماثلة لذات الغرض !

كل ذلك لا يقال !! ولم نقرأه في السائد من كتب التاريخ ، بل كلها تصور الحملة الفرنسية بأنها هي التي فتحت باب العلم ، والنور والحضارة إلى بلاد الشرق!!

* * *

٧- استخدام الدراسات الأدبية في تشويه التاريخ :

وهذه الوسيلة لا تقل عما سبقها من الوسائل ، بل ربما كانت أخطرَ منها، وأبعدَ أثراً ، ذلك أن اعتماد الأدب -بكل فنونه- مصدراً من المصادر للمعلومات التاريخية الثابتة يقوم على أساس القاعدة النقدية المسلّمة التي تقول : «إن الأدب مرآة العصر الذي نشأ فيه ، فثبت في الأذهان ، وقرّ في الأفهام أن ما ورد في شعرٍ أو نثرٍ ، هو اليقين الصادق ، الذي لا يقبل الشك.

مع أن هذا ليس علي إطلاقه ، بل «مرآة الأدب» تعكس واقعاً ملّوناً بعاطفة الأديب ومصوّراً بانفعالاته ، وقد قرر ذلك رجال النقد والأدب المقارن أنفسهم ، يقول أستاذنا الدكتورمحمد غنيمي هلال في كتابه « الأدب المقارن» ص ٤٠٢ - عن صورة ألمانيا في أدب « مدام دي ستال» الفرنسية ، وكيف صورتها من خلال ذاتها صورة لا تطابق الواقع -:« هاجرت مدام دي ستال إلى ألمانيا ، ضائقة ذرعاً بما تعانيه فرنسا من طغيان نابليون ، ومن تحكمه في حرية الأفكار فيها، فكانت تنشد في هجرتها بلداً تتمتع فيه بتلك الحرية ، التي حرمتها في فرنسا ، فجاءت آراؤها في كتابتها مشوبة بنوع من المثالية التي تحلم بها ، أضْفتها هي على كل ما رأت ، وما شرحت، وكان كتابها عن ألمانيا بمثابة : صلوات طريد ، ينشد ملاذاً في عالم مثالي، وقد أثّرت بإدراكها هذا في جيل من الكتاب والرحالة الفرنسيين ، فظلت ألمانيا في إنتاجهم بلد الحرية الفنية في المسرحيات والشعر، كما ظلت بلدَ الحياة المرحة الطليقة، التي يتمتع أهلها بملذات الحياة ، في كنف حرية رحبة الآفاق .

وبالرغم من أن الصورة التي رسمتها مدام دي ستال لألمانيا كانت غيرَ صادقة ، ومبالغاً فيها ، فقد ظلت ذاتَ أثر بالغ في معاصريها ، ومن جاء بعدهم من أدباء النصف الأول من القرن التاسع عشر » .

هكذا .. أكثر من نصف قرن ، حتى تغيرت ، أو بدأت تتغير الصورة التي رسمتها للمجتمع الألماني ، ومن يدري إلى أي اتجاه تغيّرت ؟ هل تغيّرت إلى القرب من الواقع ؟ أم بعدت عنه من جانب آخر ، وناحية أخرى؟!

ثم يؤكد الدكتور«غنيمي هلال» هذا المعنى ، ويبين سببه وعلّته فيقول:« فلم تر مدام دي ستال» مثلاً من ألمانيا غيرَ رجال الأدب من المجتمعات الأرستقراطية ، في مقاطعة «ساكس» وغيرَ رجال السياسة ، وبعض الفلاسفة في برلين ، وبمخالطتها لهؤلاء تحددت نظراتها الفاصلة في تصويرها لألمانيا».

ومن هنا لا يمكن أن يقبل قول من يتخذون شعر« عمر بن أبي ربيعة» صورةً للمجتمع في عصره ، ولا شعر «أبي نواس» ، «ومسلم بن الوليد» ، «وبشار» ، وقصص «ألف ليلة» مصدراً لا يرقى إليه الشك من المصادر التي تصور الحياة في جوانبها ونواحيها المختلفة.

والخطر الثاني في الدراسات الأدبية : يكون في تفسير الظواهر الأدبية ، وعوامل شيوعها.من ذلك مثلاً: تعليل شيوع الغزل في العصر الأموي . حيث يقولون:

« لم يكن الغزل فناً مستقلاً ، ينظم فيه الشاعر لذاته في العصر الجاهلي، ولكنه أصبح فناً مستقلاً ، وأصبحت القصائد تنظم من أجل الغزل وحده ، ومن أهم أسباب ظهور هذا الفن :

١ - أبعد الأمويون أبناء المهاجرين والأنصار عن السياسة ، واسكنوهم الحجاز ، ومنحوهم الأموال الطائلة ، ووجد هؤلاء الفراغَ والأموالَ ، فبدءوا ينظمون هذا اللونَ من الشعر.

٢ - كثرت السبايا نتيجة للفتوحات الإسلامية ، وكان معظم أبناء المهاجرين والأنصار من الشباب ، فانصرفوا إلى الغزل وسماع الغناء ، وقال هؤلاء شعراً رقيقاً ، أبدعوا فيه ووقفوا شعرهم عليه»أهـ.(من كتاب النصوص والأدب للصف الأول الثانوي ، صادرعن وزارة التربية ، بمصر).

هكذا يفسرون شيوع الغزل !! بضربة واحدة يصيبون الخلفاء الأمويين ، وأبناء الصحابة معاً ! فالخلفاء خبثاء ، يشجعون على اللهو والفساد ، حتى يُتلفوا الشباب ، ويُلهوه عن حقوقه السياسية ، وكذلك وصموا الشباب من أبناء الصحابة بأنهم «مغفلون» ! لم ينتبهوا لخبث خلفاء بني أمية ومكرهم!!

والأعجب من ذلك : أنهم حين يفسّرون ظاهرة «شيوع الغزل في العصر الجاهلي» ويعللون لها يقولون :« شاع الغزل في العصر الجاهلي لأن العربي بطبعه ذو حس مرهف ، ميال للجمال محبٌ له ، ولأن حياته تقوم على الحلّ والترحال ، فتشعل الشوق في قلبه ، وتحرك لواعجه ، ولأن طبيعة بلاده المكشوفة الساطعة الضوء الصافية السماء -تنعكس على نفسه إشراقاً وحباً، فتدفعه إلى الغزل ».

ولك أن تضحك أو تبكي أو تصرخ : ما هذا ؟ يتغزل العربي الجاهلي، فيقولون : ميال للجمال ! ذو حس مرهف ! ، ويتغزل العربي المسلم، فيقولون : مغفّل يُلهيه الحكام عن حقّه في السلطة ، أو مراقبتها . ياسبحان الله !! كيف تحوّل العربي من رقيق الحس ، محب للجمال ، إلى مغفّل ، مضحوك عليه ، في نحوٍ من أربعين سنة؟!

وخطورة الأدب والدراسات الأدبية ، تأتي من أنها تقدّم على أنها عمل فني ، ودراسة فنية بحته ، غير مقصود إلى ما تحمله من أفكار ، وهي تستقر في الأذهان بدون تنبه لخطرها ، وتستولي على الأذهان على أنها حقائق ، من غير أن يشعر قارئها ودارسها.

من آثار
تشويه التاريخ على الفكر الإسلامي

لقد كان أخطر وأكبر انحراف فكري في هذا العصر الحديث ، هو ما كتبه الشيخ «علي عبد الرازق » في كتابه «الإسلام وأصول الحكم».

ونستطيع أن نقول :إن وراء هذا الانحراف ، وهذا التردي الخطير الصورة المشوّهة لتاريخ أمتنا وأئمتها وخلفائها، ولا نقول ذلك عن استنتاج أو تخمين ، بل نقوله عن يقين نملك الدليل عليه .

وذلك هو قوله في كتابه ص ٢٢ ، ٢٣:« ولولا أن نرتكب شططا في القول ، لعرضنا على القارىء سلسلة الخلافة إلى وقتنا هذا ، ليرى على كل حلقة من حلقاتها طابع الغلبة والقهر ..» فهو لم ير من تاريخ أمتنا إلا غلبة الخلفاء وقهرّهم للأمة الإسلامية ، ومن هنا أباح لنفسه أن يهاجم مبدأ الخلافة، ثم ينكر علاقتها بمبادىء الإسلام وتعاليمه.

وهكذا كان كل ما جاء به من أباطيل مبنياً على رؤيته المشوهة للتاريخ ، ومنبعثاً عن إحساسه المغلوط بماضينا المجيد !

وتطالعنا إحدى المجلات التي ترفع لواء الفكر الحر الجديد ، من أجل المستقبل الأفضل السعيد ، بمقال لكاتب من دعاة الإصلاح في هذا الزمان ، ونجد عنوان المقال: «لئلا يعود هارون الرشيد ..» !

أي والله !! المسكين خائف .. خائف من عودة هارون الرشيد !! مذعور من هارون الرشيد !! لماذا هو خائف من عودة هارون الرشيد ؟!

لن نناقش الأفكار التي وردت في المقال الآن ، ولكن يكفي هذا العنوان، .. ماذا يحمل من معانٍ ؟ وماذا يعطي من دِلالات ؟!

إنه خائف من عودة هارون الرشيد . ليس خائفاً علي نفسه ! ولكنه بالقطع خائف على الأمة !!

وحق له أن يخاف ! فصورة «هارون الرشيد» التي استقرت في ذهنه -وهي للأسف وبكل مرارة .. في ذهن عامة المثقفين والمتعلمين - صورة هارون الرشيد التي تقفز أمام الأعين ، حينما يرن اسمه في الأذن ، صورة الغناء والجواري ، والحرير والعطور ، والترف والخمور ، وأبي نواس والمضحكين ، حتى إننا نجد بعض الفنادق الكبرى في بعض البلاد الإسلامية تُطلق على قاعة الرقص والخمر«قاعة هارون الرشيد» ! من هنا فزع الكاتب المصلح(!) من عودة هارون الرشيد ، وبالتالي من عصر هارون الرشيد ! ومن المبادىء والأسس التي قام عليها حكم هارون الرشيد!!

* ومن أمثلة هذه الآثار أيضاً: ما حدث ذات مساء -عقب محاضرة عن تطبيق الإسلام ، وكيف يكون ؟ وماذا تجنى الإنسانية من ورائه ؟- فقد وقف أحد الرجال المشهود لهم بالفضل والدين والخلق ، ومن الممتازين في مجال الفكر والثقافة ..وقف هذا الأستاذ الفاضل ليقول:إن ما سمعناه كلام رائع لاشك ، وأمل مشرق لاشك ، وفكر منطقيٌ مقنع لاشك ! ولكن الواقع يكذب ذلك ، ويوحي لنا بأن هذا التطبيق أمرٌ مستحيل !! فمنذ عصر الخليفة الثالث بدأ الانحراف والعجز عن التطبيق !! .. .. إلخ .

والعجيب ! أن كلامه وقع موقع التصديق من جمهور الحاضرين ، ولولا أن واحداً ممن عصم الله ، وأدرك ما يدبرّ لهذه الأمة ، أجاب هذا المعقبَ ، وكشف له ما أصاب تاريخنا من تشويه ، لولا ذلك ، لانصرف جمهور الحاضرين ، وهم لهذا المعقِّب مصدقون ؛ فهو ليس فرداً ولكنه نمطٌ ، أو هو النمط السائد بين المتعلّمين والمثقفين !!

ويقع تحت تأثير تشويه التاريخ كاتب كبير ، من الذين يكتبون باسم الإسلام ، ويحملون قلمه ، ويكتبون عن الثقافة الإسلامية ، وأعني به : الدكتور«إسحاق موسى الحسيني» من أعلام المفكرين ، وأستاذ الأدب العربي في معهد البحوث والدراسات العربية التابع للجامعة العربية ، وما يكتبه دائماً موضع ثقة ، وقبول من عامة المثقفين.

ومع ما للرجل من الفضل والمنزلة ، والعلم والثقافة جرى قلمه -عفواً- بكلمات ومقولات رسخها الغزو الفكري في وجداننا ، من مثل قوله :« غزا العرب مصرَ في أوائل القرن الأول الهجري .. غزا المسلمون شمال إفريقية عام ٢٣هـ ٦٢٠م بعد أن أنهى عمرو بنُ العاص احتلالّ مصر ، ولكن الغزو الفعال حدث بعد حوالي أربعين عاماً» !!!

وقد ورد هذا على قلم الكاتب الكبير في كتاب «الإسلام الصراط المستقيم» وهو كتاب اشترك في كتابته عن الإسلام تسعةٌ من كبار الكتاب المسلمين من مصر، وتركيا وفلسطين ، وإيران ، وباكستان ، والصين ، وأندونيسيا، ونشرته أولاً بالانجليزية مؤسسة «فرنكلين» ، ثم ترجم إلى اللغة العربية.(راجع جريدة الأهرام ١١ نوفمبر سنة ١٩٧٧م، حيث كتبت الدكتورة عائشة عبد الرحمن -بنت الشاطىء- مقالاً في نقد ما وقع فيه الدكتور إسحاق موسى الحسيني من أوهام تاريخية وزّلاتٍ فكرية).

والأمر لا يقف عند هذا الحد ، فيقع أسيرَ تشويه التاريخ أحد علماء الإسلام الكبار، وهو الشيخ «عبدالجليل عيسى"رحمه الله"» حيث يقول في كتابه (اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم) ص: ٢٥ بما قال به المؤرخون: من أن «عمرو بنَ العاص » خدع «أبا موسى الأشعري» ويقول بها الشيخ - ذاهلاً عن أنه يصف أحد الصحابيين الجليلين بالتدليس والتمويه والخداع ، والآخر بالغفلة والبلادة -ناسياً ما أجمع عليه من يعتد بقولهم من عدالة الصحابة- رضوان الله عليهم- وما شهد لهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من الأفضلية والمزية ، وغافلاً عما حققه « ابن العربي» في مسألة التحكيم من أنه لم يكن من «عمرو» خدعة ، ولا من « أبي موسى» غفلة.(انظر العواصم من القواصم ص ١٧٢) نجد الإمام «ابن العربي» يقول:

«وقد تحكم الناس في التحكيم ، فقالوا فيه ما لا يرضاه الله ! وإذ لحظتموه بعين المروءة -دون الديانة- رأيتم أنها سخافة حمل على سَطْرِها في الكتب -في الأكثر- عدم الدين ، وفي الأقل جهل متين ..» ! ثم عرض الروايات ونقد ومحص ، ونفى وأثبت ، حتى أبان وجه الحق وبرأ الصحابيين الجليلين ، ويحتاج هذا الموضوع لبحث خاص.

وبعد ، فأضرع إلى الله العليّ القدير أن تكون إطلالة المسلمين على القرن الخامس عشر الهجري مجالاً للمراجعة والتدبر فيما مضى ، وحسن تخطيط لما يستقبل ، وأن يكون تاريخنا أول ما نراجع ، فننفي عنه ما علق به ، ونزيل ما أصابه من تشويه وتحريف ، حتى نتخذ منه عوناً على مستقبلنا ، وضوءاً لطريقنا المستقيم إن شاء الله.

* * *

لماذا رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي؟

هكذا تكون دراسات المستشرقين !!

معجبون كثيرون :

للمستشرقين كثير من المعجبين ، حتى من أصحاب الفكر الإسلامي الأصيل ، فضلاً عن تلامذتهم(المستغربين) وما أكثرهم!

فتجد (المستغربين) يثنون الثناء كلّه ، على كل ما يصدر عن أساتذتهم، ويعتنقون فكرهم ، ويدينون برأيهم ، ويدفعون عنهم، ويهتدون بهديهم ، وينسجون على منوالهم .

وتجد أصحاب الفكر الإسلامي ، وذوي الرأي ، لا يخطف أبصارهم بريق أعمال المستشرقين وأبحاثهم ، ويعرفون كيف يقفون من آرائهم موقف الناقد البصير .. ولكن !!

(*) نشر في مجلة الأمة - العدد التاسع والعشرون، السنة الثالثة ، ربيع الأول ١٤٠٣هـ يناير ١٩٨٢م

ولكن تجد منهم إعجاباً وثناء وتقديراً لجهودهم ، ورأيهم ، ودقتهم في أبحاثهم ، واستقصائهم للمصادر والمراجع ، والأخبار والروايات .. إلى آخر هذه الصفات التي يتظاهر بها المستشرقون .

السبب في ذلك :

والسبب في ذلك هو: ضعفنا نحن لا قوّتهم ، ذلك أن الاتصال بالمصادر الأولى لثقافتنا وعلومنا ، في كتب أئمتنا وسلفنا أصبح أمراً عسيراً ، حيث قُطعنا عنهم أسلوباً ، ولغة ، وفكراً ؛ فصارت التلمذة لهم أمراً صعباً.

على حين عكف المستشرقون ، على هذه المصادر ، واتصلوا بها ، وراحوا يأخذون منها ما يريدون ، ويوجهونها كيف يشاءون .

فرأيناهم صبروا على ما لم نصبر عليه ، وأطاقوا ما لم نطقه ، وارتادوا ما لم نرتده ، واستقوْا حيث قصر منا الرِّشا ، فظننا بهم خيراً (وهذا والحمد لله من طبيعتنا) لا سيما وهم يخرجون علينا في طليسان(الأكاديمية) وتحت شارة الجامعية، وراية المنهجية.

منهج جدّ خطير :

وفي غمرة الإعجاب ، بقدرة المستشرقين على البحث ودقتهم ومنهجيتهم، صار كثيرون يكتفون بالرجوع إلى كتبهم مستغنين بها عن المصادر الأصلية، ومع ما في هذا من خطأ ، إلا أنه محتملٌ من جهة ما دام ينسب القول إلى المستشرق بدقة وأمانة، وإن كان خطره من جهة أخرى لا حدّ له في إشاعة الخطأ والبناء عليه.

ولكن الخطر الأكبر الذي يصل إلى حدّ الجريمة في حق المنهج العلمي والعلم ، هو أن يأخذ عن المصادر القديمة بواسطة المستشرقين ، ومع أن أوليات الأمانة ، وأبجديات المنهج ترفض ذلك ، إلا أنه للأسف يحدث !! ويعتمد بعضهم على ذكائه ومهارته في صياغة العبارة ، بحيث يوهم القارىء أنه رجع إلى الطبري أو ابن الأثير مثلاً -مجرد إيهام- وتكون

العبارة صالحة لأن يراد بها ذلك ، أو أنه نقل ذلك عن فلان.

ليسوا ثقة :

والمستشرقون -في كثير من الأحيان- ليسوا ثقات ، لأكثر من سبب. مثل :

١- العجز عن فهم النص ، فهم مهما برعوا في اللغة ، لا يستطيعون أن يمتلكوا ذوقها وحسّها ، ويحيطوا بمجازها ، وتطور مدلولاتها.
٢- عدم الإحاطة بالنصوص الواردة في القضية الواحدة ، في أماكن مختلفة، فمع أنهم يّدعون أن هذا من منهجهم، إلا أنهم تعوزهم القدرة على ذلك ، خاصة حين يرد النص تبعاً أو استطراداً، أو بصيغة مجازية بعيدة مثلاً.
٣- الخطأ في التفسير والتحليل ، وهذا غير العجز عن الفهم ؛ لأن التفسير يحتاج إلى عدة عوامل ، فهمُ النص واحد منها، فيحتاج مثلا إلى معرفة بالقضية التي ورد فيها النص ، وتطوّرها ، وصلتها بغيرها .. إلخ.
٤- في بعض (الأحيان) يكون هناك سوء نية ، ومحاولة خدمة أغراض تنصيرية واستعمارية ، فيبدأ من أول الأمر (بالإدانة) ، فيبحث عن النصوص التي يمزقها ، ويلفقها ، ويلوي أعناقها ، ويقلبها ، حتى تثبت ما يريد ، وهكذا ..

واحدة من سقطاتهم :

يعتبر (فان فلوتن) أحد المستشرقين المعنيين بالتاريخ الإسلامي ، خاصة فترة الأمويين والعباسيين ، وتستطيع أن تجد اسمه يتردد في كثير من الكتب الجامعية ، وهو يغريهم بما ينسبه إلى الطبري ونحوه ، ويعزوه إلى المصادر الأصلية ، فيخيل إلى الدارس أو الباحث أنه أتى بطَلِبَته من منبعها، وهذه صفحة من كتابه ،تبين كيف يخون المنهج ، ويعتدي على النص !!

السيطرة العربية :

(لفلوتن) كتاب بهذا العنوان ، ترجم مرتين إلى اللغة العربية ، مرة سنة ١٩٣٤م ، والثانية سنة ١٩٨٠م ، وعلى ما في الكتاب من سموم خبيثة سنكتفي بعرض صفحة واحدة منه ، ثم نرى ما وراءها من أخطاء وأخطار.

الهدف من الفتوح :

بإيجاز شديد ، وعبارة مركزة ، يسوق المؤلف رأيَه في الفتوح الإسلامية، وأثرِها في المجتمع ، مؤكداً أنها كانت بالدرجة الأولى من أجل الغنائم ، فأدت إلى ثراء فاحش ، فأفسدت المجتمع وأترفته ، وأغرت المسلمين بالمزيد من الفتوح ، للمزيد من الغنائم ، والجزية ، وهذه عباراته بنصها تقريباً:

« .. إن الأنانية ، وكذلك الجشع ، سرعان ما استأثرا بالقلوب بعد وقت قريب ، وغمر رجالَ الصحراء ترفٌ غير عادي ، انصب عليهم من كل ناحية، مما كان له أثره في إفساد النفوس أكثر من تهذيبها.

ولقد أصابت الأسرُ المرموقة في الكوفة ثراءً فاحشاً ، كان مصدره(الغنائم) والأعطيات السنوية (المخصصات)، ولقد فرضت حالةُ الترف المتصاعدةُ هذه تغطيةً دائمة لمواجهة متطلبات جديدة، واللجوءَ إلى الاستدانة كطريقة فذة من أجل إشباع رغباتهم ، فمهد ذلك السبيلَ إلى مؤامرات ، على غرار ما حدث في روما ، حيث باتت الثورة ضرورية ، مع اللجوء إلى إرضاء المرابين ، واتخاذ الاضطرابات ذريعة للاستيلاء على بيت المال ونهبه.

على أن طريقة أكثر سهولة وشرفاً من ذلك ، هي الجزية والحملات العسكرية ضد الكفار ، وغالباً ما كانت تأتي هذه الأخيرة تلبية لرغبات القادة.

ولكن غالباً ما كانت عائدات الغنائم (باستثناء الخُمس المخصص لبيت

المال) سبباً في غزوات لم يكن لها ما يسوّغها في بعض الأحيان.

وما يسمى بفتوحات يزيد بن المهلب لم تكن في الحقيقة سوى حملات من الإرهاب ، أو قطع الطرق ضد شعوب لا تبغي سوى السلام (ص ٦٧ ، ٦٨).

ولا يعنيني هنا هذا التهجم الذي ليس في حقيقته إلا سباً وشتماً ، وإنما يعنيني ما أسنده إلى المراجع ، خاصة الطبري ، ففيه ليٌّ لأعناق النصوص ، واستكراهٌ غريب في فهمها وتفسيرها.

ويكفي مثالاً لذلك قوله :«إن حالة الترف المتصاعدة ألجأت إلى الاستدانة كطريقة فذّة من أجل إشباع رغباتهم ، ثم يسند ذلك إلى الطبري:٢٨١١/١ ، وتراجع الصفحة التي أشار إليها ، فلا تجد فيها إلا خبراً عن استدانة سعد بنِ أبي وقاص من بيت المال بالكوفة ، وكان خازنُ بيت المال عبدَ الله بنَ مسعود ، رضي الله عنهما ، وكان سعدُ واليَ الكوفة ، فاستقضى عبدُ الله بنُ مسعود سعداً ، واستمهله سعد فلم يقبل ، وكان بينهما تلاوم ، وصل إلى عثمانَ بنِ عفان رضي الله عنهم جميعاً ، فلامهما معاً ، على ما كان بينهما من تلاوم ، وعزل سعداً .

هذا ما ذكره الطبري في هذا الموضع ، فكيف يفهم منه أي قارىء ، بله باحثٌ ضليع ، يقتعد مقعد الأستاذية ؟!! كيف يفهم من هذه القصة أن الاستدانة قد صارت ظاهرة في المجتمع ؟!! وأنها أصبحت وسيلة لإشباع الترف الذي شاع فيه؟ كيف يفهم هذا ؟ وبأي منطق يقال هذا ؟ وأي ترف كان في مجتمع الكوفة سنة ٢٦هـ !!!

ثم لو نظر إلى هذه الحادثة بعين مجردة ، ودون تعمق ولا (منهج بحث) ولا ، ولا .. .. ألا يجد فيها فخراً للإسلام والمسلمين ؟ ، ألا يرى كيف لم يستطع الحاكم (والي الكوفة) أن ينال من مال الجماعة إلا قرضاً ؟ ثم كيف كانت أمانة خازن بيت المال الذي لم يسعه السكوت عن (الوالي) واصطناع يدٍ عنده ، بالتأجيل فقط (لا بالتنازل)؟ ثم ألا يرى تلك الحرية التي وسعت موظفاً (صرافاً) أن يلاحيَ الأميرَ ويعنف عليه ؟؟

ثم ألا يتبادر إلى الذهن أن الحاجة والفاقة هي التي ألجأت سعداً إلى

الاستدانة ؟ وهذا هو الواقع !! ففيم كان يستدين سعد في ذلك الوقت ؟؟ وفي أي مجالٍ كان ينفق في ذلك الحين ، وقد كانوا يعيشون عيش الكفاف !

ثم لو مدَّ بصره قليلاً ، لقرأ في الأسطر التالية بقية القصة ، وكيف أن سعداً رفع يديه إلى السماء ، وقال : اللهم رب السموات والأرض .. فقاطعه عبد الله بن مسعود ، قائلا: ويلك !! قل خيراً ولا تلعن .

وخاف أن يدعوَ سعدٌ عليه ، فقال سعد عند ذلك : أما والله لولا اتقاء الله لـدَعَوْت عليك !!! كلمات تقطر تقوى ، وتندى بالحب والإخاء ، ومواقف تنطق بالطهارة والتعفف والتنزه .

ولو قرأ بقية الصفحة ، لوجد أن الأمير الذي تولى بعد سعد على الكوفة ، مكث خمس سنوات وليس على داره باب .

فأي ترف؟ وأي استدانة ؟ .. ..

وهو يُسند كل جملة تقريباً من كلامه ، ويُضيفها إلى مرجع من المراجع الأمهات ، ولكن بهذه الطريقة نفسها، وأنكى.

وإذا قال قائل : لا تعجل ، ولا تسرف على الرجل باللوم ، فإن أمر تفسير النصوص ، والاستنتاج منها فسيح المجال ، ولا حرج على الرجل إذا أخطأ ، أو اشتط !! فالخطأ حق من حقوق الإنسان .

مع أن هذا اعتذار غيرُ مقبول ، إلا أنني أقدم أنموذجاً آخر ، من الصفحة نفسها فيه ما لا يمكن الاعتذار عنه.

مثال آخر :

قال : « ولعل ما حدث في سمرقند يعتبر مثلاً صارخاً لهذا النوع من (الفتوح) (يقصد فتوح السلب والنهب من أجل الترف الذي وقعوا فيه)، فقد استسلمت هذه المدينة على إثر معاهدة أبرمتها مع سعيد بن عثمان ، مقابل دفع سبعمائة ألف درهم، وتقديم ألف من سكانها رهائن .

ثم استولى عليها قتيبة بن مسلم في وقت لاحق(حسب الرواية العربية) (كذا) وطرد أهلها، واحتل جنودهُ منازلها ، رغم التزامهم بالمعاهدة المبرمة مع القائد السابق »أهـ. بنص حروفه من ص ٦٨.

والحق لقد فزعت حين قرأت هذا الكلام ، لا من حدوث مثل هذه الشناعة من القادة المسلمين ، فمعرفتي بتاريخ أمتي ، والروح الذي سادته ، يجعل ذلك لا يخطر لي ببال ، ولكن فزعي من أن يصل الأمر في الاجتراء والافتراء إلى حد أن ينسب هذا إلى جيش المسلمين، «ويضرب مثالاً صارخاً للفتوح ، التي لا باعث لها إلا السلب والنهب».

والرجل كعادته يُسند ظهره إلى المصادر والمراجع ، وقد اختار شيخ المؤرخين الطبري لينسب إليه هذا الكلامَ.

فلننظر ماذا في الطبري ؟ وماذا في هذا الكلام من افتراء ؟ :

(أ) أضاف قوله : إن سمرقند استسلمت لسعيد بن عثمان إلى الجزء الثاني ص١٢٤٥ ، ١٢٤٦.

وليس في هاتين الصفحتين خبر عن سعيد بن عثمان ، وإنما فيهما خبر عن فتح قتيبة لسمرقند ، والذي سيأتي ذكره ، وبينه وبين فتح سعيد بن عثمان لها نحو سبعٍ وثلاثين سنة ، وذلك وارد في الجزء الثاني ص ١٧٨ ، ١٧٩.

ونترك هذه دون تعليق !!!

(ب) ذكر أن سعيدَ بنَ عثمان عاهد أهل سمرقند على دفع سبعمائة ألف درهم ، وتقديم ألف من سكانها رهائن ، وأسند ذلك أيضاً إلى الطبري ، الموضع السابق نفسه الذي وهم فيه.

والذي في الطبري بنصـــه «خرج إليهم سعيد بن عثمان ، وناهضه الْغُد (أهل سمرقند) فقاتلهم ، فهزمهم ، وحصرهم في مدينتهم ، فصالحوه ، وأعطَوْه رهناً منهم خمسين غلاماً يكونون في يده من أبناء عظمائهم »أهـ. بنصه.

فليس فيه ذكر لمبالغ من المال أصلاً، لا سبعمائة ألف ولا سبعة آلاف.

وأما الرهائن ، فهم خمسون ، فكيف صارت ألفاً ؟؟

هكذا خطأ في العـزو ، لا أدري له سـراً ! ثم تحـريف في الأرقـام والأعداد !! أليس الفتح لنهب الأموال وقطع الطرق ؟ فإذا لم تذكر المصادر أنه أخذ مالاً ، فليتبرع هو بالمال للجنود (المترفين الذين هم في حاجة إلى المال) وأما الرهائن، فلست أدري الهدف من زيادة عددهم ، من خمسين إلى ألف !!!

(جـ) ذكر أن قتيبة بنَ مسلم استولى على سمرقند في وقت لاحق ، وطرد أهلها ، واحتل جنودُه منازلها ، رغم التزامهم بالمعاهدة المبرمة مع القائد السابق ، وأضاف ذلك إلى الطبري وغيره من المصادر ، وسماها (الرواية العربية).

ونجد هذا في الطبري ، في الموضع الذي عزا إليه خبر فتح سعيد بن عثمان .. فلعل هذا سبق قلم !! ولكن يبقى أن نسأل :

من أين أتى بأن أهلَ سمرقند كانوا ملتزمين بالمعاهدة التي أبرموها مع سعيد بن عثمان ؟؟

وسأذكر هنا نص الطبري بحروفه ، وليس لي فيه إلا الاختصار فقط:

* جاء في جـ ٢ ص ١٢٤٢ « .. وخطب قتيبةُ الناس فقال : إن الله قد فتح لكم هذه البلدةَ في وقتٍ الغزو فيه ممكن ، وهذه السُّغْد شاغرة برجله (١)! (السغد أهل سمرقند ، وينسب إليهم الإقليم الذي عاصمته سمرقند) قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ، منعونا ما كنّا صالحنا عليه (طَرْخون) (اسم قائدهم حاكم سمرقند) ، وصنعوا به ما بلغكم ، وقال الله تعالى :(فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِه ..) ، فسيروا على بركة الله ، فإني أرجو أن يكون خوارزم ، والسُّغْد ، كالنضير وبني قريظة ، وقال الله تعالى:(وَأُخرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا).

---

(١) بلدة شاغرة برجلها ، أي لا تمتنع من غزو (أساس البلاغة)

ويلاحظ :

١- أن النص على نقض العهد من أهل سمرقند ، واضح صريح ، لا يحتمل أي تأويل .

٢- يفهم أنهم غدروا بقائدهم (طرْخون) ، لأنه لم يوافقهم على نقض العهد .

٣- تشيع في الخطبة كلها روح الجهاد ، واللجوء إلى الله ،والالتزام بآداب الجهاد في الإسلام ، وليس فيها روح (الجري وراء الغنائم ، ولا قطع الطريق).

* وفي صفحة ١٢٤٩ من الجزء الثاني :

« .. .. فقال قتيبة (لقواده بعد المعركة):جزاكم الله عن الدين والأعراض خيراً .. وطلب أهل سمرقند الصلح ، وعرضوا الفدية ، فأبى وقال : أنا ثائر بدم (طرْخون) ، كان مولاي ، وكان من أهل ذمتي ».

* وفي الصفحة نفسها جاء في وصف المعركة ، واستماتة أهل سمرقند في الدفاع عنها :

« أطال قتيبة المقام ، وثلمت الثلمة في سمرقند (أي في سور المدينة) ، فنادى منادٍ فصيحٌ بالعربية يشتم قتيبة .. .. فمكثنا طويلاً، وهو مُلح بالشتم .. وسُمع قتيبة يقول ، كالمناجي لنفسه : حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان ؟ »

* وفي الصفحة ١٢٥٠ من الجزء نفسه :

«ودخلوا سمرقند ، فصالحوهم ، وصنع (غوزك) (ملك سمرقند) طعاماً ، ودعا قتيبة ، فأتاه في عدد من أصحابه ، فلما تغدى استوهب منه سمرقند ، فقال للملك : انتقل عنها ، فانتقل عنها ، وتلا قتيبة:(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأولى، وَثَمُودَ فَمَا أَبْقى).

ونستطيع عند النظر إلى هذه النصوص ، أن نرى ما يلي :-

١- وضوح الهدف الذي يقاتل من أجله المسلمون ، الدين والأعراض ، كما جاء في دعاء قتيبة لرجاله ، وثنائه عليهم.

٢- الوفاء بالعهد -لاالغدر به- فيرى أن في قتاله أهل سمرقند ثأراً لحاكمها السابق (طَرْخون) الذي قتلوه ، فهو يقول : «أنا ثائر بدم طَرخون . كان مولاي ، وكان من أهل ذمتي ».

٣- إن سمرقند قد أكثرت الشقاق ، والعناد ، والغدر ، وهذا واضح من مناجاة قتيبة لنفسه قائلاً: «حتى متى يعشش فيك الشيطان ياسمرقند؟؟».

٤- سماحة قتيبة والمسلمين ، وحفاظهم على العهد ، فمع ضراوة المعارك واستنفار (غوزك) حاكم سمرقند للأقاليم المجاورة ، واشتداده على المسلمين ، كما هو واضح تمام الوضوح في الطبري ، مع هذا نجد المسلمين يقبلون دعوة (غوزك)على الغداء ، بعد أن أمنوه على نفسه ، وكلٌ من معه، لدرجة أنه طمع في أن يسلّموا له المدينة ثانية ،لما رآه من حلمهم وحسن معاملتهم ، فلما استوهبها من قتيبة ، رفض وأمره بالانتقال عنها ، حتي لا تتكرر مأساة الغدر، والقتال ، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .

بم نسمي هذا ؟!

والآن هذه نصوص الطبري ، بوضوحها وصراحتها ، وهذا ما يمكن أن نراه منها ، فكيف تعامى عنها(فلوتن)؟ وكيف رأى منها أن قتيبة ، طرد أهلها منها ، واحتل جنوده منازلها ، رغم التزامهم بالمعاهدة المبرمة مع القائد السابق؟

بم نسمي هذا ؟؟ .. لا أدري ، ولكن فقط أضعه أنموذجاً لسوء عمل هؤلاء ، وعدوانهم على الحقيقة ، والعلم ، ليرى ذلك المخدوعون من أبنائنا ، وليرى ذلك الباحثون ، فيعلموا أن أقوال هؤلاء ودراساتهم في حاجة دائمة

إلى التمحيص والتدقيق ، قبل أن نعتمد عليها ، ونتخذها مراجع ومصادر لكتاباتنا.

وأما تاريخ أمتنا ، فما أقسى ما تعرض له من تشويه وجَلْ ، وصلب ، فمن له برجال ينذرون أنفسَهم لإعادة كتابته؟ لا يضنون بوقت ولا جهد ، ولا ينتظرون جزاءً ولا شكوراً إلا من الله سبحانه .

لماذا رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي؟

وهكذا يحرفون ويشوهون تاريخنا

رأينا تشويه تاريخنا في صور كثيرة ، من بَتْر للنصوص ، واختيار لبعض الوقائع والأحداث دون بعض ، ومن تفسير للأحداث والأعمال حسَب الغرض والهوى ، وعن طريق (الإسقاط) لما في نفوسهم من مشاعر ، وما في واقعهم من فساد وانحراف ، وغير ذلك من الوسائل كثير .

ولكن الذي لم نكن نتصوره أن يصل الأمر إلى قلب الحقائق رأساً على عقب صراحة ، وتحويلِ المحاسن إلى عيوب ، والمفاخِر إلى نقائضَ ، وما يعد ضوءاً في جبين الدهر إلى سبة وعار.

والأدهى من ذلك أن هذا يتم باسم البحث (الأكاديمي) ، والمنهج العلمي ، ومراكز الدراسات ، ونزاهة الفكر ، وحرية البحث ، وفي أروقة الجامعات ،

(*) نشر في: مجلة الأمة ، العدد الأربعون ، السنة الرابعة ، ربيع الآخر ١٤٠٤هـ يناير ١٩٨٤م

ومحراب العلم .. .. إلى آخر هذه التهويمات والجعجعات التي يستهوون بها المخدوعين من أبنائنا ، والمبهورين المدحورين من دارسينا ، فترى الواحدَ منهم يشمخ بأنفه ، مباهياً أنه سمع من المستشرق (فلان) أو أنه درس في القسم الذي يرأسه (فلان) ، أو الجامعة التي فيها (فلان) بل يباهي أحياناً بمجرد أنه قرأ (الفلان).

وبكل الصدق أنا أعذر هؤلاء ، فالقوم يحسنون التأني لما يريدون ، ويجيدون الدخول إلى عقول أبناء أمتنا ، ويعرفون كيف يشكلونها ، وبأي طريقة يصوغونها، فمن تظاهر بالحيدة العلمية ، وتجرد للبحث ، وإخلاصٍ للحقائق وحدها ، إلى نحو هذه الشعارات البراقة ، ومن حسن استغلال للعلاقات الشخصية ، فيتظاهرون لأبنائنا بحبهم لهم ، وحدبهم عليهم ويتخذونهم أصدقاء وأبناء ، يفتحون لهم بيوتهم، ويقدمونهم لأبنائهم وبناتهم وزوجاتهم ، فيُشعرونهم بالأمن والاطمئنان في مغتربهم ، ويكونون دائماً في قضاء حوائجهم وتيسير مطالبهم ، وما يزالون بهم حتى يمتلكوا قلوبَهم ، فيصوغوها كما يشاؤون .

وعادةً يرى أبناؤنا ما عليه القوم من تقدم ورفاهية ، ومن نظام وضبط للأمور، وحرصٍ على الوقت والجهد ، ومن إمكانات مذهلة في مجالات الحياة المختلفة ، فيخيلُ إليهم أنهم إن أخذوا مواقعهم ، واعتنقوا أفكارهم، وقالوا بمثل قولهم أصبحوا مثلَهم . ومعذورون أبناؤنا حينما يوازنون بين أحوال بلادنا وبلادهم ، فيبدؤون اللقاء وهم مبهورون ، وكثيراً جداً ما يتحول المبهور إلى مدحور.

ولا تعجب بعد ذلك إذا وجدت من يتابع هؤلاء ، ويشايُعهم ، فيرى في(الحركات السرية) مثلِ الباطنية والقرمطية حركاتٍ إصلاحية تحررية ، ناطقاً بلسان أساتذته ، مخالفاً كلَّ أئمة الفكر والتاريخ الإسلامي فيما قالوه

عن هذه الحركات .. ولله في خلقه شؤون ..

قلب الحقائق :

واليوم نعرض أنموذجاً لهذا التزييف للتاريخ يصل إلى حد قلب الحقائق، فعلى حين تفاخر أمتنا بهذه القضية ، التي لم تشهد الدنيا -منذ خلقها الله- مثيلاً لها ، حين يضرب العدل بجرانه، ويشملُ أمتنا كلها بظله ، أيام أن كانت تمتد من الأندلس وجنوبي فرنسا غرباً حتى حدود الصين شرقاً، ويصبح العدل فيها مُناخاً يتنفّسه كل من تُظله رايةُ الخلافة الإسلامية ، ونسيماً يستنشقه كل من ينتسب إلى دولة الخلافة الإسلامية ، ذمياً كان ، أو معاهداً ، أو مسلماً على سواء.

تفاخر أمتنا بهذه القضية التي رفعها أهلُ (سمرقند) على القائد المسلم(قتيبة بنِ مسلم الباهلي) ، لأنه -فيماقالوا- قاتلهم على غِرَّة ، ولم يعلن عليهم الحربَ ، فانتصر عليهم ، وفتح مدينتهم !!!

ألا تُصيخ الدنيا آذانها ، وتلقي إلينا سمعها : بلدةٌ مغلوبة ، تشكو غالبها ، ومدينةٌ مفتوحة تشكو فاتحَها ، ولمن تشكوه ؟ تشكوه لقيادته !! تشكوه للخليفة (القائد الأعلى) !!

لا يعنيني كيف تلقى الخليفةُ الشكوى ، وكيف تصرف بها ، ولكن يكفيني أن يرد بخاطر أهل المدينة (سمرقند) أن يقدّموا شكوى ضدَّ القائد الفاتح الذي دخل بلادهم ، وانتصر عليهم .

مجرد أن يرد هذا الخاطر عند أهل (سمرقند) وهم هناك في أقصى المشرق ، وبينهم وبين الخليفة الذي سيشكون إليه هذه الآلاف من الأميال ، مجرد أن يرد هذا الخاطر ، وبين (سمرقند) و(دمشق) ما بينها ، له مدلوله، كيف أدرك أهلُ (سمرقند) أن الخليفة يمكن أن يستمع لشكواهم ؟؟ .

لا شك أن شيوع (العدل) كان بحيث يصل خبره ، ويُعرف ذكرُه علي بعد ما بين (دمشق) و (سمرقند) (تقع سمرقند الآن في الاتحاد السوفيتي، في إحدى الجمهوريات الإسلامية الأسيرة)([1])

ناهيك عن موضوع القضية !! شكوى مدينة مفتوحة لفاتحيها !!

ناهيك عن قبول الدعوى ، والنظر في القضية ، والحكم فيها !!

والقضية والحكم فيها واردة في (الطبري :٥٦٨/٦) وسأعرضها بصياغة العالم الداعية الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله :

وفد قومٌ من أهل سمرقند إلى الخليفة « فرفعوا إليه أن قتيبة قائد الجيش الإسلامي فيها ، دخل مدينتهم ، وأسكنها المسلمين غدراً بغير حق ، فكتب الخليفةُ إلى عامله هناك ، أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين من(سمرقند)أخرجوا.

فنصب لهم الوالي قاضياً ينظر في شكواهم :

فحكم القاضي (وهو مسلم) بإخراج المسلمين !! على أن ينذرَهم قائدُ الجيش الإسلامي بعد ذلك ، وينابذَهم وفقاً لمبادىء الحرب الإسلامية ، حتى يكون أهل (سمرقند) على استعداد لقتال المسلمين، فلا يؤخذوا بغتة.

فلما رأى ذلك أهل (سمرقند) رأوا ما لا مثيل له في التاريخ ، من عدالة تنفذها الدولة علي جيشها وقائدها!!

قالوا : هذه أمة لا تحارَب ، وإنما حكمها رحمة ونعمة ، فرضوا ببقاء الجيش الإسلامي ، وأقروا أن يقيم المسلمون بين أظهرهم »أهـ. (من روائع حضارتنا ص ١٠٢).

---

(١) تحررت هذه الجمهوريات الآن بعد أن انهارت الشيوعية ، وانهار معها الاتحاد السوفيتي ، فهل يقوم المسلمون بدورهم ، ويؤدون واجبهم نحوهم ؟؟ نرجو أن يكون ..

هذه صفحة من تاريخ أمتنا تضيء ظلامَ الدنيا كلها ، وتوقظ ضميرَ البشرية ، وتحيي النفس الإنسانية ، وما أظنها تحتاج إلى تفسير أو تأويل ، أو تقديم أو تأخير.

كيف نظر المستشرقون إلى هذه الصفحة ؟؟

سأترك الحديث للمستشرق الشهير(ج. فان فلوتن) وهو من المعنيين بالتاريخ الأموي والعباسي ، ويعتمد على كتابته كثير من المؤلفين (الدكاترة)، حيث تجد اسمه مبثوثاً في هوامش كتبهم ، ينقلون عنه ويرجعون إليه ، وهم معذورون ، فالرجل قدم أطروحته بعنوان :(نشأة الحزب العباسي في خراسان) وصاحب كتاب (السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية) الذي ترجمه المؤرخ المشهور الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور محمد زكي إبراهيم في سنة ١٩٣٤م، وأعاد ترجمته الدكتور إبراهيم بيضون باسم (أبحاث في السيطرة العربية والتشيع والمعتقدات المهدية في ظل خلافة بني أمية) سنة ١٩٨٠م.

أعني أن (فلوتن) ليس ضيفاً على مائدة التاريخ ، فهو مؤرخ بحاثة في الفترة ذاتها التي نتكلم عنها.

وها هو كلامه بنصه عن ترجمة إبراهيم بيضون:

« شكا أهل سمرقند ظُلامتَهم للخليفة ، وما نزل بهم من خراب وتدمير على يد قتيبة !!

فأمر بتعيين قاضٍ خاص للنظر في هذه المسألة ، وجاء قراره من (الخبث) ما يبدو واضحاً لأي قارىء متجرد ، حيث قضى بأن يتحارب الفريقان -العرب وأهل سمرقند- وراء أسوار المدينة، وأن يؤخذ هؤلاء بالقوة قبل عقد

معاهدة جديدة معهم.

فإذا ما انتصر العرب - وهو ما كان محتملاً-(حيث فقد أهل سمرقند خاصية الدفاع عن مدينتهم داخل أسوارها) عادوا مرة أخرى إلى فتحها عَنْوة ، وانطبقت عليها شروط الاحتلال العسكري ، إلا إذا امتثلوا لتلك الشروط التي فرضها العرب عليهم ، أي : إن قرار القاضي لم يغير شيئاً في وضع المدينة»أهـ بنصه ص ٦٨-٦٩.

لا تعليق :

والأمر بهذه الصورة ليس بحاجة إلى تعليق ، فحينما يصل التحريف وقلب الحقائق إلى هذا الحد لا يكون هناك مجال لتعليق !!!

إن الجيوش الإسلامية ، ما كان لها من هدف إلا فتح طريق الدعوة الى الإسلام، وكانوا يَطلعُون على القوم ، فيخيرونهم بين واحدة من ثلاث : الإسلام - الجزية - القتال.

فإذا حارب قائدٌ إسلامي مدينةً ، وفتحها ودخلها منتصراً ، ثم جاء أهلها يزعمون أنهم أخذوا على غرة ، وشكَوُا الجيشَ وقائدَه إلى الخليفة ، واستمع الخليفة إلى الشكوى ، وأمر بأن يُنصب لهم قاضٍ ، ويقبلُ القاضي الدعوى ويسمعها ، ويَحْكم - ويا للروعة والجلال والعظمة- يحكم بإجلاء الجيش الإسلامي عن المدينة !! قاضي الأمة يحكم بإجلاء جيشها عن المدينة التي فتحها !! يحكم على الجيش بالخروج ، ويبدأ من نقطة الصفر.

أين الخبث ؟!

إذا كان هناك من يرى في هذه النصاعة ، والطهارة (خبثاً) فليدلنا على الطهر والاستقامة أين تكون ؟

ومن عجب أن يقول المستشرق العظيم ، ربيبُ الأكاديميات ، وسادنُ الفكر ، وحامل لواء (المنهج العلمي) ، يقول : إنه خبث يبدو واضحاً لأي

قارئ متجرد.

وأنا أقول : نعم ، يبدو الخبث واضحاً لأي قارىء متجرد ، لكنه ليس في حكم القاضي ، ولكنه في قلم المستشرق وقلبه .

وحينما نضع هذه الرؤية لهذا المستشرق ، لهذه الصفحة الناصعة من تاريخنا وكيف رآها سوداء (خبيثة) واضحة الخبث (لأي قارىء متجرد) علي حد تعبيره ، حين نقوم بذلك نرجو من القارئين والباحثين أن ينظروا ويتأملوا ، ثم يتابعوا البحث ليعرفوا في أي حقد أسود يغمس هؤلاء أقلامهم التي يكتبون بها.

كلمة :

وإذا بقيت كلمةٌ نقولها، فهي : أنه لابد أن يكون كاتب التاريخ الإسلامي مسلماً - لا ليحابي أو يجامل- بل لتكون لديه القدرة على استيعاب الحدث التاريخي وتفسيره ، فإن إدراك مقومات النفس البشرية جميعها: روحية وفكرية وحيوية، ومقومات الحياة البشرية جميعها: معنوية ومادية ، أمرٌ لازم وضروري لفهم الحادثة التاريخية وتفسيرها، حتى يفتح المؤرخ روحَه ، وفكرَه ، وحسَّه للحادثة ، ويستجيبَ لوقوعها في مداركه ، ولا يرفضَ شيئاً من استجاباته لها إلا بعد تحرج ، وتمحيص ونقد.

وأول ما تتسم به البحوث (الاستشراقية)عن الموضوعات الإسلامية هو نقص الاستجابة ، لأن الطبيعة الغربية- بصفة عامة- ينقصها عنصر الروحية الغيبية لكي تدرك الحياة الإسلامية إدراكاً كاملاً.

وهذا النقص يعد عيباً في منهج العمل التاريخي ذاته ، وليس مجرد خطأ جزئي في تفسير حادثة ، أو تصوير حالة ، ومن هنا فمناهج المستشرقين غير صالحة لدراسة الموضوعات الإسلامية ، خاصة التاريخ الإسلامي ، ارجع في هذه الجزئية إلى:سيد قطب رحمه الله(في التاريخ : فكرة ومنهاج).

ولعل في تعليق (فان فلوتن) على قضية (سمرقند) بعد أن قلبها بهذه الصورة ما يؤكد هذا النقص في الاستجابة للحادثة التاريخية ، مما يشهد بخلل المنهج وقصوره ، قال (فلوتن) معقباً : «وهذا يُظهر لنا جيداً الفكرةَ التي خالجت العربَ وزعماءهم عن المهمة الموكولة إليهم في الشرق ، فقد وضع كل منهم مصلحته الشخصية في المقام الأول ، بينما احتل الإسلام المرتبةَ الثانية من اهتماماته».

هكذا يعزو الفتوح إلى الرغبة في الغنائم ، وزيادةِ الموارد ، والسيطرة ، ثم يأتي الإسلام بعد ذلك .

(كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً).

لماذا رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي؟ (*)

خيانة المنهج

يدور هذا البحث حول عبث أستاذ جامعي كبير ، بالمنهج العلمي، في كتابه عن (الحركات السرّية في الإسلام - رؤية عصرية) ذلك الكتاب الذي أعده لطلاب كلية الآداب في إحدى الجامعات الكبرى بالقاهرة.

ويكفي لكي ندرك خطورة هذا الكتاب ، أن تعرف أن أحد أعمدة اليسار المصري ، عندما كان رئيساً لواحدة من أكبر دور الصحف (القومية) طبع من هذا الكتاب عشرين ألف نسخة ، احتفاءً به ، وتمجيداً لتزييفه للتاريخ الإسلامي ، كما زاد على ذلك بأن تبنى ذلك الدكتور، ففتح له صفحات إحدى المجلات السياسية الأسبوعية ذائعة الانتشار ، ليطل منها على القراء كل أسبوع بمقالاته وأبحاثه الفريدة ، التي تثبت أن هذه الحركات السرّية التي كانت تعمل على تحطيم الإسلام هي حركات تقدمية ، تحررية ، مستنيرة !!! .

فإذا عرفت أن ذلك الصحفي الماركسي الذي احتفى بالكتاب وصاحبه ،

(*) نشر في: مجلة الأمة ، العدد السادس والأربعون، السنة الرابعة ، شوال١٤٠٤هـ يوليو ١٩٨٤م

كان يقول في مجالسه الخاصة : « إن أقصى آماله ، أن يختفي الدين من الحياة المصرية تماماً ، فلا يبقى له أثر إلا تلك العلاقة الخفية بين المرء وربه ، (إن أراد الإنسان التمسك بهذه البقية الباقية) أما تغلغل الدين في حياتنا العامة ، فلابد من القضاء عليه ، فبالقضاء عليه -فقط- تُستأصل السلبية العقيمة من نفوس المصريين وتحل محلها إيجابية ثورة حيوية بناءة »أهـ. انظر طارق حجي ، تجربتي مع الماركسية ص ١٦٧.

وبالمناسبة هذا الصحفي الكبير كان قصاصاً ، شاعراً ، أديباً ، كاتباً ، واستخدم قلمه وفنه هو الآخر ، في تشويه التاريخ الإسلامي ، وصفعه ، وجلده ، من خلال ما كتبه عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن بعض الصحابة رضوان الله عليهم ، زاعماً تمجيدَهم ، ومن عجب أنه نال على ذلك -من جوقة اليساريين والإعلاميين- لقب الكاتب الإسلامي الكبير ، والمفكر الإسلامي الكبير. وقد أفضى إلى ربه قبل أن يشهد الحسرة الكبرى لليساريين بانهيار الشيوعية ، وتحطيم صنمهم الأعظم الاتحاد السوفيتي.

إن دعوتنا لإعادة النظر في التاريخ الإسلامي، ولصياغته من جديد صياغة صحيحة ، وتجليته في صورة صادقة ليست نابعة من الإدراك بقيمة التاريخ وأثره في حاضر الأمة ومستقبلها، بل من باب إحقاق الحق ، وإبطال الباطل وكشف الزيف والتلبيس الذي تعرض له تاريخنا ، وذلك واجب إنساني ، وواجب علمي .

ولقد رأينا من قبل أنموذجاً لعدوان المستشرقين على المنهج وخيانتهم وتزييفهم ، وكيف شايعهم وسايرهم ، من ترجم كتبهم إلى العربية ، ووافقهم على ما زعموه أو افتروه ، ونسبوه إلى شيخ المؤرخين الطبري .

واليوم نعرض لأنموذج آخر من التزييف والتحريف ، وخطورة هذا الأنموذج أن صاحبه (أستاذ دكتور) يحاضر الآلاف من الطلاب ، ويُدعى إلى المؤتمرات، ويستكتب للصحف والمجلات ، وتتخذ كتبُه مراجعَ ومصادر للدراسات ، بل هو نفسه يشرف على البحث العلمي ويوجهه ، في جامعة من أعرق جامعاتنا العربية ، ونحن لا نعنيه بذاته ، فلو كان وحده ، لهان الأمر ، ولكنه (نمطٌ)

موجود ومتكرر، وليس فرداً ، ومن هنا كان النظر إلى عمله ، وخطره وليس إلى اسمه ، بل ولا كتابه.

دفاع عن القرامطة :

كتب -عفا الله عنا وعنه- كتاباً يدرسه لطلابه جاء فيه :«القرامطة تجربة رائدة في الاشتراكية» وتحت هذا العنوان جعل «داعيتهم (عبدان) ليس داعياً مشهوراً ، تفانى في نشر الدعوة وحسب ، بل صاحبَ مدرسة ورائد جماعة فكرية ، ظلت مخلصة لآرائه بعد مماته»(كذا)(ص ١١٠) ونقل عن الفهرست لابن النديم أنه ألف في المذهب عشرة كتب (قيّمة) (أضاف إليها وصف (قيمة) من عنده، ثم قال في الصفحة نفسها :« ولكن شيئاً من تراث تلك (المدرسة) لم يصل إلينا ، ومن ثم ، فكل ما يُعوّل عليه في دراسة القرامطة مستمد من المصادر السنية والشيعية فقط ، وهي معادية للقرامطة على طول الخط .. وهذا الاتفاق والإجماع لا يمكن أن يُتّخذَ بحالٍ ذريعةً للتسليم بصحة ما أورده مؤرخو الشيعة والسنة عن القرامطة، إذ ينطوي على افتراءات واتهامات باطلة .. فالمعقول أن هذا الإجماع مدعاةٌ للشك أكثر منه قرينة على اليقين». .

ثم غمز علماءَ الأمة جميعاً قائلاً:«إنهم ينتمون إلى طبقة أهل (القلم) التي تدين بوضعها المتفوق لإنعامات وهبات الحكام ، وبدهي أن ينظر هؤلاء وأولئك باستعلاء ،لحركةٍ قوامها المستضعفون من العمال والفلاحين».

وراح الكاتب (البحاثة) يكشف عن عظمة القرامطة ، وما أدّوْه من دور في التاريخ الإسلامي ، داعياً لنا«أن نقف على عبقرية ذلك العمل السري الذي أقام تلك الدولة لتظل شوكة في جنبي الخلافتين العباسية والفاطمية ، ما يُنيف على قرن من الزمان » أهـ. بنصه.

وهو يرى أن القرامطة أهلُ صلاحٍ وتُقى، ينقطعون للصلاة والعبادة ، وأن داعيتَهم «(ذكرويه) القرمطي عظم قدْره في أعين الناس ، وصارت له مرتبةٌ في الفقه والدين ، وأن حمدان قَرْمط -زعيمَ الحركة- عرف بالزهد والتعبد».

فحركة القرامطة(عنده) « كانت ثورة اجتماعية باسم الدين ، وليست حركةً مروق ».

أما جرائمُهم ، وسفكُهم الدماء ، وقطعُهم الطرق ، وترويعهم الآمنين ، وفتكهم بحجاج بيت الله الحرام وهم طائفون ، وفظائعهم التي تقشعر لهولها الأبدان ، من تدمير للبلاد وحرق للزروع ، وطمر للآبار وعيون المياه بالجثث ، وعظام الضحايا وجماجمهم ، كل ذلك عند الكاتب مغفور(للرفاق) القرامطة.

العدوان على الكعبة المشرفة والحجر الأسود :

كان الأولى (بالمؤلف البحاثة الأكاديمي) أن يتجاوز عن ذكر هذا الجرم البشع ، ولا يُعرب عن رأيه فيه ، فعسى ألا يطوف بذهن القارىء ، ولكنه(بأسلوبه العلمي ومنطقه الأكاديمي) يقول بالحرف الواحد:«والمؤرخون يتحاملون على القرامطة ، ويصمون حروبَهم بالوحشية والميل الشديد لسفك الدماء ، ويتخذون من حادثة هجومهم على مكة ، ونقل الحجر الأسود إلى البحرين ذريعةً لمزيد من التحامل . ومن (المحقق) أن هذه الحادثة كانت لها دوافعها السياسية ، ولم تُعبِّر عن ميلٍ طبيعي لدي القرامطة في السلب والابتزاز ، أو عن رغبةٍ في إهدار المقدسات الإسلامية».

ثم يقول مؤنباً كتابَ عصرنا :«والواقع أن المعاصرين (يقصد للقرامطة) لم ينظروا إلى هذا الحادث باعتباره حادثاً جللاً ، كما فعل اللاحقون ، فقد انتُهكت حرمة الكعبة مرتين ،وضُربت بالمجانيق في العصر الأموي،كما كان المتصوفة آنئذ(١) يعتبرون الحجر الأسود وتقديسَه ضرباً من الوثنية(كذا).

ولذلك وجب على الدارسين التخفيف من غُلَوائهم ، والنظرُ إلى هذا

---

(١) لست أدري من أين أتى(الباحث القدير) بهذه (المعلومة) ، فمن هم المتصوِّفة الذين كانوا (يعتبرون الحجر الأسود وتقديسه ضرباً من الوثنية)؟ فأي متصوفة هؤلاء؟ وأي تصوفٍ هذا؟ إن من له أدنى إلمام بالدراسات والعلوم الإسلامية ، يدرك ما في هذا الكلام من تخليط ، وافتراء وإفكٍ وبهتان. ولكنه (المنهج العلمي) حينما يكون ماركسياً!!! ونعوذ بالله من هذا البلاء.

الحادث على أنه أمرٌ طبيعي أملته طبيعةُ العصر وظروفُه السياسية» أهـ بنص حروفه. أسمعتم ؟ إن العدوان على الحرم ، ونزع الحجر الأسود أمرٌ طبيعي ، أيها الرجعيون ، فخففوا من غُلوائكم !!!

لن نناقش الموضوع :

ولن نناقش (الرفيق) (الأكاديمي) في تقييمه لحركة القرامطة ولا في تقديره لها، واعتزازِه بها، فهذا ورأيه) والقوم يدعون إلى(حرية الرأي) فهو وما رأى !! وهم إذا حوصروا ، وجوبهوا وتبين خطؤهم وعوارهم ، قالوا:(حرية الخطأ) مكفولة، كما صرح بذلك أحد عتاتهم ، وكبيرٌ أصنامهم ؛ فليذهبوا بحريتهم حيث شاؤوا ..

ولكن خيانة المنهج :

لن نناقشه في الموضوع ، وإنما لن نسمح بخيانة المنهج(وليس ذلك لأن المنهج «الشكل» عندنا أهمُّ من «الموضوع» ولكن لأن المنهج هو الراية التي يقاتلون تحتها ، والتُّرس الذي يهاجمون خلفه ، والسد العالي الذي يضعونه في وجه «الآخرين» الرجعيين الجامدين).

خيانة وتزييف :

لو رحت اتتبع كل استنتاجات وأحكام الكاتب (الأكاديمي) وما انتهى إليه من نتائج ، لطال بنا المقام ، وما سلم له شيء ، أيُّ شيء ، وبحسبنا أن نقدم نماذج فقط وأمثلة تشهد بتزييفه ، وتنطق بخيانته ، ولن يحتاج القارىء بعدها إلى مزيد بيان.

قال : «أجمع مؤرخو السنة والشيعة على اتهام القرامطة بإبطال التكاليف الشرعية ، فذكر (الملطي): أنهم يزعمون أن الصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر الفرائض نافلة لا فرض ، كما قال(البغدادي): وزعموا أن من عرف العبادة ، سقط عنه فرضُها ، وفي الاتجاه نفسه نجد الغزالي يقول:«ترك القرامطةُ تأديةَ العبادات»أهـ بنص حروفه ص ١١١.

هكذا يوهم القارىء بالحيدة (العلمية) و (المنهجية)و(الأكاديمية) وأنه يذكر الآراء المخالفة لرأيه من مراجعها (الأصلية)، ويعزوها إلى أماكنها من الصفحات والأجزاء، قبل أن يناقشها ويردَّها . فلننظر كيف كان رده لهذا الإجماع من المؤرخين !!

قال : «ونحن نرى أن تلك فريةٌ لا أساس لها من الصحة ، وإليك القرائن، فالغزالي نفسُه ذكر أن الداعي القرمطي كان يشترط على المستجيب للدعوة أن يحج إلى بيت الله ثلاثين حَجة إن أخل بواجباته، والطبري ذكر:أن القرامطة كانوا لا يغتسلون من الجنابة، وإنما اكتفَوا بوضوء الصلاة لإزالتها ، وفي موضع آخر روى : «أن أحد كبار الملاك ضاق ذرعاً بفلاح قرمطي يعمل في ضياعه ، لحرصه على أداء الصلاة ، والمقريزي الشيعي أورد أن الداعي ذكرويه القرمطي عظم قدره في أعين الناس ، وصارت له مرتبة في الفقه والدين ، وأن حمدان بن الأشعث -زعيمَ الحركة- عرف بالزهد والتعبد، وكان أنصاره يسمون أنفسهم «المؤمنون» بالله ، و«الناصرون» لدينه ، و«المصلحون» في الأرض ، هذه النصوص وغيرها تُبطل الزعيمَ بأن القرامطة دَعَوا إلى هدم أركان الشريعة والتنصل من «العبادات»أهـ. بنصه بالحرف الواحد وبدون أي تلخيص .

هكذا ، بهذه النصوص يدفع (إجماعَ) المؤرخين على أن القرامطة «دَعَوا إلى هدم أركان الشريعة والتنصل من العبادات».

فماذا قال الطبري :

سنضع الآن نصَّ كلام الطبري الذي أشار إليه (الأستاذ الدكتور المؤرخ) أمام القارىء ونترك له الحكمَ ، جاء في الطبري ما نصه : «وفيها(أي في سنة ٢٧٨هـ) وردت الأخبار بحركة قوم يعرفون بالقرامطة بسواد الكوفة ، فكان ابتداء أمرهم قدومَ رجل من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة .. يُظهر الزهد والتقشف ، ويسف الخوصَ(ينسجه) ويأكل من كسبه ، ويُكثر الصلاة ، فأقام على ذلك مدة ، فكان إذا قعد إليه إنسان ذاكره أمر الدين ، وزهده

في الدنيا ، وأعلمه أن الصلاة المفترضة على الناس خمسون صلاة في كل يوم وليلة ، حتى فشا ذلك عنه بموضعه .. وكان (للهيضم بن العلاء العجلي) في تلك الناحية ضِياعٌ ، فوقف على تقصير أكَرَته (الذين يعملون في مزرعته) في العمارة (تعمير الأرض وإصلاحها) ، فسأل عن ذلك ، فأخبر أن إنساناً طرأ عليهم، فأظهر لهم مذهباً من الدين ، وأعلمهم أن الذي افترضه الله عليهم خمسون صلاةً في اليوم والليلة، فقد شغلوا بها عن أعمالهم ، فوجه في طلبه ، فأخذ وجيء به إليه ، فسأله عن أمره فأخبره بقصته ، فحلف أنه يقتله فأمر به فحُبس ..»(١٠/٢٣-٢٤) بنصه.

هذا ما ذكره الطبري وهو يتحدث عن بدء أمر القرامطة ، ثم قال في الموضع الأخر الذي اقتبس منه(المؤلف العلامة):«.. فقدم قوم من الكوفة ، فرفعوا إلى السلطان أمر القرامطة ، وأنهم قد أحدثوا ديناً غير الإسلام ، وأنهم يرون السيف على أمة محمد ، إلا من بايعهم على دينهم .. وأنهم جاؤوا بكتاب فيه :«بسم الله الرحمن الرحيم :يقول الفرجُ بنُ عثمان ؛ داعيةُ إلى المسيح، وهو عيسى ، وهو الكلمةُ ، وهو المهديّ ، وهو أحمدُ بن محمد بن الحنفيّة ، وهو جبريل ُ. وذكر أن المسيح تصّور له في جسم إنسان، وقال له: إنك الدّاعيةُ ، وإنك الحجةُ ، وإنك الناقةُ ، وإنك الدّابةُ ، وإنك روحُ القدس ، وإنك يحيى بن زكرياء .وعرّفه أن الصلاة أربعُ ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس ، وركعتان قبل غروبها ، وأن الأذان في كلّ صلاة أن يقول: الله اكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله ؛ مرتين ، أشهد أن آدم رسول الله ، أشهد أن نوحاً رسولُ الله ، أشهد أن إبراهيم رسولُ الله ، أشهد أن موسى رسول الله ، وأشهد أن عيسى رسول الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأشهد أن أحمدَ بنَ محمد بن الحنفيّة رسول الله، وأن يقرأ في كل ركعة الاستفتاح ، وهي من المنزّل على أحمد بن محمد بن الحنفية.والقبلة إلى بيت المقدس، والحج إلى بيت المقدس ، ويوم الجمعة يوم الاثنين لا يُعمل فيه شيء، والسورة(الحمد لله بكلمته ، وتعالى باسمه ، المتّخذ لأوليائه بأوليائه. قل إن الأهلةَ مواقيت للناس، ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنُها أوليائي الذين عرّفوا عبادي سبيلي. اتقون ياأولي الألباب ، وأنا الذي لا أسأل عمّا أفعل ، وأنا العليم

الحكيم ، وأنا الذي أبلُوا عبادي ، وأمتحن خَلْقِي ، فمن صبر على بلائي ومحنتي واختباري ألقيتُه في جنتي ، وأخلدته في نعمتي ، ومَنْ زال عن أمري ، وكذّب رسلي ، أخلدته مهاناً في عذابي ، وأتممتُ أجلي ، وأظهرتُ أمري، على ألسنة رُسُلِي، وأنا الذي لم يعلُ عليَّ جبار إلا وضعتُه ، ولا عزيزٌ إلا أذللتُه ، وليس الذي أصرَّ على أمره ودوام على جهالته، وقالوا: لن نبرح عليه عاكفين، وبه مؤمنين : أولئك هم الكافرون.

ثم يركع ويقول في ركوعه : سبحان ربي ربِّ العزة وتعالى عما يصف الظالمون! يقولها مرتين ، فإذا سجد قال : الله أعلى ، الله أعلى ، الله أعظم ، الله أعظم.

ومن شرائعه أنّ الصوم يومان في السنة، وهما المِهرجان والنوْروز ، وأن النّبيذ حرام والخمر حلال ، ولا غُسْلَ من جنابه إلا الوضوء كوضوء الصلاة ، وأن مَنْ حاربه وجب قتْله، ومن لم يحاربه ممن خالفه أخِذت منه الجزية»أ.هـ بنصه(١٠/٢٥-٢٦)

هذا ما أورده الطبري في الموضعين اللذين أشار إليهما المؤلف ، هذا ما ذكره الطبري عن القرامطة:

- أحدثوا ديناً غير الإسلام
- لهم كتابٌ غير القرآن
- صلاتهم غير صلاتنا (مرتان في اليوم)
- حجهم إلى بيت المقدس
- يَروْنَ السيفَ على أمة محمد صلى الله عليه وسلم
- لهم نبي غير نبينا صلى الله عليه وسلم
- قبلتهم إلى بيت المقدس
- عيدهم الأسبوعي يوم الاثنين وليس الجمعة
- صومهم يومان في السنة (يوم المهرجان ويوم النيروز) وهما من أعياد المجوس.
- الخمر حلال
- لايتطهرون من الجنابة
- من قاوم مذهبهم وجب قتله.

هذا ما جاء به القرامطة ، وهذا هو دينهم ، وهذا ما قرأه الأستاذ الدكتور في الطبري قطعاً، فهل يقرأ هذا الكلامَ عاقلٌ ، ثم يحدثّنا عن صلاح القرامطة ، وورعهم ، وصدق دينهم ، وأن أعداءهم من كتاب السلاطين كذبوا عليهم ، وأدّعَوا عليهم افتراءات واتهامات باطلة؟؟

مرة أخرى أننا لا نريد أن نحاكم هذا الباحث الضّليع إلا بالمعيار الذي لابد يؤمن به ، نحاكمه إلى المنهج ، الذي هو -بحكم عمله ووظيفته- من سدنته وحُماته.

فنسأله : أيقبلُ المنهجُ هذا ؟ أيكون جديراً بمنصبه في الجامعة من يفعل هذا؟ أله مكانٌ بين الأساتذة والأكاديميين من يرتكب هذا(٢) ؟

ونلاحظ مايلي :-

(أ) أنه قدّم وأخر في كلام الطبري ، فعكس الترتيب الذي ورد عليه الكلام .

(ب) أنه يُرتب على هذا إظهار الطبري بمظهر المتناقض مع نفسه حيث يقول: إنهم أبطلوا التكاليف الشرعية ؛ فهم لا يتطهرون من الجنابة ، ثم يعود فيقول إن أحد كبار الملاك ضاق ذرعاً بفلاح قرمطي يعمل في ضياعه(لحرصه على أداء الصلاة).

لابد من تأمل ونظر :

ونحن ندعو المؤلف أن يعيد النظر في قراءة الطبري وأن يتأمل هذه النصوص التي أمامه، أما القارىء ، فنحن على ثقة بأنه سيميز الحق من

(٢) تُرى هل يمكن إقامة دعوى أمام القضاء لإثبات خيانته لمقتضيات وظيفته، والمطالبة بإقصائه عن الجامعة، وأما التعويض عما قام به من تخريب في عقول الشباب بأضاليله، فما أظن المطالبة به ممكنة، لأن ذلك لا يمكن أن يقدّر بمالٍ ، ولا تفي به أموال الدنيا كلها. اللهم إلا إذا حُكم عليه بأن يكذب نفسه ، فيصدر كتاباً آخر يعلن فيه صراحةً ، أنه كان مزّيفاً فيما قاله عن القرامطة ، فهذه توبةُ القاذف؛ إذا لا توبةَ إلا بإكذابه نفسَه. ونرجو له ذلك.وعسى الله أن يتوب عليه وبخاصة أن شياطين المراكسة ، قد أعلنوا عن سقوطها، وكشفوا عن خداعها وزيفها.

الباطل من أول قراءة، ولن يحتاج إلى إعمال نظر أو فكر.

ونحن نطرح هذه الأسئلة على المؤلف لتعينه على التأمل والتدبر :

(١) هل الصلاة التي ضاق بها ذرعاً أحد كبار الملاك هي صلاة المسلمين ؟
(٢) هل يفهم هو من عبارة الطبري أن هذه الصلاة صلاة الاتقياء الصالحين ؟
(٣) هل فهم من عبارة الطبري أن هؤلاء القرامطة ملتزمون بالتكاليف الشرعية ؟
(٤) هل كان غضب (أحد كبار الملاك هذا) من حرص فلاحيه على الصلاة ، أم من كُفر هذا الداعي الذي شرع لهم ديناً جديداً ؟
(٥) هل تصلح عبارة الطبري هذه وقصته عن غضب (الهيضم بن العلاء) من تقصير عماله وانشغالهم بصلاة القرامطة -شاهداً على هدم إجماع المؤرخين الذين قالوا بخروج القرامطة على الإسلام والتحلل من شرائعه.
(٦) وأخيراً هل يسمح المنهج العلمي أن يخون أحد (الدكاتره) المرجع الذي ينقل عنه ، فيقصم ظهر النص ويمزقه ، ويأخذ جزءاً منه على طريقة ذلك الشاعر المخمور:

ما قال ربك ويلٌ للألي سَكِروا
لكنه قال : ويلٌ للمصلينا

ونترك الطبري ، وننظر فيما قاله عن الإمام الغزالي ، وإيهامه لنا بأنه متناقض مع نفسه .

فماذا قال الغزالي :

جاء في كتابه (فضائح الباطنية ص ٢١ إلى ٣٢) بيان وتفصيل (الدرجات حيلهم) وأنهم ، نظموها على تسع درجات مُرتَّبة ، ولكل مرتبة اسم ، أولها : الزَّرق(بمعنى الخداع)، والتفرّس ، ثم التأنيس ثم التشكيك ، ثم التعليق ، ثم الربط، ثم التدليس ، ثم التلبيس ، ثم الخلع ، ثم السلخ ».

وأخذ الإمام الغرالي يفصّل هذه الدرجات التي يلتزم بها الداعي القرمطي، ويستدرج ضحاياه ، ويستنزلهم على مقتضاه ، إلى أن وصل

مرحلة(الربط) فقال «وأما حيلة (الربط)، فهو أن يربط لسانَه بأيمان مغلظة، وعهود مؤكدة ، لا يجسر على المخالفة لها بحال. وهذه نسخة العهد : يقول الداعي للمستجيب : جعلتَ على نفسك عهدَ الله وميثاقه ، وذمةَ رسوله عليه السلام ، وما أخذه الله على النبيين من عهد وميثاق ، أنك تُسرّ ما سمعته مني وتسمعه ، وعلمتَه وتعلمه من أمري ، وأمر المقيم بهذه البلدة لصاحب الحق الإمام المهدي ، وأمور إخوانه وأصحابه وولده وأهل بيته ، وأمور المطيعين له على هذا الدين ، ولا تُظهر من ذلك قليلاً ولا كثيراً تدل به عليه .. فتعملَ حينئذ بمقدار ما نرسمه لك ولا تتعداه ..

وجعلتَ على نفسك عهد الله وميثاقه أن تتبعني ، وجميعَ من أسميه لك وأبيّنه عندك .. وأنه لا رأى ولا عهد تتناول على هذا العهد بما يُبطله . فإن فعلتَ شيئاً من ذلك ، وأنت تعلم أنك قد خالفته ، فأنت بريء من الله ورسله الأولين والآخرين .. وأنت خارج من كل دين ، وخارج من حزب الله وحزب أوليائه ، وخذلك الله خذلاناً بيّنا، يعجل لك بذلك النقمة والعقوبة ، إن خالفت شيئاً بتأويل أو بغير تأويل ، فإن خالفتَ شيئاً من ذلك ، فلله عليك أن تحج إلى بيته ثلاثين حَجة نذراً واجباً ، ماشياً حافياً ، وإن خالفت ذلك، فكل ما تملكه في الوقت الذي تحلف فيه صدقةٌ على الفقراء والمساكين ، الذين لا رحم بينك وبينهم .. وكل امرأة تكون لك أو تتزوجها في قابل ، فهي طالق ثلاثاً بتّةً ..»

وأما ما ذكره الغزالي في الموضع الآخر الذي أشار إليه الدكتور(التقدمي) (المنهجي) فهو: ما جاء في الباب الرابع من ص ٣٧ -٥٤ في تفصيل مذاهبهم وتطورها وتنوعها ، « فسبيل دعوتهم ليس بمتعيّن في فن واحد ، بل يخاطبون كلَّ فريق بما يوافق رأيه بعد أن يظفروا منهم بالانقياد لهم ، والموالاة لإمامهم : فيوافقون اليهود والنصارى والمجوس على جملة معتقداتهم، ويقرونهم عليها » ثم يأخذ الإمام الغزالي في تفصيل معتقداتهم في الإلهيات ، ثم النبوات ، ثم الإمامة ، ثم القيامة والمعاد، ثم يصل إلى تفصيل اعتقادهم في التكاليف الشرعية فيقول:« والمنقول عنهم الإباحة المطلقة ، ورفعُ الحجاب ، واستباحةُ المحظورات ،

واستحلالُها وإنكارُ الشرائع ، إلا أنهم بأجمعهم ينكرون ذلك إذا نسب إليهم».

انظر وانتبه للغزالي (الرجعي) الذي مضى عليه ما يقرب من عشرة قرون يحترم المنهج العلمي ، فيحكي ما يقال عن الباطنية (القرامطة) ، وما نقل عنهم ، ثم يذكر لهم رأيهم وأنهم بأجمعهم ينكرون ذلك إذا نسب إليهم).

ثم ينقل الغزالي قولَهم بلسانهم عن معتقداتهم فيقول:« وإنما الذي يصح من معتقدهم فيه أنهم يقولون: لا بد من الانقياد للشرع في تكاليفه ، على التفصيل الذي يفصِّله الإمام .. وأن ذلك واجب على الخلق والمستجيبين إلى أن ينالوا رتبة الكمال في العلوم ، فإذا أحاطوا من جهة الإمام بحقائق الأمور، واطلعوا على بواطن الظواهر انحلت عنهم هذه القيود ، وانحطت عنهم التكاليف العملية ، فإن المقصود من أعمال الجوارح تنبيه القلب ، لينهض لطلب العلم، فإذا ناله استعد للسعادة القصوى ، فيسقط عنه تكليفُ الجوارح».

هذا ما كتبه الغزالي بنصه في الموضعين اللذين أشار إليهما الأستاذ الدكتور، موهماً القراء أنه ببحثه واستقصائه ، استطاع أن يكشف زيف (المؤرخين) و (المؤلفين) (أجمعين) حيث أظهر تناقضهم.

والآن هذه هي النصوص ، فأين التناقض ؟ وأي عقل بل أي هَوى يرى فيها تناقضاً ؟ فمع أنه قدّم المؤخر ، وأخر المقدَّم ، ليزعم التناقض ، (فكيف ينحلون من التكاليف الشرعية ، وهم يهددون المستجيب بثلاثين حَجة حافياً ماشياً نذراً واجب الوفاء ؟) هذا هو التناقض في نظره !!!

هذا ما يريد أن يقوله المؤلف (الدكتور) (البحاثة) (المنهجي) (ربيب الأكاديميات) !!

ولنا أن نسأله : أي واجبات يعاقب (المستجيب) لدعوة القرامطة على الإخلال بها بأداء ثلاثين حَجة حافياً ماشياً؟

تريد أن توهمنا أنها الواجبات الشرعية والتكاليف الدينية !!!

كيف تستيغ أن تزيف علينا الحقائق ؟ وتتهم الإمام الغزالي رضي الله عنه بالتناقض؟ كيف تقبل (جامعيتك) و(منهجيتك) أن توحي لنا وللضحايا من طلابك وقرائك بهذا؟ ومن أجل ماذا؟ وفي سبيل ماذا؟ من أجل القرامطة ؟ وفي سبيل إثبات براءة القرامطة من جرائمهم وفضائحهم ؟

من أجل تزييف تاريخ الأمة؟ من أجل طمس معالم الطريق أمام الأمة؟!!

من أجل ترويج شيوعية القرمطة في الأموال والنساء والدعوة لها !!

إن الواجبات التي يحج (القرمطي) ثلاثين حجة إذا أخل بها ، هي كما في نص العهد :

١- ألا يبوح بسر ما سمعه من الداعي، وما سيسمعه مستقبلاً، وما علمه من أمر الإمام ، وما يعلمه في المستقبل.
٢- الإخلاص للداعي ومَنْ وراءه
٣- ألا يدل عليهم ، ولاينطق إلا بما يُسمح له أن ينطق به.
٤- أن يعمل بما يُرسَم له ولا يتعداه.
٥- أن يحمي الداعي وكلٌ من وراءه ، مما يحمي منه نفسه .
٦- أن ينصح للداعي ومن وراءه نصحاً صادقاً خالصاً ، ولا يخون بأي سبب من مالٍ ونعمة.
٧- ألا رأي ولا عهد فوق هذا العهد .

هذه هي الواجبات التي «يشترط الداعي القرمطي على المستجيب للدعوة أن يحج إلى بيت الله ثلاثين حجة إن أخل بها، فهل هذه الواجبات الشرعية ؟؟ أم هو التدليس والتلبيس القرمطي الحديث ؟؟

وابن النديم :

أما عدوان المؤلف على ابن النديم وتزييفه عليه فيظهر فيمايلي :-

قال في صفحة (ص ١٠٩ -١١٠) :« يطالعنا ابنُ النديم في الفهرست بمصنفات كثيرة لرواد الحركة ودعاتها ، ومن أُشهرهم عبدان الداعية الذي زلف وصنف كتباً ومدوناتٍ كثيرةً ، حتى عرف بعبدان الكاتب ، وحسبنا أنه

ألف في المذهب عشرةَ كتب قيمة، فيها طول باع وسعة اطلاع ..»

وعند آخر كلمة(عشرة كتب) وضع علامة هامش ، وأحالنا على (الفهرست) دون أن يضع علامة تنصيص ، ربما لأنه لخص كلام الفهرست ، وربما لأنه أراد أن يوهمنا بأن وصف (قيمة) من عند ابن النديم ، هذه واحدة. والثانية أن الكتب التي ذكرها ابنُ النديم ليست عشرة بل ثمانية ، وكل هذا أمره هين .

ولكن الأدهى أن باحثاً عن تراث القرامطة وكتبهم ، وآثار مفكريهم ، ينقل عن (الفهرست) خبرَ كتبهم ومؤلفاتهم ، ويتأسف على ضياعها ، وعدم وصولها إلينا وأمام عينه ، وبين أصابعه خبرٌ عن كتبهم ومضمونها ، فيغض الطرف عنه ، لأنه يحمل حقيقةً لا يريد أن يراها ، أو يصلَ إليها ، ويحملُ رأياً لمعاصر للقرامطة اطلع على كتبهم ونظرياتهم ، وذكرها وأخبر عنها كما رآها.

جاء في (الفهرست) في السطور التالية مباشرة ، لما أحالنا عليه المؤلف (الأمين) (الثقة) مايلي :-

« ولهم (أي القرامطة) البلاغات السبعة ، وهى كتاب البلاغ الأول للعامة ، وكتاب البلاغ الثاني لفوق هؤلاء قليلاً ، وكتاب البلاغ الثالث لمن دخل في المذهب سنة .. ، وكتاب البلاغ السابع وفيه نتيجة الكشف الأكبر،« قال محمد بن إسحاق قد قرأته فرأيت أمراً عظيماً من إباحة المحظورات والوضع من الشرائع وأصحابها ».

ومحمد بن إسحاق هذا هو المحدِّث الثقة الثبت المشهور بابن منده ، فلو كان صاحبنا باحثاً عن حقيقة القرامطة ، ويريد أن يرى تراثهم ونظرياتهم في كتبهم، لنظر في كلام (ابن مَنْدَه).

ولا يقولن قائل : إنه ليس مطلوباً من الباحث أن يقرأ كلَّ ما يكتبه المرجع الذي يرجع إليه من استطرادات حول موضوعه ، فهو قد رجع إلى (الفهرست) ليرى ما كتبه ابنُ النديم عن مؤلفاتهم ، وهذا هو الشيء الذي يـزل فيه (الفهرست) فقط !! أما ما عدا ذلك ، فبوسع الباحث أن يضرب

عنه صفحاً ولا يقرؤه ، ولا يعيبه ذلك ولا يضيره.

ومع أن التمحل والتهافت واضح في هذا الكلام ، إلا أننا سنقبله، ونقول: نعم . للباحث أن يغض الطرف عن السطر التالي للجزئية التي يبحث عنها، ولو كان في الموضوع نفسه !!

ولكن ما الرأي إذا كان الكاتب عاد فأحالنا إلى(الفهرست) في الموضع نفسه ، ونقل كلام ابن النديم نفسه عن البلاغات السبعة[3] ، ثم سكت عما ذكره عن البلاغ السابع عن ابن منده !!!

ماذا نسمي ذلك ؟؟

أعترف بأنني عاجز عن إيجاد تسمية له !!! وكل محصولي وقاموسي اللغوي لا أجد فيه اسماً يُطلق على هذا العمل ، أو وصفاً يليق به ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وأخيراً :

كل هذه الخيانات للمنهج ، والجنايات على البحث ، في سطور قليلة لا تكمل صفحة واحدة ، وقد وضعنا أيدينا عليها -علم الله- هكذا دون اختيار ، فما بالنا لو تتبعنا كلّ (بحثه) !!

---

(٣) ص ١٢٦ من كتاب المؤلف ص ٧ ونص كلامه : «ولما استقل حمدان ابن الأشعث بأمر الدعوة، وصار داعياً مطلقاً ظل محافظاً على الفلسفة السبعية فجعل مراتب الدعوة سبعاً لكل منها بلاغاً(كذا) حسب رتبة الفرد في البناء الهرمي التنظيمي ، فالبلاغ الأول للعامة والثاني لمن فوقهم قليلاً، والثالث لمن دخل في المذهب سنة ، ثم يعطى بعد ذلك بلاغاً كلما طال بقاؤه سنة أخرى ، حتى يصل إلى الدرجة السابعة، فيتلقى البلاغَ السابع ، والبلاغُ الأخير ، يتضمن أسرار المذهب وحقائقه الأساسية »أهـ. بنصه ، والذي يهمنا هو أنه عند كلمة (البلاغ السابع) أحالنا إلى (الفهرست) حيث كلام محمد بن إسحاق أمام عين كل من يريد البحث ، ولا يريد التضليل .

هل من جواب :

أحسب أن من حقنا أن نضع الأسئلة الآتية !! مجرد أسئلة بريئة عسى ألا تظل حائرة ، وتجد لها يوماً (ما) جواباً .

* ألم تطلع الجامعة التي يحمل هذا الأستاذ الدكتور اسمها على هذه الخيانة.
* وإذا لم تكن اطلعت ، فماذا هي صانعة الآن ؟
* إذا كانت عقيدتنا وتراثنا وفكرنا قد هان على حكامنا ، فسمحوا بالعبث به بحجة حرية الرأي ، وحرية البحث ، وحرية الفكر ، أليس لنا أن نسأل : من المسؤول عن حماية البحث ، وتزييف الفكر وخيانة المنهج ؟
* دائماً يرفع (التقدميون الحمر) و (العلمانيون البيض) في وجه القابضين على دينهم ، المعتزين بتراثهم ، دائماً يرفعون في وجوههم سلاح (العلم) و(البحث) و(المنهج).

والسؤال : أين عبدة المنهج؟ وأين سدنة الأكاديمية ؟

أما أنا فأقول :أيها المنهج.كم من الجرائم ترتكب باسمك !!!

لماذا رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي؟(*)

سوء التفسير

ذات يوم كان حوارٌ حول الثقافة ، والتربية ، وبناء الإنسان المعاصر ، فقال محاوري فيما قال :.. إن التفسير الصحيح للمعارك والغزوات الإسلامية هو أن الخلفاء أرادوا أن يوجهو المسلمين لمصارعة الدول المجاورة كي يشغلوهم عن النزاع القبلي ، ويلهوهم عن الخلافات الداخلية ، والصراع المذهبي ، ثم كانت الجزيرة العربية آنذاك مركزَ طردٍ للسكان ، فهي بذلك مهددة بالجوع ؛ فكان لابد من غزو جيرانهم ، ونهب خيراتهم خوفاً من شبح الجوع !!!

كذا قال بنص !! ألفاظه تقريباً . وصاحبي هذا من ألمع موجِّهي وزارة التربية والتعليم .

هذا رأيه !! وهذا موقعه !! وصاحبي هذا ليس فرداً ولكنه نمط ، وللأسف هو النمط السائد الشائع بين كل متعلّمينا ومثقفينا إلا من رحم ربك. وهم في الواقع مجنيٌ عليهم وليسوا جُناة ؛ فهم يُعطون ما أخذوا ، ويتكلمون بما قرأوا، ويعلّمون بما تعلّموا ..

(*) كتبت في صيف سنة ١٩٧٠م ، على أثر مناقشة مع صديق كريم وأستاذ جليل جمعتني به رحلة في سفر طويل ؛ وكان حديثنا طوال هذه الرحلة حول هموم أمتنا وهذا أحدها.

موقفنامن الدراسات التاريخية والمؤلفات الموجودة حالياً:

نبادر فنقول : إننا لانتهم أحداً بالقصور ولا بالتقصير ، ولا نتشكك في نيات أحد ، ولا في دينه ، ذلك أن حُجّتهم ظاهرة ، وعذرهم واضح ، فمنذ تحركت الأمة الإسلامية لليقظة الحديثة تحرك أعداؤنا من دهاة المستشرقين ، ولئام المبشرين ، وأخذوا بزمام الفكر والرأي ، واقتعدوا مقعد التوجيه والإرشاد ، وتمثّلت خطورتهم في ناحيتين :

الأولى : أنهم كانوا أساتذةً للرعيل الأول من المؤرخين المسلمين. بل ما زالوا للآن يوجهون الدراسات التاريخية حسب هواهم ، وما زالت مؤلفات هؤلاء المستشرقين من أمثال : « جب» و «جولدتسيهر» و «براون» و«لان بول» و«ماكدونالد»، وأضرابهم، مازالت للآن هذه المؤلفات هى أسخى المنابع وأشهاها للمؤلفين المسلمين، يلجئون إليها ، ويتبارَوْن في تحلية كتبهم وتزيينها بأسماء هذه المؤلفات مراجعَ لهم .

والناحية الثانية : التي تمثلت فيها خطورة هؤلاء المستشرقين والمبشرين ، هي توجيههم لحركة إحياء التراث وبعثه ، فقد سُلّطت الأضواء على جوانبَ معينة من تاريخنا ، أُريد لنا أن نراها ، وعلى مؤلفات معيّنة أُريد لنا أن ندرسها ، ولك أن تحصي عددَ طبعات كتاب الأغاني للأصفهاني ، وتعدّد المحاولات التي تمت لتجريده حينا ، وتلخيصه حينا ، وتقديم مختارات منه حينا ، بل الدراسات والأبحاث التي تناولته شرحاً وتحليلاً ، وتجميعاً وتفريقاً، وناهيك بتقديمه في الأثواب الجديدة من حلقات إذاعية ونحوها.وما يقال عن (الأغاني) يقال عن(ألف ليلة وليلة) والعناية به والاهتمام بإظهار قيمته حتى قرَّ في بعض الأذهان - من طول الإلحاح واللّجَاجة في التكرار -أن صورة المجتمع الإسلامي في عصر الإسلام الزاهي كانت كما تراها في كتاب الأغاني ، وكما تصوّرُها حكاياتُ ألف ليلة وليلة.

هكذا سيطر الغزاة -كماقلنا- على حركة التدريس والتوجيه في مراكز الأبحاث والدراسات العليا، وعلى حركة الإحياء والبعث لتراثنا ، ومن هنا

كان عذر هؤلاء المؤرخين المُحْدَثين من المسلمين، بل إننا نؤكد أن لبعضهم -برغم وعورة الطريق- محاولاتٍ جيدةً كان لها آثارٌ تستحق الشكر والتسجيل .

معنى التاريخ :

ولعل من المناسب الآن أن نبين معنى التاريخ ، ليظهر لنا سرُّ الاهتمام بهذا الموضوع.

التاريخ في الحقيقة ليس مجرد سردٍ للأحداث ، مهما بُذلت الجهود لتحقيق تاريخ الأحداث وتوثيقها ، فذلك على ضرورته ليس هو علم التاريخ ، بل علم التاريخ هو تفسير الأحداث في عمقٍ ووعي ، حتى ندرك سر هذه الأحداث ، والروابط التي تربط بينها، فنتعرف على القانون التاريخي الذي يتحكم في سير الأحداث ، ويوجه دورات التاريخ.

قيمة التاريخ :

والتاريخ بهذا المعني ليس علم الماضي ، بل هو علم الحاضر والمستقبل ، فهو الذي يعطي الأمة الواعية الضوء لتستبين طريقها، والأمم دائما تُهرع إلى تاريخها في لحظات محنتها ، حتى تستمدَّ منه الإلهامَ، والقوةَ النفسية، ومن هنا كان حرص عدونا على تزييف تاريخنا وتشويهه ، لتضليل الحاضر وإفساد الطريق إلى المستقبل ، وإجهاض موجة اليقظة المتزايدة ضد العدو التاريخي والقومي والحضاري.

ما يتميز به التاريخ الإسلامي :

والتاريخ الإسلامي فوق ذلك يتميز بأنه تاريخ عقيدة وشريعة ، بأنه في حقيقته صورة الإسلام التطبيقية ، فالتاريخ الإسلامي هو الإسلام مطبقاً منفّذاً واقعاً ، فإذا كان الإسلام موجوداً في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، فذلك كتشريع وهداية ، ولكنه كواقع عملي موجودٌ في عمل الرسول -صلى الله عليه وسلم- والخلفاء من بعده ، ودول الإسلام التي

حملت رايته وانساحت به في الأرض ، وهذا يقتضينا أمرين :

أولهما - بذل مزيد من الاهتمام والجهد في البحث والدراسة ، والتمحيص والنقد، بحيث يتلاءم الجهد المبذول مع شرف الموضوع وعلو قدره ، فليست روايات التاريخ حينئذ ، بأقلَّ قدراً من روايات السنة في وجوب العناية بها وتمحيصها.

وثانيهما - أن نوقن بأن باحث التاريخ الإسلامي لا يمكن أن يدرك الأحداث التاريخية، وتتفتحَ أحاسيسه لحقائقها وأسرارها إلا بقدر إدراكه لطبيعة العقيدة الإسلامية ، وطريقة استجابة المسلمين لها. يقول الشهيد سيد قطب: « إن المعارك الحربية والمعاهدات السياسية والاحتكاكات الدولية، وما إليها ، مما يُعنى به التاريخُ غالباً أكثر من سواه -إنها كلُّها محكومة بعوامل أخرى ، هى التي يجب أن تبرز عند كتابة التاريخ- هذه العوامل هى التي يختلف الباحثون في تقديرها وإدراكها ، كلٌّ يخضع للفلسفة التي تُسيطر على تفكيره وتقديره ، أي لطريقة إدراكه للحياة في عمومها.

وللباحث المسلم مَزيةٌ هنا في دراسة الحياة الإسلامية ، لأن طريقةَ إدراكه للحياة تمتُّ بصلة إلى حقيقة هذه العوامل المؤثرة في سير التاريخ . ومن ثم، فهو أقدر على التلبس بها واستبطانها ، والاستجابة لها استجابة كاملة صحيحة.

فعلى هذا ، لن يستطيع باحثٌ غيرُ مسلم ، بل غيرُ مسلمٍ صادق الإيمان - لن يستطيع أن يدرك حقائق التاريخ الإسلامي وأسرارها ، لن يستطيع ذلك بالطبيعة ، لأنه معطل الحواس مشلول الإدراك . وأوضح مثال علي ذلك ما قاله المستشرق (مونتجمري واط) حين قال : إن محمداً صلى الله عليه وسلم، لم يكن يعتكف في غار حراء تعبداً ، وتأملاً ، وإنما كان يذهب إلى هذا الغار في رأس الجبل ليصطاف فيه ، حيث كان فقيراً لا يستطيع أن يذهب إلي الطائف مثلما يذهب أغنياء مكة.

حينما يقول هذا المستشرق ذلك ، فإنما يقول من موقع كُفره بالإسلام

ورسول الإسلام ، ومن هنا لم يستطع أن يستجيب للحادثة ، ولم يتفتح إدراكه لها ، فلم يجد لها من التعليل إلا ما يوافق نظرتَه المادية إلى الأمور وإدراكه لها ، بل يعمّى عن الحقيقة وهي منه قاب قوسين أو أدنى ، بل هي بين يديه ، وأعني بذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، كان في ذلك الوقت زوجاً لخديجةَ رضي الله عنها صاحبة الأموال والتجارات ، إن لم نقل من موسرات مكة المعدودات ، وما أظنها كانت تضن على هذا الحبيب ، الأمين صلى الله عليه وسلم بنفقات رحلة إلى الطائف، وما أيسرها . بل إن محمداً صلى الله عليه وسلم بعد ما عمل لخديجة في مالها ، ورواج تجارتها ببركته ، كان له من الأسهم في هذه التجـارة ما يغنيه لو أراد.

ومثال آخر على ذلك الإدراك المنقوص ، لتعطل الروح والحس ما كتبه طه حسين في كتابه (الشيخان) فقد كانت عبارته التي يدفع بها الأخبار، هي قوله : « وأكاد أشك » و « أنا أشك » و « أناأرفض » و « أنا أكاد لا أصدق» ونحو ذلك ، فإذا جاء خبر عن قائدٍ من قواد عمر بن الخطاب حسدَ القائدَ الآخرَ على كثرة ما غنمت كتيبته ، فطلب من عمرَ أن يأذن له أن يهاجم هاتيك القرى ، حتى ينال حظاً من الغنائم مثلَ الذي ناله قرينه، فيأذن له عمر ، وتهتزُّ نخوة القائد البطل طرباً ويهجم على القرى ويمزقها ، يباري قرينَه في الغنائم ، حين تجري هذه الرواية على قلم الدكتور عميد الأدب العربي طه حسين – تتبخّر أدوات الشك وعباراته كلُّها ، فلا تقرب واحدة من هذه العبارات هذا الخبرَ ، بل يذكره بصيغة الصحة والجزم والقطع.

فقطعنا ذلك لا يكون إلا من نقص الإدراك ، ونقص الاستجابة بالتالي ، ولو كان لديه الإدراك الكامل السليم ، لأدرك الروحَ التي كانت تحكم هؤلاء الأطهار ، ولعلم أن هذه الرواية أولى بكل أدوات الشك التي بعثرها في كتابه ، ولو أدرك أن هؤلاء هم الذين تربّوا في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم وَوَعَوا قوله:« من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فذلك في سبيل الله» . فما بال القتال في سبيل الغنائم، ولو وعى أبسط الحقائق النفسية، لأدرك أن من يقاتل في سبيل الغنائم لايدوم له نصر ، ذلك أنه يكون معلق القلب والبصر بما خلّفه وراءً من مال ، وبما يبغيه من أيدي عدوه ، ومثل ذلك

لا يدوم له نصر ، وإن كسب معركة أو أكثر ، ثم الأدهى أن يُسند الإذنَ بالقتال إلى عمرَ رضي الله عنه ، الذي كان يتمنى أن بين المسلمين وبين الفرس جبلاً من النار لا يعلونه ولا يعلوه. والذي كان يكره الحرب والعجلة فيها ويقول :«إن الحرب لا يصلحها الرجل العجول » فتعمى البصائر وتؤكد أن عمر كان يأذن لقواده بغزو القرى من أجل المال والغنائم.

وسائل تشويه التاريخ الإسلامي

وفي إيجاز سريع نشير إلى وسائل هذا التشويه :-

١ - التركيز على الغزوات والمعارك وكأنها هى كل تاريخ الإسلام.
٢ - عدم إعطاء هذه المعارك حقها من التفسير والتعليل ، وبعث الجو الذي جرت فيه والدوافع التي أدت إليها.
٣ - ذكر تفسير ودوافع للأعمال العسكرية أقل ما توصف به أنها خبيثة.
٤ - ذكر أحداث في صورة أكبر من حجمها.
٥ - بتر الأحداث واختيار جوانب منها عند روايتها لتؤيدّ رأياً معيناً .
٦ - سوء التعبير الذي يصل إلى حد البذاءة.
٧ - التناقض بين بعض الدراسات وبعض.
٨ - استخدام الدراسات الأدبية واللغوية مجالاً لبث السموم وتشويه التاريخ .

وسنعود -إن شاء الله لتفصيل- كل واحدة من هذه بقدر الجهد والطاقة.

والله ولينا هو نعم المولى ونعم النصير.

دور الدّراسَات الأدبيّة (*) في تشويه التاريخ الإسلامي

من الحقائق المقررة التي تأخذ صورة البدهيات التي لا تقبل المناقشة -أن الأدب صورة ومرآةٌ للمجتمع وللبيئة التي ينشأ فيها- ومن هنا صار معدوداً من أهم مصادر التاريخ وأصدقها.

ولكن هذا القولَ الذي أخذ صورةَ البدهيات والحقائق الثابتة. هذا القول ليس على إطلاقه ، فليس الأدبُ صورة تسجيلية للبيئة والمجتمع ، وإنما هو فن يلتقط بعض القطاعات من المجتمع ، فيصورها الأديب من داخل نفسه ، متأثراً بانفعالاته وعواطفه تجاه ما يصوِّر، ومن هنا نجد المادحَ والقادحَ في نفس الوقت ،للعمل نفسه ، وللتصرف نفسه.

وعلى ذلك ، فالمؤرخ الذي يجعل الأدبَ - أيّاً كان الفن الأدبي الذي يلجأ إليه - مصدراً من مصادره يجبُ عليه أن يكون في منتهى اليقظة والحذر. فعندما يستشف سمات العصر من الأعمال الأدبية ، عليه أن يحيط بكل الأعمال الأدبية إحاطةً شاملةً ، ثم عليه أن يفسرها في ضوء تمثله واستبطانه لحياة رجال ذلك العصر، والروح التي توجههم وتسيطر عليهم ، ولا ينسى

(*) أعدت هذه الدراسة في نحو سنة ١٩٨٢م لتقدم إلى المسئولين عن المناهج في جمهورية مصر العربية ، ثم نشرت مؤخراً في مجلة الأمة الأولى العدد السابع- رجب ١٤٠١هـ-مايو ١٩٨١م

طبعاً باقي المصادر التاريخية الأخرى.

الدراسات الأدبية في حاجة إلى يقظة ووعي بآثارها :

وإذا كان هذا واجباً عند اعتماد الأدب مصدراً من مصادر التاريخ ، فهو أيضاً واجبٌ عند الدراسات الأدبية البحتة ، وعند تفسير الظواهر الأدبية المختلفة ، فقد تكون الدراسة الأدبية دراسةً فنية بحتة ، ولكنها في الوقت نفسه تؤكد حقائق تاريخية بصورةٍ غير مباشرة ، وفي هذه الحالة تكون أكثر تأثيراً ، وأبعد خطراً.

ومن هنا كانت الدراساتُ الأدبية في حاجة إلى يقظة تامة ، ووعي كامل بهذه الآثار التي تترتب عليها أو تُفهم منها.

والدراسة التي نقدمها اليوم هي عن (كتاب الأدب والنصوص الأدبية) للصف الأول الثانوي[1]، وبادىء ذي بدء نقول : إننا لا نتهم واضعي المنهج ولا مؤلفي الكتاب في دين ولا صدق نية ، ولا في الغَيْرة على الأمجاد والأجداد ، فهم جميعاً فوق الشبهات -بل هم أيضاً ضحايا لذلك الفكر الخبيث الذي تسلل إلى أعماق ثقافتنا ، وأصبح من البدهيات المسلم بها ، بل إن وقوع هؤلاء في هذه الوهدة ، وهم من أصحاب الثقافة العربية والإسلامية ، والدين ، دليل على خطورة هذا السّم الذي تسلل إلى الدماء ، حتى صار جزءاً من تكويننا الفكري ، نؤمن به ونردده وندافع عنه.

فلنستعرض هذا الكتاب :

يدرس هذا الكتابُ فترات ثلاثاً من تاريخ الأدب العربي أو عصوراً ثلاثة هي: العصر الجاهلي ، وعصر صدر الإسلام ، والعصر الأموي ، وهو يعرض نماذج من أدب هذه العصور، يدرسها ويحللها، ويحفظ منها التلاميذ نحواً من نصفها ، فكيف عالج الكتاب كلَّ عصرٍ من هذه العصور؟؟ وبأي روح؟؟

---

(١) المقصود : الكتاب الذي يدرّس بمصر ، وإن كانت كل البلاد العربية لا تختلف عنه كثيراً ولا قليلاً ، ولست أدري أذلك أثر من آثار اتفاقية الوحدة الثقافية ، أم أثر للبصمات الأولى التي وضعها دنلوب وتلاميذه . وما زالت تسيطر على مناهجنا وكتب مدارسنا في كل العالم العربي.

العصر الجاهلي :

حين ننظر في أدب هذا العصر نجد النصوص المختارة تحمل العناوين الآتية:مآثرٌ عربية - فروسية - دعوة إلى السلام - فخرٌ واعتزاز بالنصر على الفرس ـ قيمٌ خلقية ـ في الحفاظ على الكرامة ـ من صور الكرم - قيادةٌ حكيمة - طريق السيادة والشرف - إكرام الحجيج - وصية أم لابنتها.

هذه هي القسمات البارزة أو الملامح العامة للعصر الجاهلي ، ويزيدُها الشرح وضوحاً وتأكيداً ، فتقرأ في شرح النص الثاني(مآثر عربية) ص ١٢ مايلي : إنهم أسبقُ الناس إلى المكرمات وإن غيرهم لا يلحق بهم .. وإن الشرفَ صفة أصيلة فيهم .. إنهم أهل جد وخشونة ، وأهل كرم وبذل ، وأهل عزة ومنعة.

وفي ص ٤٤ يقدم الكتاب لأبيات المثقّف العَبْدي بقوله: وقد كان للمجتمع الجاهلي مآثر ومفاخر يتغنى بها ويتطلع إليها ، وأنت في الأبيات أمام بعضٍ من هذه التجارب والخصال الطيبة - ثم يسمعنا صوت شاعر الجاهلية قائلاً:

لا تقولَنَّ إذا ما لم تُرد
أن تُتم الوعد في شيء . نعم
حسنٌ قولُ (نعم) من بعد (لا)
وقبيحٌ قولُ (لا) من بعد (نعم)
لا تراني راتعاً في مجلسٍ
في لحوم الناس كالسبع القَرِم

ويعلق على النص بقوله ص ٤٥: والأبيات -كما ترى- تدور حول تمجيد الشاعر للوفاء بالوعد ، والحرص على تنفيذه ، والترفّع عما يعيب وينقّص من الكرامة.

وفي ص ٤٨ يقدم لأبيات أخرى بقوله(وقدّر العربي أن هذا الموقفَ الذي يتعرض له غيره ، قد يتعرض له هو ، ولهذا بذل الطعام للضيف ، واحتفى

به، ونحر له الإبل - وكان الكرمُ من الفضائل الأصيلة التي اعتز بها العربُ وتغنى بها شعراؤهم).

وفي ص ٥٨ نراه يعلّق على أبيات الشنفري قائلا:(في الأبيات ثورة على الظلم، ودعوة إلى التحول عن مواطنه ، وإلى احتمال الآلام في سبيل الإبقاء على عزة النفس ، والحفاظ على الكرامة)، ويستمر التعليق إلى أن يقول : (عُرِف الشنفري بأنه من الشعراء الصعاليك ، وكثيراً ما يتبادر إلى الذهن أن الصعلكة صَغار في النفس ، وفي التصرف ، ولكن الأبيات تُلقي لك ضوءاً على شخصية الشنفري ، وحفاظه على كرامته ، ومنها ومن تاريخ هؤلاء الصعاليك ، يظهر أنها اختلاف في وجهات النظر إلى الحياة).

هكذا دفاع وتبرير للصعلكة - بل مدح لها !!

ونقرأ في ص ٧١ تعليقاً على أبيات للأعشى يمدح فيها قيسَ بنَ معديكرب الكِنْدي. يقول التعليق :(عرض علينا الشاعر في أبياته صورةً للقيادة الحكيمة ، متمثلة في شخص ممدوحه ، فهو رجل جواد سمحُ الخلق .. وهي صفات إنسانية خالدة، لا تتغير بتغير العصور).

وفي ص ٧٩ يعرض علينا الكتابُ (طريق السيادة والشرف) يرسمها لنا الحكيم الجاهلي ، في وصيته بالسماحة والكرم ، ولين الجانب والإيثار ، والتضحية والنجدة.

وننتقل إلى ص ٨١ فنرى صورة الإكرام للحجيج ، يدعو إليه هاشمُ بنُ عبد مناف ، ويستحلف قومَه بحرمة الكعبة ، أن يكرموا الحجاج ، وأن يعينوه على ذلك.

وفي ص ٨٣ يعلق على الخطبة تعليقاً جاء فيه «وهو يقدر قداسة الموقف؛ فيُلح عليهم ألا يقدموا لضيوف الله ما لا يرضاه من مال خبيث ، لا خير فيه».

وفي ص ٨٥ ترى أماً توصي ابنتَها عند زفافها « بنصائحَ تساعدُها على أن تنجحَ في حياتها الزوجية ، وتصوّرُ هذه الوصية جوانبَ واضحةً من شخصية (أمامة) بعقلها واتزانها ، وخبرتها بنفس الرجل في المجتمع الذي

تعيش فيه .. وتعتمد على الإقناع العقلي أكثر مما تعتمد على الإثارة العاطفية - والسائد فيها توضيحُ الفكرة، والتعليلُ لها ».

وفي ص ٨٩ نرى هانيء بن قُبيصة الشيباني ، يعبيء العرب لمعركة النصر ضدّ الفرس ، وفي ص٩٢ نرى صورةً من (السفارة بين القبائل) فتسمع لعبد المطلب بن هاشم يهنيء سيفَ بن ذي يزن ، بنجاحه في تطهير أرض اليمن من الأعداء ، ويتحدث عن سعادة الجزيرة العربية بذلك.

وعند الحديث عن (خصائص الأدب الجاهلي) وفنون هذا الأدب وأغراضه نرى التعاطف مع هؤلاء الجاهليين واضحاً جلياً ، فتفسير الظاهرات الأدبية ينطوي على تمجيدهم ، وتعظيمهم ، «فالمدحُ يمتاز بإيثار الصدق ، وعدم المبالغة، أو الفناء في الممدوح ، ويدفع إليه العرفان بالجميل ، أو الرغبةُ في الكسب».

وأما الفخر « فالعربي مقتصد في فخره ، غيرُ نُزاع إلى المغالاة المسرفة» و«أما رثاء الجاهلي، فيتميز برهافة الحس وصدق العاطفة ، والبعد عن التهويل» و«أما الاعتذار، فقليلٌ في الشعر الجاهلي؛ لأنه لا يتفق مع إباء العربي واعتداده بنفسه».

و «أما الحِكم ، فقد ساقها الشعراء صدى لصفاء فطرتهم ، وكثرة تجاربهم. وقدرتِهم على استخلاص وجه العبرة مما يمر بهم ، وقد اجتمعت للعربي سلامةُ الفطرة، وصفاء البصيرة ، ودقةُ الملاحظة ، ولهذا أجاد في حكمه»

هكذا في هذا الجزء من الكتاب نجد المؤلفين - بعد أن أفرغوا جهدهم في الاختيار والانتقاء للنصوص الأدبية الجاهلية- يجردون أقلامهم ، ويُشرعون أسنتَها في حماس واندفاع ؛ للذود عن الجاهلية والجاهليين، والمجتمع الجاهلي، وتجلية صورته ، وإبرازها في أروع إطار- وإن كنا نقول ذلك استنتاجاً منطقياً ، مما رأيناه من مقدمات ، فقد قاله المؤلفون صراحة ، حين أكدوا أنهم لا يفعلون ذلك اتفاقاً أو مصادفة ، بل هم يأخذون هذا الموقفَ عن وعيٍ وقصد، إذ يقولون في مقدمة الكتاب، ص٣ «ومن بين النصوص

التي آثرناها بالاختيار،ما يصحح النظرة إلي الأدب الجاهلي، وإلى ما فيه من قيم اجتماعية وإنسانية خالدة تجاوز النظرة الحسّية والفردية، التي طالما زعم الزاعمون أن أدب ذلك العصر يدور في نطاقها» كذا قالوا !! هذا هدفهم ، وغرضهم

هذا ما رأيناه من ملامح العصر الجاهلي ،وما رأيناه من اتجاه الكتاب وهدفه.

العصر الإسلامي :

فماذا عن العصر الإسلامي والأموي؟ عندما يتناول المؤلفون هذا القسم من الكتاب تتبدل الأحوال ، وتختلفُ الأهداف ، ويغيب الوعي بقيمة العصر الإسلامي، وتغيم ملامحُهُ وقسماتهُ - بل تشوه وتحرف ، عن طريق الاجتزاء والتجهيل - فحين ننظر إلى أدب الإسلام وبني أمية نرى النصوص التي تحمل العناوين الآتية:

- تهديد ووعيد .
- علي يستنفر أصحابه لقتال معاوية.
- الكُميت يمدح الهاشميين ، ويسب بن أمية.
- عبد الله بن قيس الرقيات يأسى لتفرق قريش ، ويمدح الزبيريين.
- قَطري بن الفجاءة يحمس الخوارج لقتال الشيعة والأمويين معاً.
- الفرزدق يهجو جريراً.
- جريرٌ يرد على الفرزدق.
- الأخطل يمدح بن عبد الملك .
- أبو حمزة الشاري يدافع عن أصحابه.
- الحجاج يهددُ أهلَ البصرة.
- غزل لعمر بن أبي ربيعة.
- غزل لابن الدمينة.
- غزل لجميل بثينة.
- زفرةُ شاعر يتطلع إلي الجهاد.

وتقرأ في الشرح والتعليق ، والتقديم لهذه النصوص بأقلام السادة المؤلفين ، ما يؤكد مضمون هذه النصوص ، ويبرز ملامحَها وإشارتها التاريخية، ونعرض فيما يلي نماذج لهذا التناول العجيب :

يطالعنا في ص ١٠٧ عنوان (الفتوح الإسلامية وأثرها) وتحت هذا العنوان نقرأ:(ما كاد العرب يتوحدون في ظل الراية الإسلامية. ويُقيمون دعائمَ دولتهم الناشئة ، حتى اتجهت أنظارهم إلى فتح الأقطار المجاورة لهم ، تلبيةً لداعي الجهاد في سبيل نشر الرسالة الإسلامية » كذا - وكأن الإسلام لم ينتشر إلا بهذه الفتوحات .

ثم نقرأ في الصفحة نفسها:« وقد كانت قوة العرب الحربية تُستنفد من قبل ، في قتال القبائل ، بعضِها بعضاً ، فلما وحدهم الإسلام ، وجمع كلمتَهم ، تجلت مقدرتُهم الحربية الرائعة ، فإذا هم في سرعة لا نظير لها في تاريخ الحروب. يكتسحون الأقطار المجاورة لهم» ثم يقول في نفس الصفحة أيضاً:« وكان لحركة الفتوح أثرُها في حياة العرب الاقتصادية والاجتماعية ، فقد كثرت موارد الدولة».

وهكذا يحدد أهداف الجهاد ، ويفسر أسباب هذا الصراع بين الإسلام والكفر، بأنه لصرف القبائل عن النزاع بين بعضها وبعض ، ولنهب موارد وثروات البلاد المفتوحة ، ولنشر الإسلام

ويطالعنا في رأس الصفحة ١٠٩ عنوان:« الأحزاب السياسية والعصبية القبلية» وتحت هذا العنوان نقرأ «في عهد الرسول العربي»(كذا) توحدت القبائل في دولة واحدة ، وكانت العصبية القبلية تفتت هذه الوحدة ، ولذلك وجه الإسلام همه إلى محاربتها ، ولكن لم يكن من الميسور القضاء عليها قضاء تاماً .. وأطلت العصبيةُ القبليةُ برأسها في الخلاف بين المهاجرين والأنصار ، على الخلافة بعد موت الرسول عليه السلام .. وظهرت ثانية في الصراع السياسي ، وفي التنافس على الخلافة بين الأسرتين الهاشمية والأموية بعد مقتل عثمان عام ٣٥ هـ . وتولى علي بن أبي طالب الخلافة ، وخرج عليه طائفة من أنصاره عرفوا بالخوارج .. وقُتل علي بيد أحدهم عام ٤٠هـ وبذلك تم الأمر لمعاوية ولآل بيته ، ولكن الأمر لم يصف لهم طوال مدة حكمهم ، بل

كثرت في عهدهم الثورات والاضطرابات - ومردّ ذلك إلى أمرين بارزين العصبية القبلية ، والأحزاب السياسية - وكان أبرز هذه الأحزاب : حزب بني أمية ، وحزب الشيعة وحزب الخوارج ، وأنصار عبد الله بن الزبير، وكان لكل حزب شعراؤه وخطباؤه الناطقون بلسانه.

تلك هي الخطوط البارزة في الحياة العامة لهذا العصر ، وسنقف على أثرها الجلي فيما نقدمه لك من نصوص العصر الإسلامي شعراً ونثراً».

انظر تلك هي الخطوط البارزة في الحياة العامة لهذا العصر، نزاعُ بين المهاجرين والأنصار، وردّة إلي القبلية ، وحزبية متصارعة ، وقتلٌ لخلفاء الرسول، ودهاءٌ ومكرٌ من معاوية ، وإفساد لنظام الحكم ، وما على المؤلفين بعد ذلك إلا حفر هذه الخطوط وتعميقها في وجدان أبنائنا اليافعين ، وفي أذهانهم عن طريق اختيار النصوص الأدبية التي تصور ذلك ، ودراستها وتحليلها وحفظها.

ولنقلّب بعضاً من صفحات هذا الكتاب، لنعرض نماذجَ تُبين عن الروح التي كُتب بها الكتاب ، وعن الأثر الذي يتركه في تلاميذنا.

في ص ١٢٣(الأخطل يمدح عبدَ الملك بن مروان ، ويُشيد ببني أمية ، فانظر كيف قدم الكتاب لأبيات الأخطل:«منذ وَلي الأمويون شئونَ الخلافة ، عملوا على اجتذاب الشعراء إليهم ، لكي يكونوا ألسنةً للدولة الأموية ، يؤيدون حكمها، ويدفعون عنها خصومَها السياسيين الطامحين إلى تولي الخلافة.

وقد استجاب لهم كثيرٌ من كبار الشعراء في هذا العصر ، فراحوا يمجدون الدولة الأموية ، ويدعون لها ، ويهاجمون خصومَها والمناوئين لسياستها، وكان الأخطل من أبرز الشعراء الذين وقفوا إلي جانب الأمويين يهاجم خصومَهم في عنف وشدة »

واسمع أيها التلميذ العزيز كيف بدأ شراء الأقلام والألسنة عند أجدادك، منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً.. ويعلق على الأبيات نفسها بقوله

في ص ١٢٧« وهذا النص يصور لك جانباً من جوانب الحياة السياسية في عصر بني أمية ، ولوناً من ألوان النضال السياسي بينهم وبين منافسيهم على تولي الخلافة »

وحين يعرض لقصيدة عبد الله بن قيس الرقيات يقول مقدماً لها في ص ١٢٩ (أوصى معاوية بأن تكون الخلافةُ بعده لابنه يزيد ، فلم يرضَ ذلك طائفةٌ من أشراف قريش ، فلما مات معاوية ، وولي الخلافةَ يزيدُ. امتنع عبدُ الله بن الزبير بمكة أن يبايعه ، وأنكر على الأمويين استئثارهم بالخلافة ، وشايعه أهل الحجاز ، وقوي حزبه، وكان بينه وبين الأمويين تنافس شديد».

وفي ص ١٣٢(نرى الكُميت بنُ زيد يمدح الهاشميين) ويقدم المؤلفون للأبيات بقولهم: « كان بين الأمويين وغيرهم من الأحزاب السياسية ، التي ترى أنها أحق من بني أمية بالخلافة صراعٌ ، وكان من أقوى هذه الأحزاب بنو هاشم ، الذين ناضلوا الأمويين نضالاً شديداً، واشتبكوا معهم في صراع سياسي ، وكان الكُميتُ أحدَ الشعراء الذين خاضوا المعركة السياسية مع بني هاشم منتصراً لهم ، مؤيداً حقّهم في طلب الخلافة ، غير مبال بما يناله من عسف الأمويين وأذاهم ، بل إنه ليحتسبُ كلّ ما يناله من أذى أجراً عند الله .. والأبيات من قصيدة طويلة ، تُعد من خير قصائد الكميت ، وأروعها في نصرة الهاشميين » انظروا أيها الأبناء : معركة سياسية ، وأحزاب ، وعسف، وإيذاء واستبداد !!! هذا تاريخكم !!!!

وفي ص ١٣٧ يزيد هذه الفكرة وضوحاً وتأكيداً ، حين يعلّق على القصيدة بقوله «وتصور لك القصيدة جانباً من الحياة السياسية في عصر بني أمية، ومن الصراع على الخلافة وتدلك على شيء من الحجج والبراهين التي يستند إليها الأمويون والهاشميون».

وفي ص ١٣٩ نرى قطريَّ بنَ الفُجاءة يدعو الخوارجَ للثبات والتضحية بالنفس ، في سبيل القضاء على الأمويين والشيعة .. ويقدم الكتابُ للأبيات بقوله:«انقسم الخوارجُ فرقاً متعددة ، وكان الأزارقةُ من أشد هذه الفرق استبسالا في قتال أعدائهم ، وتطرفاً في مذاهبهم ، وقوى أمرهم بعد موت يزيد بن معاوية» ، فيضيف هنا خطأ آخر إلى ملامح المجتمع السابقة.

وعندما يعرض لأبيات الفرزدق التي يسبُّ فيها جريراً ص ١٤٣ ، نراه يقدم لها بقوله :«من الظواهر الأدبية التي وضحت في عصر بني أمية المعركةُ الهجائية التي نشبت بين الشعراء ، وشُغل بها الناس ، وعلماءُ اللغة، وكان من أهم دوافع هذه المعركة التنافسُ الشخصي والقبلي ، والانتماءُ إلى الأحزاب السياسية المتصارعة ، وكان من أكثر الشعراء الذين خاضوا هذه المعركةَ الأخطلُ والفرزدقُ وجريرٌ » ، ثم يعلق على القصيدة مبيناً عواملَ ظهور النقائض ، فيقول في ص ١٤٥ « وغض بنو أميةَ أبصارَهم عن مثل هذا الهجاء .. حتى شاع هذا اللونُ من الشعر في العصر الأموي شيوعاً ، لا نجد له نظيراً في سائر عصور الأدب العربي ، ولم يعد الهجاء بيتين أو أبياتاً قليلة ، كما كان في الجاهلية ، بل أصبح قصائدَ طويلةً، تحتاج إلى ثقافةٍ واسعة بتاريخ القبائل العربية في الجاهلية» كذا !!! ازدهر الهجاء في أيام الإسلام ولم يكن في الجاهلية إلاأبياتاً قليلة . وانظر غض بنو أمية أبصارهم عن مثل هذا الهجاء» أي شجعوا ذلك إلهاءً للعامة حتى يُخلّوا بينهم ، وبين دنياهم.

وفي ص ١٧٥ نرى الإمامَ علياً يستنفر أصحابَه لقتال معاوية. وانظروا التقديم للخطبة :حدث في أعقاب مقتل عثمانَ خلافٌ بين علي ومعاويةَ بنِ أبي سفيانَ على الخلافة ، وكان معاوية يتطلع لها ، وكان له قوةٌ تؤيده وتناصره».

ولا ينسى الكتابُ أن يسمعنا نذير الحجاج ووعيدَه في خطبته بالبصرة ص ١٧٨:«إني أنذر ثم لا أنظر ، وأحذر ثم لا أعذر، وأتوعد ثم لا أعفوا ، والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد ، فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه»، وانظر تقديمه للخطبة :« ولي أمرَ العراق الحجاجُ بنُ يوسف الثقفي وكان والياً صارماً، فيه حزمٌ ، ولكن في عنف وصلابة، رأي أن القوم يتباطئون في إمداد المهلّب بن أبي صفرة، في قتاله للخوارج ، الذين كانوا قد أقضوا مضاجع بني أمية ، فقدم الكوفة عام ٧٥هـ وخطب خطبةً هدد فيها ، وبطش بنفرٍ من أهلها ، فأيقن القومُ أنه جاد في وعيده ، فتسارعوا إلى نصر المهلب ، ثم قدم البصرة فخطب فيها أيضاً

خطبة مماثلة ، ملأها بالتهديد والوعيد».

ولا ينسى أيضاً أن يسمعنا صوت أبي حمزةَ الشاري، يصف أصحابه ، ويفخر بهم على الأحزاب الأخرى ، وانظر كيف قدّم للخطبة ص ١٨٠ حيث يقول:«قوي أمر الخوارج في أواخر عصر بني أمية ، وظهر من رؤسائهم خارجيٌ عظم أمره وقد قدم مكة على رأس جيش من الخوارج سنة ١٢٩هـ وكان أصحابه يرفعون العمائم السود على رءوس الرماح ، فأفزعوا الناس ، وكره والى مكة من قبل الأمويين قتالهم في مكة، لحرمتها فأخلاها لهم ، ودخلوها بغير قتال وخطب فيها أبو حمزةَ خطبته ، وكان قد بلغه أن أهل مكة ينتقصون أصحابه ، ويعيبون عليهم..»

ولك أن تتصور معي عقلَ تلميذنا الناشىء عندما يقرأ ذلك (عمائم سود ، مرفوعة على رءوس الرماح) وأين ؟ في مكة المكرمة ؟ في بلد الله الحرام ، ومدينة تُخلى للغزاة من غير قتال فزعاً ورهبة . وأين ؟ وأية مدينة ؟ ومتى كان ؟ سنة ١٢٩هـ والإسلام غضٌ ولما يزل صوت النبوة في الأذان !!!

وحينما أراد أن يمجد شجاعة الغزاة الفاتحين (على ما في ذلك) وجدنا (الفارسَ الذي يتطلع للجهاد ص ١٢١) من فرسان الجاهلية ، وأدركه الإسلام ، ويحدثنا الكتاب عنه بأنه سِكيرٌ لم يرتدع عن الخمر بأمر الدين ، ولا بأمر الخليفة ، فيلجأ الخليفة إلى نفيه حتى لا يفسد في الأرض ، ويهربُ من منفاه ، ويحبسه قائد الجيش ، ويسجل ذلك في شعره ، ولا نجد « من شعر المغازي والفتوح» غيرَ أبيات أبي محجن « فارس الجاهلية والإسلام الذي لا يفيق من الخمر».

وليقل تلميذُنا ، وهو إذن على حق : لا يصح لنا أن نلوم كبيراً أو وزيراً على ما يفعل ، وعلى ما يأتي من سلوك ، ما دام يؤدي عمله الرسمي كما ينبغي ، ألم يفعل ذلك المجاهدون الأولون ؟ ؟

ألم يقع السادة المؤلفون على أبيات لمجاهدٍ يرى أن الجهادَ فريضةٌ ويقول :

إنه لا يبغي من جهاده غنماً ولا منزلة ، وأنه يجاهد حمايةً للدين من أعدائه؟؟

ثم ننتقل إلى غرض آخر من أغراض الشعر ، قد يبدو أنه بعيدٌ عن مثل ذلك الخبث المسموم ، وأعني بذلك (الغزل) ولكن نرى هنا عجباً، حيث يختار ثلاثةَ نصوص من الأربعةَ عشر من فن الغزل ، أليس في هذا ما يوحي بقيمة الغزل ، وبأنه كان شغل القوم الشاغل ؟ (إذ النسبة ١٤:٣) هذا من حيث الشكل والكم ، أما من حيث المضمون والمحتوى، فاسمع ما اختاره لعمر بن أبي ربيعة ص ١٤٨ حيث يصور قصةً غزلية من أشهر قصصه في ذلك كما يقول الكتاب ، جاء في هذه القصة الغزلية ، أن الفتيات الجميلات أرسلن إلى عمرَ من يحتال في إحضاره ، وجمعه بهن ، وعمرُ لا يعرف ، فلما كان ما كان ، صارحْنَه بأنهن أرسلنَ إليه ، ودبرنَ هذا اللقاء ، يقول عمر بن أبي ربيعة :

فلما تنازعنا الحديثَ قلنَ لي :
أخفتَ علينا ، أن نغر ونخدعا
فبالأمس أرسلنا بذلك خالداً
إليك ، وبينا له الشأنَ أجمعا
فما جئتنا إلا على وَفْق موعدٍ
على ملأ منا ، خرجنا له معاً
وقلنا : كريمٌ نال وصلَ كرائمٍ
فحق له في اليوم أن يتمتعا

ومن العجب العجاب أن يخلو الكتابُ من نموذجٍ واحد للغزل في الجاهلية، على ما كان في العصر الجاهلي من إسرافٍ في فن الغزل ، ويعترف المؤلفون أنفسهم عندما يتحدثون عن أغراض الشعر الجاهلي بشيوع الغزل ، ولكن لا يأتون منه بنموذج واحد، بينما يأتون بثلاثة نماذج من أربعةَ عشر في الأدب الإسلامي.

وهل شعر ابن أبي ربيعة هذا الذي رأيناه غزلٌ ، أم مغامرةُ فجور وفحش؟؟ ولتلميذنا المراهق ابن الخمسة عشر ربيعاً ، أن يقول في نفسه أو جهراً:«ما بالكم أيها الآباء والمعلمون ، تعيبون عصرنا؟ ما بالُ الناس يجزعون الآن حين يسمعون أن البنات يعاكسن البنين؟ لم يفزعون ويستغربون ويحوقلون ويستعيذون ؟ ألم يكن ذلك في الأرض المقدسة ؟ ولما تزل ريح النبوة تملأ بطاحها؟ ألم يحدث ذلك بين ظهراني الصحابة والتابعين؟؟ »

ومما يتصل بالغزل - وهو من أعجب العجب - أنهم يقولون ، عندما يتحدثون عن الغزل وشيوعه في العصر الجاهلي : «إن من دواعي شيوعه أن العربي الجاهليَّ ذو حس رقيق ، يدرك الجمال» أما في العصر الإسلامي ، فقد شاع الغزل في الحجاز « لأن أهله غُلبوا على أمرهم في السياسة ، فأغرقوا فشلهم في الغناء والغزل ، وهيأ لهم بنو أميةَ ذلك ، فأمدوهم بالمال حتى الثراء ، كي يشغلوهم عن منازعتهم »

أنضحك أم نبكي؟! يتغزل الجاهلي فيقال : ذو حسن مرهف ، وذوَاقة للجمال ، ويتغزل المسلم ، فيقال : يُغرق همّه وينسى فشله ، أو يُغررُ به ، ويُصرَف عن معالي الأمور إلى سفاسفها، وهكذا يُصبح الأمرُ الواحد مذمةً يوماً، ومدحاً وفضيلة يوماً آخر.

هكذا في كتاب واحد بمنهجين ومبدأين ، ولكن هدفٌ واحد تمجيدٌ للجاهلية، وتشويهٌ للإسلام ، فهو شيء واحد ، فكلما كانت الجاهليةُ أكثرَ نوراً وطهارةً ، كلما بدأ أثر الإسلام حائلا زائلا.

ومما يلفت النظرَ حماسةُ المؤلفين الواضحة ، التي تظهر على أطراف أقلامهم ، فلا يكتفون بالمحتوى والمضمون ، بل من آن لآخر تندُّ منهم كلمةٌ تكشف عن تحمسهم وإخلاصهم لهدفهم ، ففي ص ٩٣ يتحدثُ الكتاب عن التطور الذي أصاب أغراض الشعر ، فيقول عن الشعرالسياسي:« ولم يكن الجاهليون يعرفون هذا اللونَ من الشعر ، وذلك لارتباطه بنظام الدولة ، وقيام الأحزاب السياسية بين ظهراني هذه الدولة ، واصطراعها العنيف في سبيل الحكم، فكان لكل حزب سياسي شعراؤه الناطقون بلسانه».

انظر . هكذا « اصطراعها العنيف في سبيل الحكم» لا يكفي أن يقول تنافس ، ولا ترضيه لفظة(صراع) ولا حتى تصارع ، بل (اصطراع) ، ولا يشبعه ذلك بل يقول مؤكداً:« اصطراعها العنيف » ولا يترك موضوع الصراع، بل يَجْبَه به القارىءَ ويسجلُه عليهم «في سبيل الحكم» واسمعوا يا أبناء تاريخ أمتكم واعتزوا به !!!

ولا يقولن أحد : إنني ألتقط هذه الصورَ من بين ما في الكتاب وهو كثير، قد يبدو ذلك إلى جواره أمراً هيناً، أي أنه صوّر العصر بما له وهو كثير ، وبما عليه وهو قليل.

لا يقولَن أحدٌ ذلك ، فحاشا ، أن أصنع مثلَ صنيعهم .

إن عدد النماذج في الشعر الإسلامي في الكتاب ثلاثة عشر نموذجاً، لم نترك منها إلا ثلاثة: قصة كرمٍ للحطيئة ، وفيها حديثٌ عن سوء خلق الحطيئة ، وسوء بطل القصة ، وفقرٌ وجوع ، وإن صورت الكرم ، وقصيدة لحسان بن ثابت رضي الله عنه ، وفيها أيضاً صراع ونضال .. وهكذا على طول قرن ونصف تقريباً من يوم البعثة إلى يوم ذهبت بنو أمية، لا نرى إلا حروباً وصراعاً، وفتحاً وغزواً، ونزاعاً، وفرقا ، واتهاماً ودفاعاً، من يصدق هذا ؟؟ من يقول هذا ؟؟ مرة ثانية نصرخ : أتدبيرٌ هذا أم مصادفة ؟؟ أهي مصادفة أن نجلو تاريخ الجاهلية . ونُطهِّرَه ، ونقدمه لأبنائنا ، ثم نشوِّهَ تاريخ الإسلام بالاجتراء والتجهيل ونجرعه لتلاميذنا ؟؟ إنه تدبير أحكمت حلقاته من قبل ، ووقع فيه قادةُ الرأي والبحث والثقافة في بلادنا ، إلا من رحم ربك، وقليلٌ ما هم .

إن في شعر الجاهلية ما تحمرّ له الوجوه خجلا، وفي فُحش أدبها ما لا يُمكن أن يُقرأ . أو ينطقَ به . وفي حِكَمها وأمثالها ما يدل على لؤم الطبع، وخسة النفس ، (والأمثلة كثيرةٌ ، وحاضرة في الذهن ، ولا نثقل بإيرادها) بل نعف عن ذكرها، فلماذا يُضرَبُ عن ذلك صفحاً ؟؟ ولمَ يُنسى كل ذلك ؟؟ أينسى هذا أم يتناسى ؟ بحجة أن من حق أجدادنا عربِ الجاهلية أن نرفعَ صورتهم في إطارٍ من البهاء والجمال، ليزداد اعتزازُ الأبناء بهم(وقد لا

نعترض على هذا المنهج) ولكن ما يصيبُنا بالدّوار أنه يطبق على العصر الجاهلي وحده .

أما عند العصر الإسلامي فتدركهم روحُ العلم والأمانة العلمية والمنهج أو قل (المنهش)([٢])، فلابد أن يعرف التلميذُ كل شيء ، ويا ليتهم يكونون أوفياء للمنهج، بل يحجبونَ عن التلميذ أفضل ما في التاريخ الإسلامي ، ويعرضون عليه ما يريدون ، فهي عملية تشويه بالبتر والحجب ، والاجتزاء والتجهيل .

ولقائل أن يقول : وما ذنبُ واضعي المنهج ومؤلفي الكتاب ؟ أو ليست هذه حقائق ؟؟ أتنكر صحة هذه النصوص ؟؟ أتنكر نسبتها إلي أصحابها؟؟ أتنكر مدلوّلها التاريخي ؟؟ أنضع رأسنا في الرمال ؟؟

وحينئذ نرد سائلين : أهذه كل الحقائق ؟ أهذه كل الوقائع ؟ بل أهذا هو التفسير الوحيد لهذه الأحداث ؟ أليست هناك آراء في هذه المواقف ؟ ثم أهذه هي السن المناسبة لعرض هذه الحقائق ؟ وبفرض أن هذا تاريخٌ ، فما شأنكم أنتم يادارسي الأدب ومدرسيه ؟ أهذه وحدها هي النصوص الأدبية لهذا العصر؟ أئذا جمعنا كل أدب ذلك العصر لا نجد إلا هذه النصوص أو إلا هذه الأغراض؟

أمامي الآن كتبٌ مما كان يدّرس في مدارسنا قبل مطلع هذا القرن العشرين، وفيها هذه (النصوص) بعينها، ولكن -وبكل أسف- فيها نصوصٌ أخرى، تحمل ملامحَ وخطوطاً غير هذه ، لصورة هذا العصر المتهم.

فإذا قلنا: إن تلك الكتب كانت ، من عصر (دنلوب) الأصيل ، أو (الدنالبة الأتباع ، فما بالنا اليوم في عصر الوطنية الصحيحة) نقع على مثل هذه النصوص دون غيرها؟ أم أننا بعد أن فككنا أسرنا من قبضة

---

(٢) مع الاعتذار لأديب العربية عباس محمود العقاد ، فهو صاحب هذا التعبير (المنهش) حين كان يهزأ بهؤلاء الأدعياء ، الذين يشقشون بهذه الألفاظ الجوفاء ويتخذونها قناعاً لإخفاء جرائمهم.

(دنلوب) وقعنا في يد (قرامطة الفكر وتتار الثقافة).

إنها مؤامرة ، نسجت خيوطها وأحكمت ، منذ كتب الله على هذا البلد أن يتولى أمرَ ثقافته وتعليمه تلامذته المستشرقين ، والمستعمرين ، والمستغربين .. وحين بدا لنا أننا خرجنا من قيودهم كنا قد وقعنا في يد هؤلاء القرامطة الذين مدوا ألفَ ذراعٍ وذراع مطبقين على منابر الثقافة ومنابع الفكر.

والله وحده المستعان على كل بلية.

كيف يُشوَّهُ التاريخُ في أعين أبنائنا ؟ ؟(*)

دخل عليَّ ابني -وهو بعدُ لما يُكمل العاشرة من عمره- وفي عينه حيرة ، وفي قلبه رجفة، وفي يده كتاب التاريخ للصف الخامس الابتدائي ، وتساءل في مرارة : أبي:هل كان معاوية مسلماً؟ وهل كان عمرو بن العاص مسلماً؟ ولماذا قُتل عثمانُ بنُ عفان؟ وكيف؟ ومن قتله؟ وهل صحيح هذا الكلام؟ أليس هؤلاء من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ أليس هؤلاء من الذين دافعوا عن الرسول وحاربوا الكفار؟

ووجدتُ نفسي أمام مشاعرِ هذا الطفل الحائر واجماً تماماً. أقول : أمام مشاعره. نعم أمام مشاعره لا أمام أسئلته ؛ فقد كان الفزعُ يُطل من عينيه ، والحيرةُ تتغشاه !!!

ولم أستطع أن أداري ما اعتراني من ألم ووجوم ، مما جعل الطفل الصغير

(*) نشرت في مجلة الأزهر سنة ١٩٧٤م.

يشعر بالندم على ما سبب لأبيه من آلام ، فيدير الحديثَ ناحيةً أخرى ، ويتهيأ للانسحاب من أمامي ، مضيفاً إلى ما كان يعانيه من حيرة وقلق مشاعر الندم على ما سبب لأبيه من ألم ؛ ولكني تماسكت وناديته سائلاً: ماذا تريد؟ وعم تسأل؟ ..

وتناولت منه كتاب التاريخ ، وأخذت أقرأ من ص ٧٧ ؛ فطالعني بها هذا العنوان :(الفتنة وتوحيد صفوف المسلمين بعدها) .. ..

وبدأتُ أحاول بكل ما أوتيته من قدرة على الشرح ، وبكل ما عرفته من فنون التربية وعلم النفس ، وطرق التدريس .. .. حاولتُ بكل ما استطعت أن أبسط له هذه المعلومات ، وأقدمَها له ميسَّرةً معلَّلةً بطريقة لا تصدم شعورَه ، ولا تشوه الصورة الناصعة ، التي رسمها في ذهنه وقلبه لأولئك الأبطال .. .. ورحت أسهب ، وأطنب ، وأسبب وأعلل .. .. وانصرف المسكين من أمامي يتكلف الابتسام ، ويظهرُ الاقتناع بما قلتُه ، ولكن صفاء عيني الطفل لم تستطع أن تكتم ما يمور في داخله.

ورحت أنا أسأل : من المسئول عن تشويه تاريخنا بهذه الصورة؟ ومن وراء هذا العرض الممسوخ لتاريخ ديننا ؟

قد يكون ما في هذا الكتاب له ظل من الحقيقة، وقد يمكن التعويل على شيء من هذه المرويات .

ولكن لماذا الإصرارعلى إبراز هذه الزوايا دون غيرها؟ لماذا تُعطى هذه الجوانب أكبر من حجمها ؟ بل لماذا الإصرار على تعليمها لأولادنا في هذه السن المبكرة؟ وهم لما يقدروا بعد على إدراك البواعث والملابسات والموازنات، ولما يستطيعوا بعد السيطرةَ على انفعالاتهم .

نعم لماذا الإصرارعلى تعليم هذا لأطفالنا بهذا التفصيل؟

ثم لماذا يكون هذا الأسلوب في التاريخ الإسلامي وحده؟

نعم . لماذا يكون هذا الأسلوب في التاريخ الإسلامي وحده ؟ ؟!!

لقد درس ابني في العام السابق في الصف الرابع تاريخَ الفراعنة ، ورأى فيه صورةً من أضاءوا الدنيا ، وبدّدوا ظلامَها بحضارتهم وعلمهم وعزتهم وأمجادهم ، فظلَّ يتغنى بأحمس وأضرابه ، ويباهي بأنه من أصلٍ فرعوني!!

ألم يكن لدى الفراعنة فتنٌ؟ ألم تثر بينهم منازعاتٌ وإحن؟ فلماذا التاريخ الإسلامي وحده ؟ لماذا تاريخُ الفراعين يقدَّم لأبنائنا صافياً ناصعاً ؟ ولماذا تاريخُ الإسلام وحده يظهر مكدراً غائباً ؟

أهي صدفةٌ ؟ أم تدبيرٌ ؟!! إنه تدبيرٌ أحكمت حلقاته من قَبل. تدبيرٌ أحكمت حلقاتُه ، من يوم كُتب على هذا البلد أن يكون (القسيس دنلوب) مستشاراً لوزارة المعارف (التربية والتعليم)!! فقد شدَّدَ هذا المستشار قبضَته وطالت مدتُه ، حتى انطبعت بصماتُه وبقيت ظلالُه جاثمة. فزال ولما تزل آثارُه وفلسفته.

لقد كان وضع «دنلوب» مستشاراً لوزارة المعارف عن وعي وإدراك لمهمته، فقد عَلِم أساطينُ الاستعمار أنَّ قتل الشعوب بالرصاص يثيرها، ولكن قتلَها بتمزيق تاريخها، واجتثاث جذورها ، وتشكيكها في نفسها ومبادئها ، ونحو ذلك من الأساليب الماكرة التي لا تُطلق فيها رصاصةٌ ، ولا يُضرب فيها عصاً أو سوط ، أيسر وأسهل ، وفي الوقت نفسه أخطر .

وليس بعسير أن نستشهد بأقوال لكثيرٍ من دهاقين الاستعمار وقادته ، يصرحون فيها بأن التعليم ومناهجه من وسائلهم في قتل الشعوب ووأد مبادئها وعقائدها.

ولقد أدرك ذلك شاعرُ الهند الكبير «أكبر حسين» الملقب بلسان العصر؛ فقال بطريقته الساخرة اللاذعة ما ترجمته :« يالبَلادة فرعونَ الذي لم يصل تفكيرُه إلى تأسيس الكليات ، وإنشاء المدارس والمعاهد ، وقد كان ذلك أسهل طريقة لقتل الأولاد !! ولو فعل ذلك لم يلحقه العار ، وسوءُ الأحدوثة في التاريخ ».

ويقول الشاعر محمد إقبال «إن التعليم (يعني على الطريقة الغربية) هو الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي، ثم يكونها كما يشاء ، إن هذا

الحامض هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيمائية ، هو الذي يستطيع أن يحول جبلاً شامخاً إلى كومة من التراب ».

إن التعليم ليس عمليةً عشوائيةً تلقائية ، وليس مجرد معلوماتٍ وأفكار وآراء يُشحن بها ذهنُ التلميذ . ولكن التعليمَ في واقع الأمر يقوم على فلسفةٍ ومبادىءَ ذاتِ خُطوط واضحة بيِّنة، توضع المناهج، وتختارُ المعلومات ، وتنسق بحيث تعمِّق هذه الفلسفة ، وتقرر هذه المبادىء ، لا في الأذهان والعقول فحسب ، بل من قبلُ تجعلها تملأ القلوبَ وتسيطر على العواطف ، وتربي الاتجاهات ، وتخلق الاهتمامات التي تتفق مع هذه الفلسفة وتلك المبادىء.

فهل من فلسفة التعليم وأهدافه عندنا تشويه تاريخ الإسلام ورجاله ؟

إن من يطّلع على هذا الكتاب(التاريخ للصف الخامس الابتدائي) يعجب كيف كُتب وبأي روح ؟؟!!. ويكفي أن نضع أمام المسئولين الحقائق الآتية بكل إيجاز وبدون تعليق :

(١) عقد الفصل الثاني بعنوان (الخلفاء الراشدون والفتوحات الإسلامية) من صفحة ١٧١-١٩١، وبه صفحتان خرائط ، فجُملة ما كُتب في الفصل كله ١٨ صفحة، ولك أن تعجب معي حين تعلم أن الحديث عن الفتنة احتل خمسَ صفحاتٍ ، أي نحو الثلث !! أليس من حق التلميذ الصغير أن يفزع وينزعج، حين يرى ثلثَ عهد الخلفاء الراشدين فتناً وصراعاً !! وأي رشد إذاً ؟ ؟

(٢) في صفحة ١٧٧ سطر ١٢ يقول :« بويع -عليُّ بنُ أبي طالب- بالخلافة، لأنه ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وزوجُ ابنته فاطمة » كذا!! ويسأل التلميذ الصغير ببساطة: ألم يكن عليُّ بنُ أبي طالب ابنَ عمِّ الرسول ، وزوج ابنته يوم وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. ؟ ؟

(٣) في صفحة ١٨١ سطر ١٤ « وبذلك أصبح معاويةُ خليفةً للمسلمين»، واتحد العربُ تحت قيادته» ماهذا ؟ «اتحد العرُب» فأين المسلمون من الفرس في المشرق؟ ومن البربر في المغرب ؟ ؟

(٤) في صفحة ١٨٢ سطر ٢ « كان ضعفُ دولتي الفرس والروم في عصر الخلافة الرشيدة مُشجعاً للعرب على غزو بلادهما»!! كذا ؟ خلافة رشيدة ويشجعُها ضعفُ جيرانها على أن تغزوهم !! فأين الرشد ؟ ويعلّم هذا لأولادنا في الوقت الذي يتنادى فيه العالم بالدعوة إلى السلام ورعاية حقوق الضعفاء ، في هذا الوقت نفتري على الخلفاء الراشدين ونقول لأبنائنا :(إنهم استضعفوا جيرانهم فهجموا عليهم).

(٥) في صفحة ١٨٦ سطر ١٥ يقول وهو يتحدث عن سبب فتح مصر:«كما نبه عمرو بنُ العاص الخليفةَ إلى ثراء مصر ، وكثرةِ خيراتها» هكذا فتحٌ ونهبٌ ، حرب وسفك ، من أجل الثروة والخيرات !! وإني لأتساءل :من أين للمؤلف هذه المعلومات؟ أكشف عن نيات عمروٍ وعمرَ؟ أم استنتج ذلك من سيرتهما؟ أم وجده مسطوراً مصرحاً به مروياً عنهم في كتب التاريخ؟

بينما يغمز نيةَ عمرو وعمرَ هذه الغمزة ، يمر سريعاً على ما ثبت صراحةً ويقيناً من معاونة أهل مصر لعمرو وترحيبهم برجاله، وحسن استقبالهم للمسلمين(الدعاة) ولا أقول الفاتحين ، وإنقاذ عمرو وجنوده مصرَ وأهلَها من عسف الرومان وطغيانهم.

(٦) في صفحة ١٨٦ سطر ٦ وما بعده ، يذكر قصة عزل خالد بن الوليد بدون أن يقتضيها السياق ، بل يُقحمها إقحاماً، ويتركُنا في حيرة ، أهذا كتابٌ موجز من دروس التاريخ ، أم مطوّلٌ من مطولاته؟

(٧) في صفحة ١٧٤ سطر ٥ «اتسعت الدولةُ في عهده (يعني أبابكر رضي الله عنه) اتساعاً كبيراً على حساب دولتي الروم والفرس ».

انظر على حساب دولتي الروم والفرس ، واقرأ الصفحة كلها لترى أن العبارة مقحمة في السياق لا محل لها.

هذه مجرد نماذج من هذا الكتاب ، والكتاب موجود في كل يد مطبوع منه في هذا العام وحده أكثر من نصف مليون نسخة.

والكتاب أيضاً مجرد نموذج لما يدرس لأبنائنا ، فهناك مثله ، وأخطر منه

سنعود إلى كشفه في وقت قريب إن شاء الله.

وربما يقول قائل : ما ذنب المنهج والمؤلف ؟ وهذه هي حقائق التاريخ؟ وقد أقول: نعم ولكن تبقى أسئلة :

هل هذه هي الحقائق الوحيدة؟ وهل هذه هي السن المناسبة لدراستها ؟

وهل يتفق ذلك مع الفلسفة والمبادىء التي يقوم عليها التعليم والتربية في بلادنا ؟ هذا على فرض أنها حقائق.

ثم مرة ثانية لماذا تاريخ الإسلام وحده يكتب بهذه الصورة ؟ هل من سميع ؟

نظرات في التاريخ الإسلامي

محاضرة ألقيت بقاعة المحاضرات بمركز الدوحة الثقافي ، وذلك بدعوة من إدارة الثقافة والفنون بوزارة الإعلام والثقافة بدولة قطر ١١/٣/١٩٨٧م.

بسم الله الرحمن الرحيم ، باسم الله وحده ، ولا شيء معه دائماً وأبداً ، نحمده سبحانه وتعالى ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، وسيئآت أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتد. اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد ، وعليك توكلنا وإليك أنبنا ، وإليك المصير، اللهم إنا نعوذ بك من الخطأ والخطل والخلل والزلل وسيىء القول والعمل ، ونصلي ونسلم على صفوة خلقك سيدنا محمد النبي الأمي، اللهم صل عليه وعلى آله ، ومن دعا بدعوته ، واهتدى بهديه، وعمل بسنته، إلى يوم الدين .. وبعد:

أحييكم بتحية الإسلام ، وتحية الإسلام السلام ، فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

منزلة التاريخ (*):

في الحقيقة حينما نتحدث عن التاريخ يجد الإنسان نفسه بين العديد من المسائل والقضايا ، فتاريخنا بعمقه، وبعرضه ، وبطوله ، يحتاج منا جهوداً متتابعة مخلصة لتحقيقه وتصحيحه. ونحاول الليلة إن شاء الله ، أن نلقي نظرات في جوانب هذا التاريخ ، فنرجو أن نكون موفقين فيما نقول .

ولكن قبل أن نبدأ الحديث لماذا لا نسأل أنفسنا قبل أن يسألنا غيرُنا . لماذا التاريخ ؟ قد يقول قائل : حدثونا عن الحاضر ، حدثونا عن المستقبل ، أتريدون أن نعيش في الماضي وننسى ما نحن فيه ، وننسى ما نحن مقبلون عليه ؟؟

في الواقع إن هذا السؤال قائم ، وهو مطروح للأسف ، وموجود ، يُلقي به البعض حينما نتحدث عن التاريخ ، وندعو إليه يقولون :.. التاريخ ..

(*) سيلاحظ القارىء أن أسلوب هذه المحاضرة أقرب إلى لغة الحديث منه إلى اللغة المكتوبة ، ذلك أنها كانت فعلاً كذلك ، فلم تكتب قبل إلقائها (اللهم إلا رءوس أقلام تمثل عناصرها الرئيسية) وما هو بين يدي القارىء الكريم الآن ، تفريغٌ من الشريط المسجل ، قامت به -إدارة الفنون- حين نَشْرِها ضمن الكتاب السنوي ، الذي يحوي مختارات من أعمال الموسم الثقافي .

وقد آثرت أن أتركها كما هي ، ولا أتدخل بإعادة صياغتها ، في ثوب اللغة المكتوبة ، فعذراً، ورجاءً ملاحظة ذلك عند القراءة.

التاريخ .. التاريخ .. ليس وراءكم إلا التاريخ ، يشغلكم الماضي فقط .. أين الحاضر؟ .. أين المستقبل ؟؟

في الواقع إن التاريخ ، حينما نتحدث عنه ، وحينما نتحدث حوله ، وحينما ندرسه ، وحينما نعيش فيه ، نحن لا نبتعد عن الحاضر ، فالتاريخ مرتبط بالحاضر، وثيق به ؛ فدراسة التاريخ هي في الواقع البداية الصحيحة لصناعة التاريخ ، من يحسن دراسة تاريخه ، يُحسن صناعة حاضره ومستقبله ، فنحن لا ندرس التاريخ من باب الترف الفكري ، أو لتزجية أوقات الفراغ ، أو للمتعة الذهنية ؛ ذلك أن الماضي والحاضر والمستقبل نقطٌ متتابعة على خط الزمن الدائم ، لا ثبات للماضي ولا للحاضر ولا للمستقبل. الحاضر سيصبح ماضياً والمستقبل سيصبح حاضراً، ثم بعدها يصبح ماضياً.

فالتاريخ مرتبط بالحاضر والمستقبل ؛ فهو بهذا علم الحاضر، وعلم المستقبل ، وأبداً ليس علمَ الماضي . وفي هذا يقول العلامة محب الدين الخطيب عليه رحمة الله:«لن تتجدد للمسلمين نهضةٌ إلا إذا عرفوا سلفهم علي حقيقته، واتخذوا منه قدوة لهم ، ولن يعرفوا سلفهم على حقيقته إلا بتطهير التاريخ الإسلامي مما ألصق به» حينما نقول تطهير التاريخ الإسلامي، نحن على وعي، بأننا لا نريد تاريخاً مناقبياً يتحدث عن المفاخر والأمجاد ، وإنما نريد دراسة التاريخ كلّه. دراسةَ التاريخ بكل مافيه وتحليله. ويقول أيضاً أستاذنا محب الدين الخطيب: « وقد أصبح من المفروض على كل من يستطيع تصحيحَ تاريخ صدر الإسلام أن يعتبر ذلك من أفضل العبادات، وأن يبادر له ، ويجتهد فيه ما استطاع ، إلى أن يكون أمام شباب المسلمين مثالٌ صالح من سلفهم ، يقتدون به ، ويجدّدون عهدَه، ويصلحون سيرتهم بصلاح سيرته.هذا المعنى نفسُه عبر عنه في عصرنا الحاضر، في أيامنا هذه ، المفكر المسلم الدكتور رشدي فكّار حينما قال :« إن غيبة التعرف الاستيعابي على الماضي هي أحد أضلاع المثلث الذي ينبغي أن نعرفه، أو أحد أعضاء المثلث الغائب في طريق نهضتنا ، وما نصبوا إليه من مستقبل» ويقول:« نحن حتى يومنا هذا لم نُخضِع دورتَنا الحضارية، وهي قوة الارتكاز التي ننطلق منها، لم نُخضعها لِعملية التاريخ ، ولا لفلسفة التاريخ ، بمعنى أنه كان من المفروض أن تعاد صياغة التاريخ

الحضاري لنا على مستوى علمي »وله في هذا كلام جيد نكتفي منه بهذا المعنى.

وإذا كان لنا -على غير ما أحب- أن نستشهد بأحد فلاسفة الغرب ، نجد «جوستاف لوبون» يقول:«في ماضي الأمم سرُّ حوادثها الحاضرة» فالتاريخ في الواقع ذاكرة الأمة . ولنا أن نتصور حينما يفقد الإنسان الذاكرة، والعياذ بالله ، نحن نعرف مريضا فقد الذاكرة، عندما تضيع منه ذاكرته يصبح طفلاً صغيراً يحتاج إلى من يعلمه. وأعرف رجلاً ، كان أستاذاً قديراً، والكثير ممن هنا يعرفونه ، أصيب بهذا المرض ، فكان مثالاً حياً لهذا ، نسأل الله له الشفاء، فقد صار طفلاً يحتاج إلى من يعلمه القراءة والكتابة. هكذا الأمم حينما يتشوش تاريخها ، ويضيع تاريخُها، تُسلم قيادها لغيرها. هذا يوجهها يساراً وهذا يوجهها يميناً. وهذا ما نحن فيه ، والعياذ بالله.

ومما يؤكد قيمة التاريخ أنه عقد ذات يوم مؤتمر عالمي لأساتذة التاريخ وخرجوا بقرار يقول :« إنه لو أمكن تأليف كتاب واحد منصف للتاريخ ، يدّرس في أنحاء العالم ، لما قامت أية حروب على الإطلاق .إن الحروب الطاحنة بين الدول توجد جذورُها في كتب التاريخ، والانتصارات والهزائم تُصنع أولاً في كتب التاريخ».وأظننا جميعاً على ذكر مما قرأناه، من حوالي أربع سنوات عن الأزمة التي قامت بين الصين واليابان ، حول تغيير بضعة أسطر في كتاب مدرسي ياباني . في الكتاب المدرسي أرادت اليابان أن تغير بضعة أسطر، فحدثت أزمة .. انظروا الوعي ، دولتان كبيرتان كل منهما على وعي بقيمة التاريخ ، هذه على وعي بأن هذه الأسطر القليلة ، والكلمات التي نعدها ضئيلة -لها أثر في صياغة العقول، وفي بناء الإنسان ، فأرادت أن تغيرها. والأخرى على البعد خارج الحدود، عينُها على كتب الدولة الأخرى!!

هذا في الواقع ينبغي أن يدلنا على قيمة التاريخ.

نجد في عالمنا نحن؟ نجد عجباً. منذ فترة قرأت خبراً عجيباً. يقول الخبر:« فرغ المستشرقون الروس في كلٍّ من موسكو ولينينجراد من إعداد أربعة

مجلدات ضخمة عن تاريخ دولة معينة، من الدول العربية[1]، من العصر الحجري حتى الوقت الحاضر». وأعلنت أكاديمية العلوم للاتحاد السوفيتي ، أنها قامت بهذا العمل بناء على طلبٍ تقدمت به هذه الدولة في أواسط السبعينات ، وسوف يكون الإصدار الأول الذي تجري طباعته حالياً باللغة الروسية ، ومن ثمَّ يترجم إلى اللغة الإنجليزية، ثم العربية !!

هذا مفهومنا نحن للتاريخ .دولة عربية تطلب من أكاديمية العلوم الروسية أن تضع لها تاريخها فمن أي منطلق ،وبأي مفهوم ، وعلى أية فلسفة سيكتبون لنا هذا التاريخ ؟؟ ناهيك عن أنهم لا يعرفون العربية ، فيكتبون لنا تاريخنا بالروسية ، ثم يترجمونه إلى الإنجليزية ، ثم منها يترجمونه لنا إلى العربية ، فهذا من البلاء الذي يجعلنا نستعيذ بالله.

يقول الشهيد سيد قطب –رحمه الله– :«إن هناك أكثر من داعٍ إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي :لمصلحة الحقيقة، ولمصلحة العلم ، لخدمة العلم والحقيقة في ذاتها، ولمصلحة الأمة الإسلامية ، ،ولمصلحة العالم الإسلامي ، فالحقيقة وحدها تحتم علينا أن نعيد كتابة التاريخ الإسلامي من زاوية أخرى، هذه واحدة ، والثانية أننا نحن الأمة الإسلامية إنما ننظر إلى أنفسنا ، وإلى سوانا بعدسة صنعتها أيد أجنبية عن عقيدتنا وتاريخنا. وليس من مصلحة هذه الإنسانية أن ترى الحياة كلَّها من زاوية واحدة ، لا تكشف عن كل جوانبها، وأن تسودها فكرةٌ خاطئة عن ماضيها وحاضرها، وأن تجهل الدوافع الكامنة لسيرها».

من مظاهر تشويه التاريخ :

هذا عن أثر التاريخ وقيمة التاريخ ، ورداً على السؤال الذي يقول :لماذا التاريخ؟ ولكن قد يعرض سؤالٌ آخر هو : وما أدراك أن تاريخنا مشوه؟ ولماذا ؟ .. تاريخنا الآن يدرس ، يدرّسه أساتذة مسلمون ، ويكتبه علماء مسلمون ويدرّس في الجامعات، والمدارس ، والحمد لله في عددٍ من الحصص

(١) هذه الدولة هي اليمن الجنوبية ، أيام وقوعها تحت قهر النظام الماركسي ، ولم نشأ أن نصرح باسمها ليلة إلقاء المحاضرة ، رعاية للجهة الرسمية التي دعت إلى المحاضرة ، وحتى لا نسبب لها أي حرج أو مشكلة.

كافٍ وعدد من المحاضرات كافٍ، وآلاف من الكتب موجودة ، ومئات من المراجع في التاريخ معروضة.

من قال لك إنه مشوه ؟ ..

الحقيقة هذا أمر يطول شرحه ، ولا أستطيع أن أشرحه الآن ، ولكن سأعرض فقط لنماذج من اثار هذا التشويه، وأعرض لنماذج من أقوال بعض العلماء، وبعض الكتاب ، وبعض الأدباء، وبعض الصحفيين ، وأرجو أن يكون ذلك سريعاً:

أحد العلماء المعاصرين توفي رحمة الله عليه، وهو رجل فاضل ، فاضل في علمه وفي خلقه، ولا نزكي علي الله أحداً، هذا الرجل العالم من رجال الفكر المعاصرين([2])، في كتاب له عن مناهج الفكر الإسلامي ، يقول في هذا الكتاب بعد الافتتاحية مباشرة:« ولم يكن الإسلام ديناً مغلقاً ، بل سرعان ما انفتح العالم الإسلامي لكل داخل فيه، وسنرى بعدُ أحدَ خلفاء الأمويين يضيق صدرُه حين يسمع أن العدد الأكبر من المحدّثين والفقهاء المعاصرين له هم من أصول فارسية-وفي الأمويين روح جاهلية عمياء» أ.هـ بنصه. هكذا بلقاء!! يلقيها حكماً قاسياً. والذي يلفت النظر أن هذا ليس كتاب تاريخ، وليس كتاب سياسة ، وليس كتاباً يناقش الحكم ، ولا نظامَ الحكم ، لكنه كتابٌ في تاريخ الفكر ، ليس عن بني أمية.

ظهور هذه العبارة ، وانطلاقها ، وانفلاتها على سن القلم هكذا ، كطلقة المدفع القاتلة ، يدل على مدى حضورها في الذهن ، وعلى مدى سيطرتها على فكر صاحبها .. هو لايكتب في التاريخ ، لكن مجرد ذكر خليفة أموي أجج النار في قلبه ، فانطلقت كقذيفة المدفع وهو عالم جليل ، فما بالنا بغيره .. وانظروا الكلمة: جاهلية .. عمياء .. ، وصياغة العبارة وما فيها من تقديم وتأخير ، كل هذا يشهد بما هي مشحونة به من عواطف البغض والكراهية.

أيضاً قال أحد العلماء الأفاضل الأجلاء ، وقد سجل هذا في أحد كتبه ، وهو أيضاً رجل فاضل ، لا نعيب عليه لا في خلق ، ولا في دين ، ولا في

---

(٢) هو العالم الجليل الدكتور علي سامي النشار عليه رحمة الله ورضوانه، والكتاب المشار إليه، هو كتابه القيم (مناهج البحث عند مفكري الإسلام ص ٢)

حرارة إيمان، ولا في خوف على هذه الأمة[٣]، بل هو ممن يعيشون لنهضتها وحضارتها ، ولكنه مع ذلك تفلت منه الكلمة، فيقول :« وعندي أن مصرع الخلافة الإسلامية يجب أن يسجل في التاريخ على أنه جريمة انتحار ، لا جريمة قتل ، فالمسلمون هم صانعو الهزيمة التي نزلت بهم سواء كان في هذا القرن ، أو في القرون الوسطى».

وهكذا يبرىء ساحة الأعداء ، ساحة الغرب ، وساحة الفرس ودسائسهم، وساحة الرومان وجرائمهم .. هكذا ينسى ، أو في الحقيقة لا يعلم ، كم قدّمت أمتنا من شهداء ، وكم خاضت من معارك ، حقاً تعرضت أمتنا في تاريخها لهزائم فمثلاً نحن أُخرجنا من الأندلس ، ولكن بعد أن غسلناها بدماء الشهداء ، وخضنا بها معارك لو دُرِّست لأبنائنا علي حقيقتها ، لعرفنا كيف يكون الجهاد ، ولو أنها معارك انتهت بالهزيمة .. إنما هي شرف لهؤلاء الأجداد الذين نهوّن من شأنهم ونصمهم بما نصمهم به من العجز والفشل.ولو أحسنا دراسة تاريخنا في الأندلس ، لنشأت الأجيال التي تعرف كيف تستعيد مجد الأجداد ، وتثأر للآباء ، أما الإزراء ، والسخرية ، والاستهانة بما قدمه أسلافنا العظام ، والتحقير من شأن جهادهم ، والتهوين من صمودهم ونضالهم. فهذا هو الداء الوبيل ، الذي استشرى في أبنائنا، فكان ما نحن فيه !!

إن معاركنا مع«التتار» و«الصليبيين» لم تدرس إلا من المنظور الغربي ، ولو درّست على حقيقتها ، لقلنا إن ذهاب الخلافة جريمةُ قتلٍ مع سبق الإصرار ، تواطأت فيها همجيةُ التتار ، وعصبيةُ الصليبيين. ولكن في الواقع ، أيضاً ، مع هذا ، نحن لا نخلي أنفسنا من اللوم. فإذا كان هناك فعل فأيضاً قبول الفعل علينا نحن .

وأظن أن من أخطر الكتب التي ظهرت في هذا العصر كتاب (الإسلام ونظام الحكم) خرج صاحبه على إجماع المسلمين ، وهو كتاب مشهور.نجد أن وراء هذا الفكر الذي أملى الكتابَ على صاحبه، سوءُ دراسته للتاريخ، فيقول:«لولا أن نرتكب شططاً في القول ، لعرضنا على القارىء سلسلة الخلافة إلى وقتنا هذا-وطبعاً الكتاب ضد الخلافة - لعرضنا على القارىء

(٣) هو الداعية المعروف فضيلة الشيخ محمد الغزالي ، وكتبه-وبخاصة الأخيرة- مشحونة بمثل هذه الآراء ، بل بما هو أخطر من ذلك في هذا الباب.

سلسلةَ الخلافة إلي وقتنا هذا ، لنرى على كل حلقة من حلقاتها طابعَ الغلبة والقهر»هكذا .. كل سلسلة الخلافة عندنا علي حلقاتها طابع الغلبة والقهر.. ولا ندري كيف عاشت الخلافة هذه القرون المتطاولة ، وفيها من الظلم مافيها. فهو طبعاً لا يعي من تاريخ أمتنا إلا غلبةَ الخلفاء، وإلا قهر الخلفاء للأمة الإسلامية. ومن هنا أباح لنفسه أن يهاجم مبدأ الخلافة.

مثال آخر : نرى أحد الأدباء[٤] يؤلف مسرحية عن «جميلة بوحريد»، المجاهدة الجزائرية ، وهي مسرحية شعرية ، والمسرحية رائعة، من حيث إنها مسرحية شعرية جيدة ، وكان لها صدى في وقتها. هذا الأديب يُجري على لسان إحدى المجاهدات الجزائريات كلاماً، حينما عذبها الفرنسيون في السجن، واشتد بها العذاب ، ماذا قالت؟ على لسانها . يقول :« يا ويلتاه!! منذ عهد بني أمية لم تحدث مثل هذه الجرائم» هكذا !! -تتحدث عن جرائم الفرنسيين أم جرائم الأمويين ..؟ إذا كانت هذه الجرائم لا تصل إلي جرائم الأمويين ، فأنت تغفر للفرنسيين بالطبيعة، يعني تلقائياً، إذ كنا صنعنا بأنفسنا في قرننا الأول -الذي هو خير القرون كما قال صلي الله عليه وسلم- أكثر مما فعله الفرنسيون بنا فما الغريب إذا؟ وهذا أثر دراسة التاريخ المشوه في أعماقنا.

وآخر البدع إحدى الصحف ، منذ سنتين أو ثلاث تقريباً، صحيفة عربية واسعة الانتشار(٥)، نشرت في الصفحة الأخيرة عنواناً غريباً يقول :«هارون الرشيد يعيش في إيطاليا» انظروا ماذا تحت العنوان .. صورة لمخرج ومنتج سينمائي إيطالي ، وأمامه بعض الفتيات من الوجوه الجديدة الراغبات في العمل في السينما وهو يقلبهن ، كما يقلب النخاس العبيد ، يتفرج عليهن ويستعرضهن ، ويبحث بينهن من تصلح ومن لا تصلح للسينما. ماعلاقة هذا بالعنوان؟ كأن المحرر يقول لك بهذه العبارة التي كتبت تحتها-أي

---

(٤) هوالكاتب الشاعر الروائي عبد الرحمن الشرقاوي ، وهو أيضاً الماركسي الخطير، الذي استخدم قلمه في حملة شرسة ضد الإسلام ، تستتر فيها بما سمي كتابات الشرقاوي الإسلامية ، ولم تكن إلا قناعاً اختفى وراءه ، وهو يفرغ حقده الخبيث ضد الإسلام وتاريخ الإسلام ، زاعماً أنه (يغني لمجد الإسلام)كما قال عنه قبيلُه من (الرفاق الحمر)

(٥) هي صحيفة الوطن الكويتية ، العدد ٢٣٩٢ في ١٤٠١/١١/٧هـ الموافق ١٩٨١/٩/٦م.

الصورة- «هكذا . يعيش هذا المخرج السينمائي بين النساء . كهارون الرشيد في عصره». والصحيفة لها أثرها ولها خطرها.الصورة بثتها وكالات الأنباء العالمية ، فلما وضعها أمامه المحرر وهو يهيئها للنشر ، وثب إلى ذهنه من مذخور ثقافته الصورة التي استقرت لديه عن هارون الرشيد، فكتب ما كتب .

ومن هذا ، في الواقع ، نماذج كثيرة جداً تجعلنا نؤكد أن تاريخنا دُرس دراسة خطيرة ، تكاد تُضيّع فعلاً عقولنا وأذهاننا ، وتبدد خطواتنا.

وإذا كان لنا من نظرات تدقيقية أو تحقيقة في التاريخ ، فلست أدري إلى أيها ننظر الآن وأيها ندع ، وأمامي في الحقيقة أشياء كثيرة تحتاج إلي مراجعات. وأطرح هذه الموضوعات ، ففيكم من العلماء الشباب ، ومن شباب العلماء من له في هذا إن شاء الله دورٌ .

مسائل تحتاج إلى دراسة :

مثلا نأخذ يوم السقيفة واختيار أبي بكر ، ومن امتنع ، ومن لم يمتنع ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيعة. لازال هذا الموضوع يكتب فيه الكاتبون ويلغ فيه الوالغون ولم يبحث بعد .

التهمة التي ألقيت على الخليفة الثالث- ذي النورين- عثمان بن عفان رضي الله عنه: أنه كان يميل لبني أمية - صاحب واسطة بلغة العصر- وأنه كان مرفهاً منعماً، وأنه أخذ أموال الدولة.

(كنت من سنوات بدأت هذا البحث ، لكنني شُغلت عنه) والبحث سهل ، لكنه يحتاج إلى وقت وإلى جهد، يقوم على قراءة مراجع التاريخ الأولى ، واستعراض أسماء من ولاهم عثمان بن عفان -نستعرض كل الأسماء ، ونُجري دراسة عن أنسابهم ، لنرى هل فعلاً كانوا جميعاً من الأمويين ، وما النسبة التي كانت منهم من الأمويين ، وهل هذه النسبة هي نفس النسبة التي كانت موجودة في أيام عمر، وأيام أبي بكر الصديق-رضي الله عنهما- وتبين لي، بمجرد الملاحظة وأنا لم أنته من البحث بعد، أن هذه فرية ، والواقع يكذبها. وقالوا إن عثمان عزل كثيراً من الولاة وولى مكانهم

-غِلْمة- باللفظ هذا مكتوب -غِلمة- من صبيان بني أمية ، لا صلاح لهم ولا كفاءة عندهم إلا القرابة من الخليفة . هذه الأحكام الجائرة الفظيعة ، هذه موجودة. وعند التدقيق سنرى أن هذا عقلاً غيرُ مقبول ، وواقعاً غيرُ صادق ، ولكن للأسف نحن ما زلنا ننقل أحكامنا في التاريخ عن غيرنا.يقولون أيضاً: إن عثمان كان ليناً وكان ضعيفاً، وكان هذا سببَ الفشل المزعوم الذي نسبوه إليه. وأقرأ فأجد مواقف رائعة لعثمان بن عفان: استدعاء للولاة والقواد من أقاصي البلاد، ومحاسباتٌ شديدة، لا إخالها تقل عن عمر في شدته ودقته، لكن هكذا تطلق الأحكام الجائرة«عثمان كان لينا ضعيفاً».

الفتوحات والأموال التي جاءت من الفتوحات ، وكيف غرق المسلمون -كما قال أحد الباحثين- كيف غرق المسلمون في الترف والجواري والغناء، بعد الفتوحات ،كأن المعني بإيجاز أن المسلمين فتحوا البلاد ، وأخذوا ذهبها ونساءها وغرقوا فيه ، وانتهى الأمر.

في أربعين سنة انتهى المسلمون ، وانتهى الإسلام -بعد ما انتهَوْا من الفتوحات، وفتحوا بلاد فارس والروم ، أخذوا الأموال ، والنساء ،وانتهى الأمر - هذا في الواقع تلخيص غريب ، ويحتاج إلى دراسة ، لنرى هل صحيح هذا الكلام أو غيرصحيح ؟ .. البلاد التي فتحت معروفة شبراً شبراً وجزءاً جزءاً ، ومعروف ما فتح عَنْوة ، وما فتح صلحاً، والغنائم معدودة ومحسوبة ، وما خص كل واحد .. كم جملاً .. وكم سيفاً .. وكم درهماً .. وكم كذا .. لماذا لا نحسبها؟ أبحاث في حاجة إلى إجراء وفي حاجة إلى دراسة.

ليت لنا من يقوم بهذا البحث ، سنرى فعلاً كم من القناطير من الذهب التي يزعمونها لا وجود له ، وكم مرة عفا المسلمون ، فلم يغنموا مالاً وردوه إلى أصحابه ،وكم مرة عفا المسلمون عن الأسرى من الأعداء فلم يسترقوا ولم يسبوا

نحن نتمنى أن يقوم أحد بهذا البحث ؟

قضية التحكيم من أكبر القضايا، أكبر أكذوبة في التاريخ وما زالت تتردد، ولا أدري لماذا لا تعالج..؟

قضية الرق والجواري في المجتمع الإسلامي ، قضية في حاجة إلي دراسة؟ بالصدفة كنت أبحث في كتاب ، من أشهر الكتب ، وأشهر المعاجم ، معجم البلدان لياقوت ، فوجدت في مقدمته أن ياقوتاً الحمويّ صاحب معجم البلدان ، وصاحب معجم الأدباء كان عبداً أعتقه سيدُه. سبحان الله العلي العظيم ، هذا العالم الجليل من أرقاء المسلمين، وبعد ذلك يقال : إن الإسلام هو الذي أذل الأرقاء ، وإن الغرب هو الذي حررهم. هذا العالم الجبار الذي نعيش ، نحن على علمه كان رقيقاً.

نريد دراسة عن الرق بين الإسلام والملل والفلسفات الأخرى ، قديماً وحديثاً، نريد دراسة تبين لنا الموقف الفكري من الرقيق، والنظرة إليه، عند هذه المذاهب والملل وعند الإسلام.

لقد كان أرسطو قمة الفكر الفلسفي يرى «أن الرقيق آلة وإن كان ذا روح، ويرى أن من الناس ، من يكونون عبيداً بطبيعتهم» وغير خاف عليكم المدينة الفاضلة لأفلاطون . وموقفه من الرقيق.. فما نظرة الإسلام إلى الرقيق؟

كما نريد من هذه الدراسة أن تتبع واقع الرقيق منذ فجر التاريخ ، وتوازن بين حال الرقيق في المجتمع الإسلامي ، وحاله في المجتمعات الأخرى ، وتبين الإصلاحات العظمى التي جاء بها الإسلام في مجال الرق وتحرير الأرقاء.

أما أن يقر في أذهان مثقفينا(ثمرة عصر التنوير) -أن الإسلام هو الذي أنشأ أسواق العبيد ، وأن أوربا هى التي حاربت تجارة الرقيق ، وحرّمت الاسترقاق . فهذا ضربٌ آخر من التزييف والتضليل الذي تعرضنا له.

الحقيقة أشياء أخرى كثيرة ومثلاً -المقولةالشائعة إن الدولة الأموية كانت دولة متعصبة للعرب ضد الموالي- وقرأت لأحد الباحثين المتشبثين كلمة غريبة يقول فيها:«إن الموالي ، حيث لم يجدوا لهم دوراً في القيادة ، وفي الحرب ، انكفئوا علي العلم ، ولذلك اهتم الموالي بالعلم..» هذه القسمة غير صادقة. يحضرني الآن أسماء كثيرة من قواد الحروب كانوا من الموالي في عصر بني أمية.. على سبيل المثال «دينار أبو المهاجر» من فاتحي إفريقية هذا كان من الموالي . على سبيل المثال أيضا « موسى بن نصير» كان من سبايا عين

التمر، من الموالي ، وهو وأبناؤه كانوا قواداً. ومن يبحث سيجد كثيراً من الموالي كانوا سادة وكانوا قواداً، وطارق بن زياد .. كانوا قادة .. حقائق أصبحت «كليشهات» نأخذها وننام عليها ونستريح.

أيضا الترف والبذخ في عهد هارون الرشيد .. خمر ونساء .. مسألة في حاجة إلى إعادة نظر .. وفي حاجة إلى إعادة دراسة ، لأن هذا العصر يجب أن يطهّر وأن يطهر صاحبه.

قضية سقوط بغداد وانهزام المسلمين .. وهل انهزم المسلمون حقاً ؟ هذه قضية لنا فيها كلام الليلة بإذن الله

دور الأتراك في التاريخ الإسلامي وبخاصة في التاريخ الحضاري ، كلنا نرجع إلى كشف الظنون لحاجي خليفة التركي ، ولكن لا تجد له ذاكراً شاكراً، على حين يحظى عمل (بروكلمان) بالثناء والذكر دائماً ، مع أن المختصين يعرفون تماماً فضلَ عمل حاجي خليفة التركي ، على عمل (بروكلمان) الألماني، ولكنها العقدة إياها.، وهناك كتاب كبير(شقائق النعمان)، من مجلدين ، في علماء الخلافة العثمانية .. هل صحيح الأتراك ، كما درسنا؟ قرأتُ لتوماس أرنولد «توماس أرنولد» لا يجامل يقول:« إن المسلمين حينما فتحوا القسنطينية ودخلوا كنيسة أيا صوفيا، وكان المسيحيون في صلاة يضرعون الى الله أن يرد عنهم هذا الجيش الزاحف ، فارتاع المصلون حينما فُتحت أبوابُ الكنيسة، فنادى محمد الفاتح : أكملوا وأتموا صلاتكم ، ووقف على باب الكنيسة وردّ الجنود ، قائلاً لهم : لا تدخلوا عليهم حتى يكملوا صلاتهم».. وكلام كثير عن تسامح الأتراك كتبه توماس أرنولد .. عن تسامح الأتراك وعظمة الأتراك في قيادة الدعوة الإسلامية ، نحن لا نذكر إلا أعمال جمال باشا في الشام وأنه قتل خمسين .. ستين .. فليكن جمال باشا مخطئاً ، ولا نريد أن نعفي أحداً من ثمرة عمله وخطئه ، لكن نريد أن نرى الصفحة كاملة .. لا نرى جانباً ونترك جانباً آخر.

المماليك ودور المماليك .. عصر المماليك ، عصر الموسوعات ، وأنا أقول لكل إخواننا .. المراجع التي نرجع إليها«كلها» وأرجو أن لا أكون مخطئاً في هذا التدقيق وفي هذا التأكيد بكلمة«كل». كلها ثمار عصر المماليك .. الكتب الكبرى كلها من ثمار عصر المماليك .. ويأتي المحاضرون الذين

يتصدرون في المحاضرات العامة ويؤكدون .. أن المماليك لا يعرفون إلا السيف .. ويقولون كان المسجد عند المماليك بناءً ضخماً فقد روحه .. من قال ..؟ مسجد السلطان حسن الذي يسمونه الهرم الإسلامي لعظمه وضخامته، في الواقع لا يسمّى مسجد السلطان ، إنما اسمه الذي سمي به يوم أنشيء ـ مدرسة السلطان حسن .. وندخله فنجد فيه فعلاً، مدرسة للطلاب الشافعية ، ومدرسة للطلاب الأحناف ، ومدرسة للطلاب المالكية، ومدرسة للطلاب الحنابلة. وفوق هذه المدارس مساكن للطلاب ، والأثر موجود ولا زال من عمل المماليك . أعظم المستشفيات كانت من عمل المماليك .. كيف نقول إن المماليك مجرد عسكريين فقط ..؟

الإسلام في الهند . نحن لا نعرف ، ولا يدّرس في كتبنا ولا في معاهدنا أن الهند ظلت طول التاريخ دولة إسلامية، يحكمها الإسلام .. علماء الهند، وما لهم من دور في الفكر الإسلامي ، هذا جانب معتم تماماً في ثقافتنا التاريخية؟

كيف أخرج المسلمون من الأندلس ، والمعارك التي خاضوها والصمود الرائع أمام الفرنجة والصليبية الحاقدة؟

وآخر البلايا والرزايا ما ندرسه دائماً من «أن نهضتنا الحديثة جاءت على طلقات مدافع نابليون».. أذكر حتى في كتب الأدب يقال .«ولما استيقظ الشرق على طلقات مدافع نابليون».. سبحان الله .. ، وهذا كلام يتكرر دائماً، وأصبح كأنه قانون علمي لا جدال فيه. نريد أن نراجع عصرنا في ذلك الوقت ، هل كنا فعلاً نتمخض ونستعد للقيام بنهضة قبل أن يجيء نابليون، أم أن نابليون هو الذي أيقظنا فعلاً ؟؟ يوماً بعد يوم تتجمع عندي وثائق وأدلة تثبت أن نابليون لم يكن هو سبب النهضة ، وإنما هو الذي أدى إلى انحراف النهضة ، هو الذي انحرف بالنهضة نحو الغرب ، وشتت الجهود، هذا موضوع ينبغي أن يعاد النظر فيه لكي تعرف الأمة أين تسير وكيف تسير .

الآن بعد ما بينا قيمة التاريخ وأكدنا أنه مشوه وبينا لمعاً ولمحات من هذه الموضوعات والقضايا التي ينبغي أن ندرسها ، أحب أن أقف أمام قضيتين ، وأسأل الله أن يوفقنا في عرضهما ، وألا أطيل عليكم في عرض القضيتين :

(أ)- قضية التحكيم :

إحدى القضيتين : القضية التي أشرنا إليها ، قضية التحكيم ، التحكيم بين علي ومعاوية رضي الله عنهما. هذه القضية تدّرس في تاريخنا، كما تعلمون هكذا:«في أثناء المعركة معركة صفين ، أوشكت جنود الإمام علي أن تحرز النصر. فقال معاوية لعمرو بن العاص:«فكّر في حيلة» فكّر عمرو في حيلة، فرفعوا المصاحف ، وقالوا : نُحكّم كتاب الله ، فقال الإمام علي لأصحابه : نستمر في الحرب لأن هذه خُدعة، فخالف جنود الإمام علي عن أمره، وقالوا: لا يسعنا أن يُرفع المصحف ، ولا نحتكم إلى المصحف، فتوقف القتال . وقالوا : عينوا حكماً من هنا وحكماً من هنا، فعينوا حكمين ، أبو موسى الأشعري ، وعمرو بن العاص. واجتمع الحكمان، وجاء وقت إعلان نتيجة التحكيم. وأذكر - وهذا تاريخ أيضاً- أن أستاذنا وهو يشرح لنا هذه النقطة يمثل طريقةَ عمرو بن العاص ، وطريقة أبي موسى الأشعري ، ويرسم بيده صورة أبي موسى الأشعري:رجل فاضل وقور ، وعمرو بن العاص يتخابث له في دهاء ومكر ، ويقول له : تقدم أنت ، فأنت صاحب سابقة ، وفضل ، ومنزلة، ويسكره بالمديح والثناء، ويرسم صورة غريبة عجيبة ، فيتقدم أبو موسى الأشعري ويصعد المنبر ، ويقول : إنني نزعت علياً كما نزعت سيفي هذا ، وينزل أبو موسى الأشعري ، فيصعد عمرو بن العاص ، فيقول : وأنا ثبّت معاوية كما ثبّتُّ سيفي هذا ، وينتهي الأمر. وتحدث الفوضى ، ويقول أبو موسى لعمرو بن العاص : ما على هذا اتفقنا ؟ فيقول له : أنت خَرِف ، ويقول الآخر : أنت كذا .. هذا موجود في كل كتب التاريخ . هذا الكلام ، في الحقيقة ، عند التدقيق نجد أنه يحمل في طياته آيات كذبه وافترائه.

الخطورة في هذا أنه يرسم صورة بشعة في أذهان أولادنا. كان بودي أن آتي بصفحة من كتاب الصف الخامس الابتدائي الذي يصور هذه المعركة ، وهذه القضية ، وكيف يقدم لطالب في الصف الخامس الابتدائي.

ذات يوم في بيتي سألني ، تلميذٌ صغير من أبنائنا في الصف الخامس الابتدائي قائلاً: هل كان عمرو بن العاص مسلماً؟ فلما ظهر الفزع في عينيّ تظاهر بالتشاغل عني ، محاولاً الانصراف ، فاستوقفته ، وأخذتُ بيده، فإذا بها كتابُ التاريخ . كان المسكين يقرأ في هذه النقطة، كيف أن عمرو بنَ

العاص صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكون خائناً بهذه الدرجة !! وكيف أن أبا موسى الأشعري، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقاضي قضاة المسلمين ، يكون مغفلاً بهذه الدرجة : كيف يكون هذا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وذات ليلة كان فيه خصومة بين جماعة ، وكنا نحن نُصلح بينهم ، فإذا بأحد الجالسين ، وكان ممن يساعد في الصلح ، يقول : ياجماعة لاتتعجبوا ولا تغضبوا، الصحابة تقاتلوا على الدنيا !! يقول هذا مُسوّغاً ومبرراً ماحدث من المتخاصمين ، من محاولات لأكل أموالٍ بالباطل. العجيب أن هذا الشخص الذي قال هذا الكلام من المتخصصين في تدريس الحديث .. لكن هكذا تفعل ثقافته التاريخية .. فقلت له: كيف تقول إن الصحابة تقاتلوا على الدنيا؟ فقال :« الله !! يعني هم كانوا في صفين وفي الجمل بيعملوا إيه».

هذا من دراسة التاريخ ، وتلخيصه بهذه الصورة.إذا أردنا أن ننظر لقضية التحكيم . في الواقع. وبأسلوب علمي ، نجد أن ممن تولى كِبرَ هذه القضية كتابُ (الإمامة والسياسة) المنسوب لابن قتيبة، وأيضاً هذه نقطة أخرى، هذا الكتاب لقيط ، لا يعرف له نسب . وقد حقق هذا العلامة محب الدين الخطيب ، وأثبت بأدلة قاطعة أنه ليس لابن قتيبة.ومع ذلك ، فهذا الكتاب ما زال مرجعاً بعد خمسين أو ستين سنة من تبيين محب الدين الخطيب أنه كتاب لقيط، مازال مرجعاً ، ونقرؤه ضمن مصادر كثيرٍ من الكتب الجادة ، لو أردنا أن نراجع قضية التحكيم ، ونعرضها على ميزان العقل ، والمنهج العلمي ، الهادىء الواضح، بدون انفعال ينبغي أن ننظر فيما يأتي :-

أولاً - مسألة رفع المصاحف هذه ، تجعلنا أمام عدة أسئلة :

- كيف كانت هذه المصاحف ؟ حجمها ؟ شكلها؟ طريقة تجليدها. صلاحيتها لأن ترفع على الرماح.
- كم كان عددها؟
- وهل كانت المصاحف في ذلك التاريخ متاحة لكل من يريد أن يتملك مصحفاً؟
- وهل كانت الكتابة شائعة ، بصورة تجعل عامة الجيش يحملون مصاحف

يرفعونها؟

- وعلى فرض إمكان ذلك ، فهل كان حال الجندي الخارج لميدان القتال تسمح له بأن يحمل المصحف معه؟؟

نحن نعلم أن عثمانَ بنَ عفانَ رضي الله عنه كتب مصاحف الأمصار الستة ، ومحا ما عداها، كما هو معروف. فعندما كُتبت هذه المصاحف الستة لم يكن غيرها في العالم. فلو قدّرنا الزمن بين كتابة مصاحف عثمان رضي الله عنه، وبين وقعة صفين التي زعموا أن المصاحف رفعت فيها، لو قدرنا هذا الزمن بنحو عشر سنين، فكم يكون عدد المصاحف التي كتبت ؟؟ مائة ، ألف ، ألفان .. كانت المصاحف تكتب باليد على الرّق(٦)، وكان الرّق نادراً غير ميسور، وكانت الكتابة في الناس قليلة غير شائعة لا يحسنها إلا أفراد. فكم عددُ المصاحف التي تكون قد كتبت في هذه المدة من الزمن ..؟ وأياً كان العدد ، وعلى فرض كثرته ، فهل كان المصحف الذي يكتب على الرق مجلداً بصورة تيسر حمله والانتقالَ به ؟ وعلى فرض ذلك ، فهل كان وزنه يسمح بحمله ورفعه على أسنة الرماح؟

ثم ما حاجة المحاربين إلى المصاحف ، وهم في الميدان على ظهور الخيل ، أو يقاتلون راجلين .. ؟ أسئلة تطرح نفسها وفي حاجة -لاشك- إلى جواب ، فهذه قضية تضع علامة استفهام كبرى ؟؟

ونتمنى على إخواننا دارسي تطور الكتابة وتاريخها وأدواتها، أن يبحثوا في طريقة التغليف والتجليد ، والكتابة في ذلك الوقت ، وهل كان ذلك ممكناً ؟ هذه قضية ، ولتكن قضية جانبية.

ثانيا - إذ جئنا إلى موضوع التحكيم من أساسه نجد إماماً مثل الإمام ابن العربي -رضي الله عنه- يقول : « وقد تحكّم الناسُ في التحكيم ، فقالوا فيه ما لايرضاه الله ، وإذا لحظتموه بعين المروءة ، دون الديانة ، رأيتم أنها سخافة حمل على سَطْرها في الكتب في الأكثر عدمُ الدين ، وفي الأقل ، جهل متين».ابن العربي مضت عليه قرون ، وكلامه هذا موجود. ولكن لماذا لا يُعرض حتى بصفته رأياً آخر في القضية ..؟ لماذا نختار الرأيَ

---

(٦) الرّق هو نوع من جلد الغزال ، يعالج بعد دباغه بطريقة خاصة ، تزيل ما عليه من شعر وفضلات، وتجعله صالحاً للكتابة.

الذي هو اتهام صريح للصحابة ، ونترك هذا الرأي.

يقول انظر: «بعين المروءة، دون الديانة»، كأن الأمر هنا لا يحتاج إلى حسٍّ وإلي عاطفة دينية ليرفض هذا الكلام ، بل المروءة تكفي. المروءة التي يمكن تفسيرها هنا بمعرفة طباع الناس، والمواقف التي كانوا فيها. أو يمكن تفسيرها بأنها العقل والفهم ، والذكاء الفطري. وأياً ما كان الأمر، فابن العربي لم يستنجد ، ولم يستثر المشاعرَ الدينية لرفض هذه الخرافات. فليس في حاجة إلى ذلك ، وهذا من دقته.«حمل على سَطْرها في الكتب شيئان: في الأكثر عدم الدين (وعدم الدين هذه تفسيرها طويل ومعروف) . وفي الأقل جهلٌ متين». لا أدري نحن نسطرها الآن في الكتب تحت أيٍّ منهما ؟؟

يقول ابن العربي أيضاً :« هذا كله كذبٌ صُراح ما جرى منه حرفٌ قط ، وإنما هو شيء أخبر عنه المبتدعةُ ووضعته التاريخيةُ للملوك ، فتوارثه أهل المجانه والجهارة بمعاصي الله» ورحم الله ابنَ العربي وغفر الله لنا وله ، مازلنا ، نحن للأسف، نصدِّر هذا الكلام ونروِّجه.

نريد إذن أن نخضع هذه الأخبار عن التحكيم ، أو هذه القصة التي ندرسها نحن ، إلى العقل والمنهج العلمي. أول شيء نسأل فيمّ حُكّم الحكمان ؟ ما الموضوع الذي كان الخلاف حوله. وطُلب من الحكمين الفصل فيه ؟ القضية كيف كانت ؟ الحكمان حكّما في ماذا ؟ هل حُكِّما في الخلافة؟ ومن هو الخليفة حتى يأتي عمرو ويقول أنا أثبت معاوية ، ويقول أبو موسى الأشعري أنا خلعت علياً. وهل كان معاوية خليفة ؟ نقطة لابد أن ننظر فيها وندقق فيها ، ما دمنا نبحث بحثاً علمياً دقيقاً.

القضية ، كما نعلم ، أن عليّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه، بويع بالخلافة بيعة صحيحة، وكان التقليد ، وكان العرف السائد ، وكان النظام ، أن الخليفة يُقرّ من حكام الولايات من يقر .. ويعزل من يعزل .. مثل العرف الدستوري الموجود الآن إذا تغير رئيس الدولة ، تعتبر الحكومة مستقيلة ، تعتبر الحكومة قد انتهت مدتها، وقد يختار نفسَ الحكومة ، وقد يغير .. إذاً تولى الإمام علي ، فأصبح حكامُ الأقاليم ومنهم معاوية كأنهم مستقيلون ، أو كأنهم معفَوْن من أعمالهم. الإمام عليّ أقر من أقر ، ولم يقرّ معاوية ولم يعزله، ولكن معاوية رضي الله عنه كان قد

أعلن أنه قَبْل البيعة ، لابد من بحث قضية عثمان، والقصاص من قتلة عثمان بن عفان. وسيدنا معاوية رضي الله عنه هنا ولي الدم ، فيرى أن دمَ الخليفة عثمان ابنِ عفان يجب أن يؤخذ به ، ويجب أن يُقتصّ من قتلته. فبدأ معاوية رضي الله عنه ينادي بأنه لابد من بحث قضية مقتل عثمان بن عفان، والقصاص من قتلته قبل البيعة. إذاً كان الخلاف هو هل البيعة قبل القصاص ، أم القصاص قبل البيعة ؟

وكان الإمام علي رضي الله عنه يرى أن الأمر ليس بهذه السهولة ، فقتلة عثمان كانوا جماعة غيرَ محصورة، ثم إن لهم أنصاراً، وراءهم رجالٌ وثوار ، وكان هناك من يحرضهم ، وهؤلاء كلهم كانوا جناة. ويحتاج القصاص أن يكون من كل هؤلاء ، فيحتاج الأمر إذاً إلى تروٍ وإلي بحث واستقصاء. ولم يكن الإمام علي رضي الله عنه بالذي يفرط في دم عثمان ، حاشاه. ولم يكن معاويةُ رضي الله عنه متمحلاً ، ولا متعللاً ، وهو يرفض الدخول في الطاعة قبل القصاص من قتلة عثمان. ولكن القضية وجهة نظر أياً كان .

وكان الخلاف بين علي ومعاوية ، في حقيقته، ليس حول الخلافة ، ومن هو أحق بها، وإنما هو بالتحديد كان حول أيهما أسبق .. البيعة والدخول في الطاعة أم القصاص من قتلة عثمان!

هذا هو موضوع الخلاف ، وهذه هي القضية التي طُلب من الحكمين أن يحكما فيها.

هذا هو موقف طرفي القضية القانوني ، على حد تعبير الأخ الكريم الدكتور محمد سليم العوا ، الموقف القانوني للطرفين . طرفي القضية ، الإمام علي كرم الله وجهه كان إمامَ المسلمين وخليفتهم وأمير المؤمنين بمقتضى البيعة. معاوية لم يكن والياً على الشام ، حيث لم يكن قد أقره الإمام علي ، كما قلنا، ففقد مركزه الرسمي وإن لم يفقد مكانه الفعلي ، الواقعي ، وفي الوقت نفسه كان وليّ دم عثمان ، المطالبَ الشرعي بالقصاص من قتلته، يقود جماعة معه مناوئين، فقد اقتنع برأيه جمعٌ من أهل الشام ، وناصروه بصفته وليٍّ دم عثمان، الذي قتل مظلوماً ، ومن حقه أن يجاب إلي طلبه، قبل أن يُبايع ، ويدخل في الطاعة.

إذا هذا موقف الحكمين ، وهذه هي القضية. معاوية ليس خليفة، وليس

والياً بصفة رسمية، وإنما هو كان والياً، وإنما هو ثائر يريد من الإمام أن يحكم في قضيته قبل أي عمل. والإمامُ علي ، إمامُ المسلمين. هذا هو موقف الطرفين. القضية ليست الخلافَ حول شخص الخليفة ، فلم يكن معاوية أبداً حتى هذه اللحظة قد فكّر ، ولا أعلن ، ولا نادى بنفسه خليفة.

وبتعبير العلاّمة محب الدين الخطيب رحمه الله:« هذه نقطة المغالطة التي هزأ بها مؤرخو الإفك المفترى ، فسخروا بجميع قرائهم ، وأوهموهم بأن هناك خليفتين ، أو أميرين للمؤمنين ، وأن الاتفاق بين الحكمين كان على خلعهما معاً .. وهذا كله كذبٌ وافتراء».

إذا نظرنا لموضوع ولشخصية الحكمين ، فمن الحكمان؟ الحكمان هما أبو موسى الأشعري رضي الله عنه وأرضاه، هذا الرجل الذي له قدم صدق في الإسلام ، وله سبق، ولاه الرسول صلى الله عليه وسلم على عدن ، وكذلك ولاه عمر بن الخطاب ، وكذلك ولاه عثمان بن عفان على البصرة ، ثم على الكوفة ، وظل والياً عليها إلى أن قُتل عثمان رضي الله عنه ، وهو معروف بالتقوى ومعدود من الصحابة المفتين ، ومعدود من الصحابة الرواة، ومعدود في هذا الباب مع علي بن أبي طالب وعمر وأم سلمة ، وكان ممن حفظ القرآن وعلّمه. وقد اختصه عمرُ بكتابه الخالد في القضاء وآدابه، الذي أدار عليه ابنُ القيم كتابَه:«إعلام الموقعين» تقريباً، اختصه بهذا الكتاب عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه. هذا القاضي الذي من شأنه أن يكون ذكياً حصيفاً لا يخدع من المتقاضين ، ولا من المتهمين ، ولا من الشهود ، هذا هو أحد الحكمين.

الحكم الثاني هو عمرو بن العاص رضي الله عنه ، كان من أحب الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، انظروا هذا الصحابي الطاهر الجليل الذي يقول :« صحبتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ملأت عيني منه إجلالاً وهيبة له. ولو قيل لي صفه ما قدرت على أن أصفه».

هذا الرجل الذي قال له النبي صلى الله عليه وسلم وقد حضرت الرسولَ صلي الله عليه وسلم قضيةٌ «اقض ياعمرو» يطلب منه الرسول صلي الله عليه وسلم أن يقضي في قضية بحضره ، فيقول للرسول صلى الله عليه وسلم:« أأقضي وأنت موجود؟!» فبشره الرسول صلى الله عليه وسلم، بأن

له أجرين إن أصاب ، وأجر إن أخطأ.أمثل هذا يُتهم في دينه، ويتاجر بمسألة التحكيم؟!!

هذان هما الحكمان !! وهذه هي القضية !!

كيف يقال إذاً : إنهما حكما بخلع علي ومعاوية ، أي كيف يحكمان في أمر لم يُعرض عليهما أصلاً ، ألا يشهد ذلك صراحةً باختلاق ذلك الكلام الذي زعموا أن عمرا وأبا موسى قالاه على المنبر وبالتالي ، تسقط هذه الرواية المشهورة من أصلها، وتنهدم على رأس أصحابها.

ولعل أبلغَ دليلٍ على اختلاق هذه الصورة المسرحية الساخرة، التي تزري بصاحبين جليلين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم -هو ما جاء في ديوان الشاعر ذي الرّمة من مدحٍ لحفيد أبي موسى الأشعري (بلال بن أبي بردة بن أبي موسى) ، فقد سجل ذو الرّمة موقف أبي موسى في قضية التحكيم ، وجعله من مفاخره ، ومآثره، ومناقبه ، التي يُمدح بها، هو وأحفاده، قال ذو الرّمة:

أبوك تلافى الدينَ والناس بعدما ... تشاءوْا وبيتُ الدين منقطعُ الكِسَر
فشدّ إصارَ الدين أيام أذرح ... وردّ حروباً قد لقِحنَ إلى عُقر

تلافي الدين : تدارك الدين
تشاءَوْا : تباعدوا وتفرّقوا
الكِسَرُ: جانب البيت ، وبيتُ منقطع الكسر ، أي انهدم جانبه.
أذرح : اسم الموضع الذي اجتمع فيه الحكمان
لَقِحت الحرب : هاجت واشتد سعيرها، وأصلها من لقحت الناقة ونحوها إذا قبلت ماء الفحل ، فهي لاقح.

والمقصود هنا أنه ردّ هذه الحرب ، اللاقح ، وقطع أثرها وحولّها إلى عاقر.مقطوع أثرها مقضي عليها.فهو يمدح أبا موسى الأشعري ، بفضله وصدق رأيه ، في قضية التحكيم ، وأنه أنقذ الدين والناس ، من العداوة والتفرق ، وكبح جماح الحرب ، وردّ شرّها ، ودرأ خطرها .

فلو كان موقف أبي موسى يومها موقف بلاهة وفشل ، لكان عليه سبة وعاراً، ولسجّله عليه معاصروه ، وتناقلته الأجيال بعده، أما أن تتناقله الأجيال على أنه من مفاخره ، التي كتب الله له بها النجاح والسداد ، ويشيع ذلك حتى يسجله في شعره ذلك الشعر الفحل ، ذو الرّمة، فهذا يشهد -كما أسلفنا- باختلاق هذه الصورة الشوهاء، التي نجرعها لأبنائنا ، وللأسف نعيش عليها كأنها بديهية من البدهيات.

على أية حال أن نقدم تاريخنا ، في هذه القضية ، لأبنائنا بأن اثنين من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم أحدهما كان يبيع دينَه بحكم مصر ، والآخر كان بهذه الصورة من الغفلة، فأعتقد أن هذا مخالف للحقيقة ، ومخالف لطبيعة الرجلين ، ومجانبٌ لما هو موجود في كتب التاريخ ، وفي حاجة إلي أن يعاد النظر فيه، على الأقل ، ياإخواننا احتراماً للمنهج العلمي يجب أن نعرض الروايات والآراء المختلفة.

أما أن نأخذ رأياً واحداً خاطئاً ونعيش عليه، وتتربى عليه أجيال الأمة كلها فهذا لايقره لا الخلق ، ولا العلم، ولا الدين [٧]

(ب) المسلمون والتتار:

هذه القضية تدرس -كمانعلم- بالطريقة الآتية: جاء التتار كالإعصار المدمّر ، واجتاحوا المدن والأقاليم المشرقية، ولم يثبت أمامهم دفاع ، ولم يصمد أمامهم جند ، حتى وصلوا إلي بغداد ، التي لم تكن حاضرةَ الخلافة فقط ، بل عاصمة الدنيا كلّها آنذاك ، ولؤلؤة مدائن العالم كلها يومئذٍ، فدخلها التتار دخول العاصفة الهوجاء ، وخرّت بغداد راكعة بذل الهزيمة !!!

ثم يستمر الحديث بعد ذلك عن عوامل هذا الضعف الذي أودى ببغداد وأدّى بها إلى هذا المصير ، فتفيض الأحاديث عن ترف الخليفة المستعصم ، ويعمل الخيالُ عمله في وصف الخمريات والنسائيات ، والغناء ، والحرير والذهب ، والفساد والمؤامرات و ... و ... ثم يتجه الحديث إلى منحىً آخر،

---

(٧) ليست هذه دراسة لقضية التحكيم ، وإنما هي لمقط عرضٌ للقضية،وبيان أنها ليست بهذا التبسيط السخيف الذي تعلمناه، ثم هي بعد ذلك في حاجة إلى دراسة منهجية منصفة، بالمنهج العلمي الدقيق ، ونرجو أن يتاح لنا ذلك قريباً.

فيصفُ بشائعَ التتار ، وفظائعَهم ، وسخريتـهم من المسلمين ، وعبثـهم بضحاياهم ، ويعمل الخيال في ذلك أيضاً عمله ، فيخيل لقارىء التاريخ أن تلك كانت القارعة التي لا قيامة بعدها ، وأنها كانت جزاءً وفاقاً ، لما فعلته بغداد بنفسها، أو بما فعله المسلمون بنفسهم !!!

وإلى هنا يُسدل الستار ، وينتهي ما يسمى بالعصر العباسي .

وكأن المقصود تقريرُ هذا في الأذهان ، وتأكيدهُ في القلوب ، وتثبيته في الضمائر .

هزيمة بشعة قضت على دولة الإسلام ، وجاءت نتيجة طبيعية ، وثمرة منطقية لسلوك المسلمين ، ولحكم الإسلام ، والخلافة الإسلامية .

ولكن .. أهذه كل الحقائق ؟(بفرض صحة كل مايقال)
ثم لماذا نقف عند سقوط بغداد ، ولا تتزحزح قليلا؟
هل انتهت الدنيا ، ووقف الفلك عن الدوران منذ سقطت بغداد ؟

عفواً اسمحوا لي أن أتوجه إليكم بسؤال ، وليجب كلٌ منكم فيما بينه وبين نفسه : في سنة كم سقطت بغداد ؟(الجواب طبعاً في سنة ٦٥٦هـ)

وسؤالٌ آخر : في سنة كم كانت معركة عين جالوت ؟
(الجواب الصحيح سنة ٦٥٨هـ)
أي كانت عين جالوت بعد سقوط بغداد بنحو عامين فقط .

وبالمناسبة أيها السادة ، قد أجريت هذه التجربة -السؤال عن تاريخ سقوط بغداد وتاريخ عين جالوت والمسافة بينهما- فكانت النتيجة عجباً من العجب ، كان الخطأ في معرفة تاريخ سقوط بغداد قليلاً والتفاوت يسيراً ، أما العجب العاجب ، فكان في معرفة تاريخ عين جالوت ، والعلاقة بينها وبين سقوط بغداد، إذ تفاوتت الإجابات ، وتنافست في بشاعة الخطأ، فبلغت بالمسافة بين المعركتين ثلاثة قرون ونيفاً في حدها الأعلى ونحو خمسمائة سنة في حدّها الأدنى.

فلم هذا التمزيق لتاريخ الإسلام ؟ لم هذا الفصل البشع بين معركتين في حربٍ واحدة في فترة زمنية متصلةٍ واحدة؟ إن معركة بغداد ومعركة عين

جالوت معركتان، أو نقطتان على خطٍ واحد في الصراع بين الإسلام والتتار .

إن معركة عين جالوت لم تأت من فراغ ، وأبداً لم تكن منفصلة عن معركة بغداد ، والمدة الزمنية بينهما نحو عامين فقط ، ولم تكن هذه الفترة بين المعركتين فترة سكون وترقب ، أو فترة سلام ، أو مهادنة ، لا. بل كانت سلسلة معارك متصلة، جاءت معركة عين جالوت ثمرة طبيعية ، ونتيجة لها ، إذ كانت ضربة ثأرٍ قاصمة ، لم تقم للتتار بعدها قائمة.

لماذا إذاً هذا الفصل بين المعركتين ؟ وهما في واقع الأمر مرتبطتان تمام الارتباط، إذ هما عملان عسكريان في حربٍ واحدة !!!

فلماذا هذا التمزيق البشع لتاريخنا ؟ حتى إنه يندر أن تجد مثقفاً ، بل دارساً للتاريخ الإسلامي ، بل متخصصاً فيه - يدرك العلاقة بين عين جالوت، وسقوط بغداد !! ويعرف المسافة الزمنية بينهما.

لا يقولن قائل : إن هذه معركة عسكرية لها نتائجها ، وتلك معركة أخرى لها نتائجها، فلا مانع من دراسة كلٍّ منهما على حدة ، فهذا كلام لا يقول به عاقل .

هل يمكن أن تدّرس أمريكا ، وانجلترا ، وفرنسا ، لأبنائهم تاريخ الحرب العالمية الثانية ، والصراع مع المحور ، فتقف بالدرس عند (بيرل هاربر) و(دنكرك) وسقوط باريس تحت أقدام الألمان، ثم تطوي الأوراق ، لمناسبة أخرى تبين فيها كيف انتهت الحرب بانتصار كل من أمريكا وانجلترا وفرنسا، وتحطيم ألمانيا واليابان ، والثأر (لبيرل هاربر)و (دنكرك) و(سقوط باريس).

وإذا تجاوزنا هذا التمزيق ، فلماذا التهويل البالغ في جانب والتهوين الخانع في جانب آخر ، لماذا التهويل كل التهويل في قوة التتار ، والمبالغة في قوتهم القاهرة المدمّرة، ولماذا التهوين من شأن المسلمين، والمبالغة في ضعفهم وانهيارهم ، لماذا كل هذا ؟

مع أن الثابت أن المسلمين ، قد قاتلوا ، وصبروا ، وصابروا ، بل وانتصروا ، وردّوا التتار عن بغداد ، وأسروا منهم ، وسَبوا (انظر الجوهر الثمين في سير الخلفاء والسلاطين)،

انتصر المسلمون ، وردّوا التتار ، وكانت لهم الجولة الأولى ، على الرغم من أن الوزير ابن العلقمي الخائن ، كان قد احتال في تسريح الفرسان وإضعاف الجيش ، وكان قد كاتب التتار، واستدعاهم ، ودلّهم على عورة المدينة ، وهيأها لهم بتسريح الفرسان ، بدعوى التخفف من نفقاتهم ، ومع ذلك «انتصر المسلمون ، وعادوا مؤيدين منصورين، ومعهم الأسرى ، ورؤوس القتلى ، فنزلوا في خيامهم مطمئنين، بهروب العدو»(بنص عبارة ابن دقماق)

فماذا فعل الوزير الخائن ، الرافضي ، الذي دخل الكفر قلبه؟

« .. فأرسل الوزير في تلك الليلة جماعة من أصحابه بالليل ، فقطعوا شط دجلة ، فخرج ماؤها على عساكر بغداد وهم نائمون ، فما كان أحدهم يقوم إلا وهو يخوض في الوحل ، وغرقت خيولهمْ وأموالهم ، والسعيد منهم من لحق فرساً يركبها.

وكان الوزير قد أرسل إلى هولاكو ، وقال له :« ارجع علينا »، فرجعت عساكر التتار إلى ظاهر بغداد ، فلما أصبحوا دخلوها ، وبذلوا السيف في أهلها ..» (الجوهر الثمين :٧٨).

فلماذا التهويل هناك والتهوين هنا ؟؟

ولماذا تطوى هذه الصفحات ؟

ثم ماذا كان من الجانبين المسلمين والتتار ، بين بغداد وعين جالوت ؟

لقد استمر هولاكو في زحفه ، على مابقي من ديار الإسلام ، وأدرك كل صاحب بصر وبصيرة أن هذا الجيش الذي سكر بنشوة النصرْ (مهما كان رخيصاً) لن يتوقف، وأنه لابد زاحف إلى الشام ، وغير الشام .

تقدم هولاكو ، بخطة بارعة ، إذ جعله جيشه جناحين ، يتجه أحدهما إلى الشمال إلى (ميّا فارقين) و(ماردين) والجناح الآخر إلى الغرب حتى يكون كفكّي الكماشة.

كان الشام موزعاً بين عدة أمراء من البيت الأيوبي ، وكان أقوى هؤلاء الأمراء سلطان (حلب ودمشق) الناصر يوسف .

وكان الملك الأشرف على حصن (ميّا فارقين)، وأدرك أن القضية واحدة ، وأن إنقاذ (ميّا فارقين) هو في الوقت نفسه إنقاذٌ لدمشق وحلب ، وأدرك أن الوحدة تستطيع أن تصنع القوة التي تردّ سيل التتار ، وتهزم الجيش الذي لايُقهر ، وتكسر الذراع الطويلة.

يحكي ابن العبري في تاريخه: «أن الأشرف ذهب إلى الناصر لجمع الكلمة، فردّه، واستخف برأيه ، وسوّفه بكلام»انظر (الناصر) سوّفه بكلام!!

بل إن الناصر استمرأ السقوط ، فأرسل ابنه بالهدايا إلى هولاكو ، طالباً التحالف معه، وأن يساعده ضد باقي أمراء الشام ، على أن يساعده هولاكو في الاستيلاء على مصر.

اضطر الأشرف صاحب (ميّا فارقين) إلى أن يقف وحده مهما كان الثمن.

فكان حصار ، وكان إنذار ، وكان استبسال ، وكان استقتال ، وكان استشهاد .

نزل الأشرف بين جنوده ، وقال : أنا الآن كواحدٍ منكم ، وخلع شارة السلطنة وشعار الملك ، ونادى: هُبي ريح الجنة .. هُبي ريح الجنة .

واستمر الحصار مدة عامين كاملين ، و جيش التتار ، واقف حائرٌ صاغر أمام حصنٍ ، أمام مدينة من مدن المسلمين.

يقول صاحب النجوم الزاهرة : «وكان في الليل يخرج جنديان من جنود المسلمين اشتهرا بالرماية والجودة فيها، يتستران بالظلام والملابس السوداء يخرجان على جنود التتار ، فيقتلان منها ويصيبان ، حتى اشتد الفزع بالتتار، وأخذ منهم كل مأخذ ، وشاع فيهم أن الجن تقاتل مع المسلمين».

وبعد عامين من المصابرة والمثابرة ، والثبات أمام قوة التتار، ومن معهم من قوات أرمينية الصغرى ، من الصليبين ، بعد عامين كان الزاد قد نفد على طول ما دبروا فيه ، وكان الماء قد نفد على طول ما اقتصدوا فيه ، وانفتح الحصن ، فارتاع التتار ، إذ لم يجدوا به إلا الملك الأشرف ونفراً قليلاً من جنوده ، وكان الجميع قد سبقوهم إلى الجنة.

ومع ذلك لم يستسلم الملك الأشرف ، ولا من معه ، بل ظلّوا يقاتلون ،

هذا الجيش العرمرم ، وأغاظهم الملك الأشرف ، وهو يسخر منهم ، ويهددهم ويتوعدهم بجنود مثل جنود(ميّا فارقين) ومعارك مثل معركة (ميّا فارقين).

ولما وقع في أيديهم وهو يضحك منتصب القامة ، مرفوع الهامة ، مثلوا به أبشع تمثيل ، حيث قطعوا من جسده ، وأطعموه في فمه ، وأخيراً ، جزوا رأسه ، وطافوا بها بلاد الشام ليوزعوا الرعب والفزع.

أيها السادة : لماذا تطوى هذه الصفحة ؟ اسألوا معي عامة المثقفين ، بل خاصتهم : من منهم يعرف شيئاً عن (ميّا فارقين) بل ربما لن نجد من يعرف كيف ينطق هذا الاسم.

إن التاريخ لا يرحم ، ولا يحابي ، ونحن لا نريد أن نحابي أحداً ، فلن ينسى التاريخ أن الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ، تقاعس عن نصرة جيرانه، وحاول التحالف مع التتار ، وأنه فرّ منهزماً من حلب ، ثم من دمشق.

نحن لا نريد أن نحابي تاريخنا ، بل نريد الدراسة العلمية الجادة المنهجية الصادقة.

لماذا تطوى هذه الفترة بين سقوط بغداد ، وانتصار عين جالوت.

لماذا لا نذكر تحالف الصليبين مع التتار ، واتفاقهم مع يوهميند صاحب أنطاكية ، ومع هيتوم صاحب أرمينية ، واستغلال لوقوز خان زوجة هولاكو- وكانت مسيحية -في إذكاء الروح والحماسة الدينية ، وأن القساوسة ورجال الدين كانوا يباركون الجند بترانيمهم ، وتقبيل أسلحتهم وأوسمتهم ، ووضع الصليب على جباههم ورءوسهم .

لماذا يطوى كل هذا ؟!

أيها السادة الكرام : لم يكن حصن ميّا فارقين وحده الذي قدم الشهداء والضحايا طوال فترة السنتين بين سقوط بغداد وانتصار عين جالوت ، وإنما كانت معارك تضيء تاريخ أمتي ، وتشرق بها صفحات الآباء والأجداد . وسأوجز الحديث عن ذلك:

* حصن (ماردين) في الشمال بعد (ميّا فارقين) صمد نحو ثمانية أشهر حتى فنيت حاميته.
* حلب التي هرب عنها الناصر يوسف ؛ استماتت في القتال والدفاع حتى قدّمت خمسين ألف شهيد ، وسدّت الطرق بالجثث ، واستباحها هولاكو سبعة أيام ، فأحرق هيتوم ملك أرمينية مسجد حلب ، فردّت المدينة المستباحة بإحراق الكنيسة. التي كان أساقفتها يقاتلون مع التتار.
* كافأ هولاكو الصليبين ، فأعطاهم نصيباً من الغنائم ، وردّ إليهم الممتلكات التي كان حررها المسلمون.
* قلعة (حارم) (الآن في محافظة إدلب) قاتلت ، ثم لبت نداء السلام والصلح، وقبل هولاكو كل شروط الصلح ، ولكنه عاد فغدر بها وأبادها بالكامل .
* دمشق. سلّمت المدينة صُلحاً حفاظاً على تراثها ومجدها، ولكن أيضاً غدر بهم التتار .
* أما قلعة دمشق ، فلم تستسلم (أي استسلم المدنيون فقط أما العسكريون فأبَوْا) وقاتلت حتى فنيت الحاميةُ عن آخرها.
* نابلس جاهدت حتى فنيت حاميتها عن آخرها.
* هكذا -أيها السادة- لم يكن الطريق إلى عين جالوت سهلاً ولا لينا، وإن مئات الآلاف الذين استشهدوا في سبيل الله ربما لم يكن أمامهم بارقة أمل في النصر أو النجاة ، ولكنهم آثروا الشهادة ، ضرباً للمثل ، وإعذاراً إلى الله ، وتعليماً لمن يليهم.
* ولذا كان نصر عين جالوت حصاداً لهذا الجهاد كله.

أيها السادة : لا نريد أن نتحدث عن عين جالوت ، والدروس المستفادة منها، والظروف التي أحاطت بها ، والعوامل التي جعلت المسلمين يستحقون هذا النصر المؤزر من الله.

ليس هذا موضوعنا ، ولكن -فقط- نريد أن نقول: من الذي مزق تاريخنا بهذه الصورة ؟ ومن وراء هذا التشويه والتجهيل ؟ وإلى متى يظل ذلك ؟!

وعذراً مرة ثانية إذ أطلت عليكم .

من أسس المنهج الذي ندعو إليه :

وآخر ما نختتم به هو الدعوة إلى منهج لدراسة التاريخ ، يقوم على جمع الوثائق الأصلية ، جمعاً مستقصيا -قدر الطاقة- ثم تحقيق المخطوطات منها، ونشره نشراً علمياً منظماً ، مع الاهتمام بكل ما يتصل بهذه الوثائق من برديات وآثار ونحوها.

ثم العكوف على دراسة هذه الوثائق ، دراسة علمية ، ونقدها وتمحيصها ،ووزن الأخبار ، وبيان صحيحها من سقيمها.

ثم يأتي بعد ذلك ، دور التفسير والتحليل والتعليل ، وذلك لا يتم بعيداً عن فهم روح الإسلام ودعوته، والعوامل المؤثرة في الأحداث والدافعة إليها.

وهذه الدوافع هي التي يختلف المفسرون والباحثون في إدراكها وتقديرها.

ومن هنا كان لابد للناظر في تاريخ الإسلام ، لكي يكون نظره صائباً -أن يقف في مركز دائرة الإسلام وأن يفهم روحه ويدرك حقيقة هذا الدين الذي يكتب تاريخه.

وأخيراً أدعو رجال الفكر الإسلامي وكل العاملين في مجال الدعوة الإسلامية أن يتركوا الاستشهاد بالقرن الأول ، فكفاهم استشهاداً به، فالناس يعيّروننا دائماً بأننا لا نستشهد إلا بالقرن الأول ، وكأننا في الواقع نؤكد هذه المقولة التي تقول : إن الإسلام لم يطبق إلا في عشرات السنوات على أحسن تقدير.وتاريخنا منذ القرن الأول ، إلي ما نحن فيه ، إلي قرننا هذا ، مضيء مشرق والحمد لله، وفيه من الصفحات الناصعة ، ما لو عكفنا عليه، لجعلنا هؤلاء الذين يعيّروننا بأننا لا نستشهد إلا بالعمرين ابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز يطأطئون رؤوسهم وينحنون لهذا التاريخ إجلالاً وإكباراً.

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا دائماً لما يحب ويرضى ، وشكراً لكم وجزاكم الله خيراً على صبركم وحسن استماعكم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

نظرة جديدة على

الأربعة عشر قرناً الماضية (*)

جميل أن يحتفل المسلمون بمطلع القرن الخامس عشر الهجري ..ولكن كيف يحتفلون ؟ وعلى أي صورة يكون هذا الاحتفال ؟ ومن البدهي أن احتفالنا هذا لن يكون مهرجانات ، واجتماعات نتبادل فيها التهاني ، ونسبح في بحار السرور وتغمرنا موجات الحبور! لا . ليس هذا !! فمرور الأعوام والأيام والعصور والدهور والأزمان والقرون في ذاته لا يستحق سروراً ولا حبوراً، ولا يستوجب تهنئات ولا تبريكات ، بل ربما استوجب عكس ذلك. وإنما الذي يستوجب السرور والتهنئة هو ما حققه الإنسان في (الزمن) من مجد أو انتصار ، وما وفق إليه من خير وصلاح.

ومن هنا كان احتفال المسلمين بإطلالة القرن الخامس عشر نوعاً من المراجعة والمحاسبة ، ولوناً من التصحيح وضرباً من التخطيط .

نحن أمة ذات رسالة فماذا صنعنا تجاهها؟ نحن ورثة أمجاد فماذا فعلنا بها ؟ نحن أصحاب حضارة. فماذا أدينا نحوها؟ ومن قبل ومن بعد نحن ورثة محمد صلى الله عليه وسلم ، ترك فينا كتاب الله المعظم وسنتَه المشرفة . فكيف كان استمساكنا بكتاب الله وسنة نبيه؟

(*) نشرت في مجلة الدعوة القاهرية : العدد ٥٦ ، صفر سنة ١٤٠١هـ - ديسمبر ١٩٨٠م.

إن احتفال الأمة الإسلامية يجب أن يكون وقفة مراجعة ومحاسبة ، وأحسب أننا إذا صدقنا مع أنفسنا في هذه المحاسبة والمراجعة ، فلن يكون عندنا مجال للسرور والحبور، فالعبء ثقيل ، وماضاع منا كثير ، والطريق أمامنا وعرة ، وضع فيها أعداؤنا -وماأكثرهم- ركاماً فوق ركام حتى أضلونا عنها أو كادوا ..

طمسوا تاريخنا وشوهوه :

وحتى لا نستلهم العبرة ، ونأخذ الخبرة من تاريخنا ، وحتى لا نستلهم ماضينا وأمجادنا ، طمسوا تاريخنا وشوهوه. حتى نفقد النموذج الذي ننسج على منواله، وننفذ شريعة ربنا ونطبق قرآننا وسنتنا على غراره ، ولقد نجح أعداؤنا -للأسف- في هذا كل النجاح ، فصرنا نضرب بسيفهم ، ونتكلم بلسانهم ، وننطق بلغاتهم ، فحاكمنا تاريخنا كما أرادوا لنا- وجلدناه ، وشنقناه وصلبناه. وا أسفاه .

صورة التاريخ التي أرادها أعداؤنا :

وصرنا نرى عثمان بن عفان شيخاً صالحاً لكنه عاجز عن القيام بأعباء الحكم . ضعيف أمام أقاربه ورؤوس أقاربه ، فقصرَ الولايات عليهم ، وملكهم رقاب المسلمين مما أدى إلى الثورة عليه وقتله ، وأما الإمام علي كرم الله وجهه، فقد كان شديداً في الحق ، مستقيماً عليه ، ولكنه لم يكن خبيراً بالسياسة والحكم ، مما أدى إلى الفشل والهزيمة أمام معاوية.

أما معاوية ، فكان داهيةً أريبا ، اتخذ قميصَ عثمانَ ذريعة للوصول إلى الحكم، وجعل الخلافة مُلكاً عضوضاً ، أعاد به سطوةَ بني أمية وهيبتها ، وانتقم لما أصابها في بدر، والدولة الأموية كانت دولة عنصرية متعصبة للعنصر العربي، متعطشة لسفك الدماء ، مما أدى بها إلى السقوط ، حيث تحزب ضدّها الفرسُ خاصة، والأعاجم عامة فأسقطوها ، وأما الدولة العباسية، فقد اعترفت للفرس بفضلهم عليها، ثم نقلت عنهم أساليب الترف والنعيم ، والخمور والعطور، والغناء والنساء ، حتى سقطت ضحية هذا الانحلال ؛ ولم يسلم صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فقسمناهم أحزاباً ، وجعلنا

فيهم يميناً ويساراً .

بأيدينا صنعنا هذا ؛ أو بالتحديد أريد لنا أن نصنعه ، بأيدينا كتبنا هذا ثم قرأناه ، وعلّمناه أبناءنا.

أثر تشويه التاريخ :

ولما طمسنا تاريخناوجلدناه وصلبناه ، فقدنا القدوة ، والأسوة والنموذج ، فكان طبيعياً أن يتجه منا من يتجه صوب الشرق ، داعياً إلى اعتناق الشيوعية مذهباً، متخذاً دولها نموذجاً يُحتذى ويُقتدى به ، ومن يتجه نحو الغرب داعياً إلى اعتناق الرأسمالية مذهباً، متخذاً دولها نموذجاً يُحتذى ويُقتدى، ومن يتجه نحوالشمال داعياً إلى اعتناق (الليبرالية) مذهباً ، متخذاً دولها نموذجاً يُحتذى ويقتدى، ثم يقف الجميعُ أمامَ من يتجه إلى الإسلام داعياً إليه على غرار الأمويين ؟ على غرار العباسيين ؟ على غرار عهد هارون الرشيد ؟ على غرار عصر العثمانيين؟ قائلين: على أي نمط ؟ وأين النموذج الذي يُحتذى ويُقتدى؟

لابد من نظرة جديدة :

نعم لا بد من نظرة جديدة إلى القرون الأربعة عشر الماضية .. لا بد من نظرة جديدة إلى تاريخنا نمسح عنه ما أصابه من تشويه وتجهيل وَبَترٍ ، ونجلوه في صورته الصادقة ، نظاماً لم تر الدنيا مثله ، ولم تسعد البشرية ، إلا في ظله.

ومن حسن الحظ أن كل من له صلة بالتاريخ يردد الآن هذا النداء. فالذين كتبوا التاريخ الإسلامي مشوهاً مجرحاً ، هم أنفسهم يقرون أن عملهم ناقص، وأنهم في حاجة إلى مراجعته وإعادته.

وإذ ندعو إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي ، فنحن على يقين من أننا نكتب تاريخاً لبشر ، ليسوا معصومين بحال من الأحوال ، فنحن لا نريد أن نجامل تاريخنا، ولا نريد أن نضفي عليه هالة من القداسة ؛ فإن ذلك أيضاً

ضد الحقيقة، وربما كان فيه من الخطورة مثل مافي التشويه والتجريح ، وإنما نريد الحقيقةَ والحقيقة وحدها، وأحسب أن الوصول إلى الحقيقة ليس عسيراً، ولا مستحيلاً ، ولكنه لاشك يحتاج إلى بذل جهد وعناء

المنهج الذي ندعو إليه :

وربما كانت الخطوات التالية منهجاً وطريقاً إلى الحقيقة التي ننشدها:

(١) لا يُكتب التاريخُ الإسلامي إلا بقلم مسلم :

ولسنا نعني بذلك أن يكون صاحبُ القلم مسلماً باسمه وشهادة ميلاده، وإنما نعني أن يكون صاحبُ القلم مؤمناً صادق الإيمان ، مسلماً كامل الإسلام واعياً بحقائق الإسلام ، مدركاً لأثر رسالته وقيمتها بالنسبة للبشرية لأنه ما لم يكن كذلك، فلن يستطيع أن يستوعب الحدث، ولن يقدر على تفسيره.

فلكي يفهم الإنسانُ الحادثة ويفسرها، ويربطها بما قبلها وما تلاها، ينبغي أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس البشرية جميعها: روحية، وفكرية ، وحياتية ، ومقومات الحياة البشرية جميعها:معنوية ومادية ، وأن يفتح روحَه وفكرَه وحسَّه للحادثة ، ويستجيب لوقوعها في مداركه.

فأما إذا تعطل في المؤرخ عنصر الروح، فلن يستجيب (للحادثة) استجابة كاملة، وسيحرمه ذلك من عنصر هام من عناصر إدراكها ، وفهمها على الوجه الكامل . ومن ثم يجعل تفسيرها خاطئاً أو ناقصاً.

ويظهر ذلك بوضوحٍ في البحوث الغربية عن التاريخ الإسلامي ، حيث يفتقدون عنصر الروحية الغيبية ، راجع تفصيلاً لهذا المعنى ما كتبه الشهيد سيد قطب في بحثه (في التاريخ . فكرة ومنهاج).

(٢) جمع الأخبار والروايات كلها ووضعها موضع النظر والنقد :

ولا شك أن هذه مهمة من أشق وأصعب المهام تحتاج إلى وزن وتقدير الروايات والأخبار في ضوء علم الجرح والتعديل ، وهو علم «لايطيقه إلا الفحول» كما قال ابن الصلاح.

وعندما يتم ذلك ، ستسقط أحكام وآراء شاعت وثبتت ، وصارت مسلمات وبدهيات . ويكفي مثالاً على ذلك ما قيل عن خرافة التحكيم بين «علي» و «معاوية» -رضي الله عنهما- حيث تسجل كتب التاريخ على اثنين من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسوأ اتهام، فاتهم عمرو بن العاص بالخبث والخيانة والكذب ، واتهم أبو موسى الأشعري بالغفلة والبلاهة.

وقد كتب في ذلك قديماً كثير من العلماء ، على رأسهم الإمام ابن العربي في (العواصم من القواصم) وحديثاً العلامة محب الدين الخطيب ، في تعليقاته القيمة على العواصم. وثبت أن الأمر على غير ما تناقلته كتب التاريخ ولم يكن من هذا الذي يُلصقونه بالصحابيين الجليلين شيء، ومن أعجب العجب أن يبتعد كل من يكتب التاريخ في أيامنا عن مثل هذه التحقيقات المتاحة له الميسورة أمامه، وتظل هذه التهم مُصوّبة إلى صحابيين من أجلاء الصحابة، رضوان الله عليهم.

(٣) تفسير الأحداث وربط بعضها ببعض والعوامل التي أدت إليها وبنتائجها :

وهنا لا بد أن يكون المؤرخ مطبوعاً ملهماً قادراً على استيعاب الأحداث ، مستحضراً مُناخها الذي وقعت فيه. فمثلاً حين يقول أحد المؤرخين : إن طلحة رضي الله عنه خرج على «علي»- كرم الله وجهه- خوفاً على ثروته إذا استتب الحكم لعلي ، لأن طلحة كان قد أثرى من الفتوح ، وصار يمثل (اليمين)في عتوه وجبروته ، فخشي من عليٍّ الذي كان يمثل (اليسار)في صرامته وشدته ، حينما يقول أحد المؤرخين ذلك ، مفسراً خروجَ «طلحة» على «عليٍّ» رضي الله عنهما، فهو لاشك غير

قادر على تمثل الأحداث واستيعاب المناخ الذي دارت فيه، بل أمامه مضاربات عصرنا ومزايداته ، وما يراه من سطوة أصحاب (البورصة) وشركات الصلب والسلاح ، وقدرة هؤلاء على التأثير في المعارك الانتخابية ، وإدارتها وتوجيهها من بعد .. فيقيس هؤلاء بهؤلاء .. أين تقع الثروة من نفس طلحة بن عُبيد الله ، الذي سماه الرسول صلى الله عليه وسلم (طلحة الخير) وبشره بالجنة ، ووعده بها، ووعْدُه صلى الله عليه وسلم لا يتخلف واختاره عمرُ ليكونَ من أصحاب الشورى.طلحة الذي كان يَفدي بنحره رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، حتى تلقى عشرات الطعنات في جسده ، وهو صامد صابر ، مصابر محتسب ، وكانت نجاته أعجوبة الأعاجيب ، حتى كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول :«من سره أن ينظر إلي شهيد من أهل الجنة يمشي على قدميه فلينظر إلى طلحة ». هذا الجهاد وهذا التاريخ يعجز المؤرخ أن يستوعبه ويتمثله. فيفسر خروجَه بأنه خائف على ثروته ، ولو فهم (الحادثة) في مُناخها وأدركها في ملابساتها ، لعرف أن مثل طلحة تهون عليه الدنيا كلها في سبيل هذا الدين.(إنما كان خروجه لأمر آخر لسنا بصدد شرحه الآن).

(٤):الاهتمام بالمصادر الأخرى :

بمعنى عدم الاقتصار على الكتب الموصوفة بأنها كتب التاريخ فقط، وذلك مثل كتب السنة الصحيحة، والفتاوى ، والأقضية ونحوها. فهذه المصادر بالإضافة إلى ما تقدمه من مادة تاريخية ، تعطي إشارات وملامحَ، تعين على التفسير والتحليل والتعليل ، فحينما نقرأ مثلاً في كتب السنة :«عن طارق بن شهاب ؛ أن خالدَ بنَ الوليد كان بينه وبين سعد بن أبن أبي وقاص كلام ، فذُكر خالدٌ عند سعد ، فقال : مَهْ ، فإن ما بيننا لم يبلغ ديننا »(رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح «مجمع الزوائد:/٢٢٣)

ما كان بين خالد وسعد ، لم يسمح لسعد ، بأن يُذكر خالد أمامه

بسوء ، وقال لمن يجامله بذلك : مه (كف)إن ما بيننا لم يبلغ ديننا. نعم. الدين عنده أولاً، ليكن ما بينه وبين أخيه من نزاع أو خصام ، ولكنه لن يخالف دينه، ويسكت عمن يغتاب خصَمه ، لن يقبل هذا . إذا عرفنا ذلك ، أدركنا أن هذا النمط من الرجال- من باب أولى- لا يمكن أن يحمل السلاحَ على أخيه أو خليفته ، بَلْه على أمّته لأمر دنيوي أو شخصي.

وحينما تقرأ في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، عن موقف من المواقف الحادّة بينها وبين زوجات الرسول الأخريات ، وكانت تتزعمهن زينبُ بنتُ جحش -رضي الله عنهن جميعاً- حينما تحكي أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها كيف (وقعت فيها زينب) ووقعت هي في زينب، ثم تعقب على ذلك قائلة«ولم أرأمرأةً قط خيراً في الدين من زينب واتقى لله، وأصدقَ حديثاً، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقةً وأشد بذلاً لنفسها في العمل الذي تتصدق به ، وتتقرب به إلى الله تعالى .. » حينما تذكر عائشة رضي الله عنها ذلك عن (منافستها) وتعقب به على ذكر موقف من أشد ما كان من خصومة بينهما ، حينما تقدم عائشة كل هذا الثناء لزينب ، في هذا الموقف، فمعنى هذا أننا أمام نفس فُطرت على الإنصاف والعدل ، لم تُنسها الخصومة فضائل خصمها، وراحت تعترف لها بكل فضائلها.

حينما نقف أمام هذا النمط الفذ، الذي يدرك الحقَّ والإنصافَ في أقصى مواقف الخصومة ، عندئذ نرفض ذلك التفسير السخيف لخروج عائشة يوم موقعة الجمل ، بأنه كان حقداً دفيناً على عَليّ منذ (قصة الإفك) فإن من تخشى على دينها من عدم ذكر فضائل وحسنات خصيمتها ، لا يمكن أن تقود جيشاً ، تحطم به أمةً ، وتهدم به ديناً ، تعلم أكثر من غيرها ، حقيقته ومنزلته ، ولقد كان خروجها لباعث نبيل، فقد رجت أن تتمكن من الإصلاح بين الطائفتين (راجع في هذه النقطة : العواصم من القواصم).

(٥) الحذر التام من كتب الأدب والأدباء :

ومما يؤسف له أن كتب الأدب ودراسته ، تُقدم زاداً شهياً للمؤرخين وهو في جملته زاد سموم. والذي أوقع المؤرخين في ذلك ما شاع من قواعد النقد الأدبي ، وصار من البدهيات المسلمة ، ونعني به قولهم: (الأدب مرآة العصر الذي نشأ فيه) يعكس صورة صادقةلواقع العصر وما يجري فيه.

ولكن هذا القول يجب أن يُنظر إليه بحذر شديد .. فكثيراً ما تعكس هذه المرآة زاويةً ضيقة جداً لا تمثل شيئاً يذكر من الواقع ، بل كثيراً جداً ما تزيف هذه المرآة صورةَ الواقع ، حيث ينظر الأديب شاعراً كان أو ناثراً إلى واقعه من خلال ذاته، فيتلون الواقع بنظرته وتتبدل صورته.

ويشهد لما أقول أقطابُ النقد الأدبي والأدب المقارن ، فقد قرروا بناء على ما أجْرَوْه من دراسات في مختلف الآداب ، أن رؤية الأديب ، وما يصوره في أدبه بينها وبين الواقع بون شاسع(أحياناً)

يتحدث عملاق النقد الأدبي المرحوم الدكتور/محمد غنيمي هلال عن(مدام دي ستال) وتصويرها للحياة في ألمانيا فيقول:

لقد هاجرت إلى ألمانيا ضائقةً ذرعاً بما تعانيه فرنسا من طغيان نابليون ، ومن حكمه في حرية الأفكار فيها. فكانت تنشد في هجرتها بلداً تتمتع فيه بنوع من المثالية التي تحلم بها، أضفتها على كل ما رأت وما شرحت ، وكان كتابُها عن ألمانيا بمثابة صلوات طريد ، ينشد ملاذاً في عالم مثالي ، وقد أثرت بإدراكها هذا في جيل من الكتاب والرحالة الفرنسيين ، فظلت ألمانيا في إنتاجهم بلدَ الحرية الفنية في المسرحيات والشعر ، كما ظلت بلدَ الحياة المرحة الطليقة، التي يتمتع أهلها بملذات الحياة في كنف حرية رحبة الآفاق. وبالرغم من أن الصورة التي رسمتها (مدام دي سنال) لألمانيا كانت غير صادقة ومبالغاً فيها .. ظلت ذاتَ أثر بالغ في معاصريها ومن جاء بعدهم من أدباء النصف الأول من القرن

التاسع عشر(انظر كتاب النقد الأدبي ص ٤٠٢) هكذا(صورت الواقع صورةً غير صادقة، واستمر هذا التأثير نحو نصف قرن). ومع وضوح هذه الحقيقة إلا أن المؤرخين ما زالوا يقعون في وهم تصوير الأدب للواقع وللأسف ما زال كتابُ(الأغاني) مصدراً هاماً ونبعاً فياضاً للمؤرخين . وما زال شعر ابن أبي ربيعة ومجونه هو أصدق صورة للمجتمع في نظر الكثير منهم ، وما زالت النوادر والفكاهات (النواسية) هي صورة عصر هارون الرشيد الصادقة.مع أن نظرة سطحية إلى الحياة من حولهم تريهم مقدار الخطأ في هذا المنهج (فليست قصص الفراش في أدب إحسان عبد القدوس وأضرابه ، وليست أفلام المجون ، ومسرحيات الخلاعة ، وأغاني الهوى وتباريح الغرام ، ليس هذا الطوفان من الأعمال الأدبية والفنية صورة للمجتمع المصري لا من بعيدٍ ولا من قريب ، وإن زعم هؤلاء أن هذه النماذج التي يصورونها في قصصهم ومسرحهم موجودة فعلاً، فمتى كانت النماذج المريضة الشوهاء ، هي صورة المجتمع وعنوانه).

(٦) مراعاة المستوى الذي يكتب التاريخ له :

أعني أنه لابد من التفريق بين مايقدم للدارسين المبتدئين، والدارسين الناضجين ، والدارسين المتخصصين، والدارسين الباحثين ، ولسنا ندعو إلى إخفاء الحقائق .. حاشا لله ، فليس عندنا والحمد لله مانخشاه ..وإنما الذي نريده هو أن نلتزم أوليات.وبدهيات التربية. فنقدم لكل مستوى ما يقدر على استيعابه. فمن غير المعقول أن أقدم لتلاميذ الابتدائي قَتْل خالد لمالك بن نويرة وزواجه من أمرأته ، وعزل عمر لخالد، ثم الفتنة وموقعة الجمل وصفين ، فمن المقطوع به أن عقول من في سنهم لن تستطيع استيعاب هذه الأحداث ، ولن تدرك دوافعها وبواعثها ، ولن تميز بين صحيح أخبارها وسقيمها ، ومن هنا لن تستطيع أن تضَعها في نصابها الصحيح .. اللهم إلا إذا أردنا تشويه التاريخ.

وأخيراً نقول :

إن هذا الميدان في حاجة إلى المزيد من الأفكار والآراء ، والجهود ، وإننا إذا فعلنا ذلك في مطلع القرن الخامس عشر، أي إذا استطعنا أن ننظر في تاريخنا، أو على الأقل نتفق على المنهج الذي ننظر في ضوئه وبمقتضاه ، وإذا قُدر لنا أن نعقد مؤتمراً ، أو حلقة دراسية حول هذا الموضوع ، لنضع الأسس والقواعد ، ونرسم الخطوط الرئيسة ، التي تعاد كتابة التاريخ الإسلامي على منوالها.

إننا إذا فعلنا ذلك ، ونحن نرنو إلى مطلع القرن الخامس عشر ، نكون قد أحسنا استقباله ، وعرفنا كيف نحتفل به؛ لأننا نكون قد أجرينا، أو على الأقل شرعنا في المراجعة اللازمة لجانب من أخطر جوانب حياتنا ، أو لموقف من أخطر مواقفنا. وبالمثل هناك أكثر من مجال في حاجة إلى مراجعة وإعادة تقييم .

أعان الله أمتنا على أمرها ، وسدد خطاها ، ووقاها شر نفسها ، وشر عدوها..

حوار

بحثٌ على بحث

عرض الأخ الباحث الدكتورمحمد رضا محرم في بحثه (أفكار الآخرين)[*] لقضية من قضايانا المعاصرة -وما أكثرها- التي تحتاج إلى دراسة وتقويم ، وهي طريقة التعامل مع (أفكار) الآخرين: ماذا نأخذ منها؟ وماذا ندع ؟ وماذا نسكت عنه؟ وماذا ندفعه ونتصدى له ؟ وماذا نحمل للآخرين من مشاعر؟ وماذا نكن لهم من عواطف ؟؟

وقد قسمّ بحثه إلى قسمين رئيسين ، تبعاً لتقسيم (الآخرين) إلى فئتين:

القسم الأول : بالنسبة (للآخرين) الذين هم منا.

القسم الثاني : بالنسبة (للآخرين) الذين هم غرباء عنا.

وواضح من كلامه أنه يعني (بالذين هم منا) المسلمين الذين يشاركوننا في العقيدة والدين ، بل والعروبة أيضاً ، ولكنهم يختلفون معنا في الرأي والفكر ، والنظر والتقييم لما يحيط بنا من أوضاع ، وما يعرض لنا من مشكلات .

(*) انظر العدد ٢٩ من المسلم المعاصر(صفر ١٤٠٢هـ / يناير ١٩٨٢م)

أما (الذين هم غرباء عنا) ، فقد قال : «وهم أولئك الذين ينتسبون إلى ثقافات ، أو حضارات مغايرة لثقافتنا وحضارتنا ، ولو كانوا من بني وطننا».

وقد انتهى الباحث في القسمين إلى نتائج ، ما أظنها تُسلِّم له ، بل تحتاج إلى مراجعة ، وتحتمل المناقشة.

كذلك عرض في أثناء البحث إلى قضايا ظنها مسلمات وبديهيات ، وإلى أخبار اعتبرها حقائقَ وثوابت ، وظن بها الصدقَ ، وأخذها مأخذ اليقين، وبعض ذلك بل كثيرٌ من ذلك ، لا يثبت عند النقد والتمحيص.

عرفانٌ وتقدير :

وبادىء ذي بدء نعرف للأخ الباحث حقَّه ، فنذكر له جهدَه ، واقتدارَه على امتلاك ناصية البحث ، والإحاطة بأطرافه وحواشيه ، ونشكر له توقُّد عاطفته وجيشان انفعاله ، وإحساسَه بمعاناة أمتنا، ومشكلاتها، فهو حقاً يكتب من قلبه – يشعر بذلك كلُّ من يملك قدراً من التذوق للكلام– ولا يمارس الكتابة حرفة ووظيفة، كما يفعل الكثيرون.

ونعترف أيضاً أن هناك نقاط التقاء لا بأس بها بيننا وبينه ، نوافقه على ما جاء فيها، ونؤيده ، فيما قاله بشأنها.

ونعتذر مسبقاً عن عدم إيفاء هذه النقاط حقها ، حتى لا يطول الكلام، ويكفي أن نعرض بالتوضيح والتدليل للمآخذ والهفوات ، ليسلم له مابقي بعد ذلك، مما قد نشير إليه مجرد إشارة أثناء الكلام ، وما أحسن ما تحفظ من موروثنا الثقافي:«كفى بالمرء نبلاً أن تُعدَّ مثالبه».

إيجاز قبل تفصيل :

ويمكن أن نجمل ملاحظاتنا سواء ما يتعلق منها بالمنهج والشكل ، وما يتعلق بالموضوع فيمايلي:–

- مصادر البحث .
- توثيق الأحداث والأخبار.
- عدم الإحاطة والشمول.
- التجاوز في تفسير أحداث التاريخ.
- وضع النتائج قبل البحث .
- الوقوع في التناقض.
- جموح التعبير.
- إتيان ما نهى عنه.
- النتائج لا تسلم له.

وقد لا يكون من المستحسن ، أو المناسب ، بل من الميسور تناول هذه الجزئيات منفصلة بعضها عن بعض ، فلا علينا إذا أطلقنا الحديث عنها ، في غير تفصيل أو ترتيب ، وإنما نترك السياق يجمع بينها ويفرق حسب الملابسات ، ودون ارتباط بهذه العناوين.

اتجاه صائب ونهج رشيد:

أعنى بهذا الاتجاهِ الصائب ، وذلك النهجِ الرشيد ، ما لجأ إليه الباحثُ من استقراء أحداث التاريخ ، وتتبع جذوره ، والتأمل في حلقاته ودوراته ، ورؤية أثر ذلك الماضي في واقعنا ؛ فهذا لا شك أولُ غائب من شروط نهضتنا، فنحن في حاجة إلى التعرف الاستيعابي على تاريخنا ، وما لم ندرس تاريخنًا دراسةً واعية فسيظل أحد أركان وعينا بحاضرنا ومستقبلنا غائباً ؛ **فالتاريخ ليس علمَ الماضي، ولكنه علم الحاضر ، وعلم المستقبل معاً ، «ونحن للآن حتى يومنا هذا لم نُخضع دورتنا الحضارية -وهي قوة الارتكاز التي ننطلق منها- لِعمليّة التاريخ ولا لفلسفته»(١).**

فحين يتجه الأخ الباحث للتاريخ باحثاً عن جذور قضيةٍ من قضايانا المعاصرة لابد أن نهنئه على ذلك ، ونشكره له ، جاء في مقدمة بحثه :« وحتى نرشد تعاملنا مع ، وموقفنا من ، أفكار الآخرين ، وحتى نُتقنَ كيف نقومها ، وكيف نتعامل معها، وكيف نستفيد منها، **فإننا ولابد**

(١) دكتور رشدي فكار(من محاضرة بعنوان الإنسان العربي بين التأزم والانطلاق).

مضطرون إلى التعرف على هؤلاء، في الموروث التاريخي،وفي الواقع المعيش سواء كانوا منا، أو كانوا عنا غرباء».

وقال مؤكداً لقيمة البحث عن جذور قضايانا ، والوعي بتاريخها: « .. ومنذ انبثاق الدعوة المحمدية الربانية زماناً ، ومن أرض المبعث بمكة مكاناً، نبدأ مسيرتَنا في الزمان والمكان ، علّنا نعي دروسَ التاريخ ، ونستوعب حتميات السنن الإلهية، ونستفيد من حكمة الممارسات المحمدية ، ونخلع عن أعيننا عمايات الوهم والجهل التي ابتلينا بها ، وطال منها البلاء !!» ص٨ ع٢ س١٣.

نعم ، وأهلاً ومرحباً، بالتعرف على دورس التاريخ ، وحتميات السنن الإلهية، وحبذا لو اتبع كل الباحثين هذا المنهجَ في دراسة قضايانا.

ولكن :

وما أخطر (الكن) هذه ، حينما اتجه الأخ الباحث إلى تاريخنا يستقرئه ويستنطقه ، ويعتبر به ويتعظ ، إذا به -غفر الله لنا وله- يُغيِّر الهدفَ والغرضَ ، فيأخذ في محاكمة تاريخنا كلّه ، ويشبعه جَلْداً وركْلاً وصَفْعاً، وتهويناً وتحقيراً ، ثم يشنقه ويصلبه ، وهذا أقل وصف لما فعله الكاتب الباحث بتاريخ أمتنا ومجدها وعزها.

إدانة مسبقة للتاريخ :

بل إنه قبل أن يبدأ بحثَه كان قد سجل النتيجة ، ويقيني أنها أفلتت منه من غير أن ينتبه لها ، اسمع إلى قوله بعد سطرين من مقدمة بحثه:«أما الذين هم منا دماً ، وديناً ، وتاريخاً ، فلدينا من الموانع **الموروثة ما يحول دوننا والتفاهم معهم ،أو الفهم عنهم.أو الإنصاف في تقويمهم قولاً وعملاً»** كذا. ولست أدري فيم العناء والبحث؟ إذا كان قد حكم أن موروثات التاريخ تحول دون الفهم والتفاهم مع الآخرين وإنصافهم.

هذا رأيه في أمته وتاريخها مسبقاً ، وقد حاول أن يُدخله علينا من باب حديث متحضر: باب البحث العلمي، ولكن سبقَه قلمُه ، ورحم الله أمير المؤمنين الفقيه الأديب (أبوجعفرالمنصور) حين قال في إحدى خطبه:«إنه ما أسر أحدٌ معصية قط إلا ظهرت في آثار يده وفلتات لسانه».

أيُ تاريخٍ هذا ؟

في محاولة الأخ الباحث تحليل التاريخ ، واستقرائه ، للوصول إلى دروسه وحتمياته -كما وعد بذلك- وقع بعيداً عن التاريخ !! ولست أدري كيف وقع هكذا بعيداً بعيداً ؟

يقيني أن ما أوقعه في ذلك ، إنما هو ذلك التاريخ المشوَّه ، الذي درسناه في التعليم العام ، ودرسه المختصون في التعليم الجامعي ، وقرأناه قصصاً وأعمالاً أدبية متنوعة ، فاستقرت في ذهننا صورة مستبشعة لأمتنا منذ فجرها ، منذ يوم السقيفة، ولذا بدأ كاتبنا بحثَه في التاريخ ، أو عن التاريخ ، بعد أن كان قد حكم عليه ، وانتهى من حكمه. كما أشرنا آنفاً .

وأخرى !!!

والثمرة التالية لهذا تعجلُه بالإدانة لبني مروان استطراداً ، قبل أن يأتي دور الحديث عنهم ، فعلى حين يتحدث عن الفترة التالية لفتح مكة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، تراه يجمح به القلم ، كاشفاً عما يمور في نفسه بدءاً ، فيقول وهو يتحدث عن الطوائف التي أسلمت بعد الفتح:«وأول هؤلاء طائفة الطلقاء من أهل مكة ، **والتي خرج من جوفها بنو مروانَ ، الذين أفسدوا على ذي النورين عثمانَ بنِ عفان حكمَه ، ثم تاجروا بقميصه، ثم حاربوا عليَّ بنَ أبي طالب كرّم الله وجهه ، حتى أقاموا دولة الطلقاء من بني أمية»** ص١٥ ع١ س١٠.

هكذا في عجلة من أمره يريد أن يقذف بما في داخله ويرتاح ، ولا ينتظر حتى يأتي مجال الحديث عن بني مروان وأوانه.

أوليات المنهج وأبجدياته :

حين يكون البحث عن التاريخ ، لمن يريد أن يقرأ التاريخ ، أو يتعلمَ التاريخ، فمن البديهي أن يتجه إلى كتب التاريخ ومصادره ، لا إلى كتب أخرى غيرِ كتب التاريخ .

أما حينما يكون البحث عن التاريخ لتحليله واستنتاج دروسه، فالواجبُ حينئذ أن يتجه الباحث لا إلى كتب التاريخ فحسب ، بل إلى أصدقها وأوثقها ، ولابُدَّ له حينئذٍ من الموازنة ، والمقارنة والتصحيح والترجيح ، حتى لا يحلل من الوقائع إلا أثبتها ، ومن الأحداث إلا أصدقَها، ومن الأخبار إلا أوثقَها.

فإذا أدار باحثُنا ظهره لكل كتب التاريخ والمؤرخين ، وراح يبحث عن تاريخ الإسلام والمسلمين ، في كتابات طه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، وأحمد أمين ، فأعتقد أنه لا يريد البحث عن التاريخ ، ولا في التاريخ ، وإنما يريد أن يثبت فكرة مسبقة لديه ، ورأياً اعتنقه ، وهذه أخطر آفات الباحثين.

وليعذرني الأخ الدكتور، فأنا لا يمكن أن أصدق أن باحثاً يريد البحث في الأدب والنقد مثلاً ، فيتجه إلى كتب الطبري ، وابن الأثير ، وابن كثير ، وابن خياط ، وغيرهم ويترك كتبَ ابن سلام وعبد القاهر ، وقدامة بن جعفر، وأبي هلال العسكري ، وابن المعتز إنه إن فعل ذلك لا نعده مخطئاً، فمثل هذا لا يحدث خطأ، وأترك لكم وصفَه والحكم عليه.

نوعٌ من التفكير فات أوانه :

إي وربيّ . كنا نظن أن هذا اللون من التفكير الذي يقوم على التقاط نثار من الأحداث والوقائع المختلفة ، وعلى ليّ أعناق النصوص ليّاً ،

وتفسيرها من داخل الباحث ، وبمقاييس زمانه ومعايير عصره هو ، ومَن حوله هو ، كنا نظن أن هذا أمر قد انتهى ، أو على الأقل كنا نظن أن هذه الوقائع والأحداث المكذوبة ، قد انكشف أمرها وذاع سرُّها ، بعد ما نشر من دراسات وتحقيقات ، وثار حولها من مناقشات ومساجلات ، وكنا نظن أن المُناخ الثقافي العام «للمسلم المعاصر» يجعله قادراً على تذوق مثل هذه الأخبار وإدراك خبيئتها بحسه ، وإن لم يفرُغ لها بدرسه وبحثه ، وأنها حينما تعرض له سيقذفها إلى حيث يليق بها ، وسيجد مدَّ يده ما يدحضها ، ويقدم له البديلَ الصحيح لو أراد.

الخلاف حول شخص القائد :

تحت هذا العنوان الطريف أراد الأخ الباحث أن يؤكد أن الصراع السياسيَّ على السلطة بدأ في المجتمع الإسلامي منذ يوم توفى(الزعيم العظيم) يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث صار «التعامل مع الحاكم -سلباً أو إيجاباً- يحكمه قانون التكافؤ بين الحاكم وبين المحكوم ، وهو القانون الذي كان يتوقف عن النفاذ في أحيان كثيرة، حين التعامل مع محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) باعتباره رسولاً» ص١٧ع٢ س٨.

وقد تغير الخلاف من عصر الرسول صلى الله عليه وسلم «وانتقل إلى مستوى آخر ، فلم يعد يدور حول جزئيات ، أو عوارضَ يأذن (الزعيم)(٢) صراحة أو ضمناً بإبداء الرأي فيها، بل تطور(الخلاف)وتضخم ليدور حول الكليات الاجتماعية والسياسية بما فيها القبول أو الرفض،أو المراجعة الجذرية لقيادة القائد الجديد» ص١٧ع ٢س٢٢.

---

(٢) يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم.

دليله على ذلك :

استشهد على ذلك بمايلي :-

أولاً : موقف سعد بن عبادة رضي الله عنه سيد الخزرج .

فقال:« امتنع سعد ابن عُبادة رضي الله عنه عن مبايعة أبي بكر ، وطالب عمرُ أبابكر رضي الله عنهما أن يأخذ بيعتَه عَنوة ، وألا يدعَه حتى يبايع ، ولكن أبا بكر رضي الله عنه أخذ بنصيحة بَشير بن سعد رضي الله عنه الذي حذر من إغضاب (الأوس) كذا كتبها والصواب (الخزرج)([٣]) ، وترك سعداً رضي الله عنه وشأنه ، لم يقهره على إعطاء البيعة ، ولم يعط سعدُ بنُ عبادة البيعة لأبي بكر رضي الله عنه، ولا لعمرَ من بعده حتى مات في الشام ، في خلافة عمر رضي الله عنه ، بل إنه رضي الله عنه كان لا يصليٌ بصلاتهم ، ولا يجمع بجمعتهم ، ولا يُفيض بإفاضتهم حتى مات».

ولست أدري كيف أناقش الأخَ الباحث في قيمة هذا الخبر!! هل نتحاكم إلى السند؟ أم نتحاكم إلى العقل ؟ لقد سمعتُ أحد (مشاهير) مؤرخي عصرنا الذي يزعم ويُزعم له أنه الحجة في التاريخ الإسلامي ، سمعتُه يقول: «كم جنى الإسناد على هذه الأمة !!» وقذف بها عوراء بلقاء هكذا أمام جمع من العلماء ، في أحد المؤتمرات الإسلامية ، فأخشى إن تحاكمنا إلى الإسناد أن يقول كاتبنا :دعنا من الإسناد ، ومع ذلك نقول له في إيجاز : إن كتاب الإمامة والسياسة الذي عزوتَ إليه هذا النص كتابٌ لقيط ، منسوب إلى غير أبيه ، وحمل ابنُ قتيبة وزرَه ظلماً وزوراً، والقضية معروفة منذ القدم ، وعندما نشر العلامة محب الدين الخطيب كتابَ (الميسر والقداح) لابن قتيبة منذ أكثر من خمسين عاماً، ذكر في مقدمته مآخذ العلماء على كتاب الإمامة والسياسة ، وبراهينَهم على أنه ليس لابن قتيبة ،حيث ذُكرت فيه أمورٌ وقعت بعد تاريخ وفاة ابن قتيبة ، كما أنه يروي كثيراً عن اثنين من كبار علماء مصر ، وابنُ قتيبة لم يدخل مصر ، ولا أخذ عن هذين العالمين(انظر العواصم

---

(٣) انظر إمتاع الأسماع ، وحدائق الأنوار؛ موضوع العقبة الكبري ، ولعل الذي أوقعه في الخطأ أن بشير بن سعد خزرجي.

ص ٢٤٨ هـ ٢).

فمثل هذا الكتاب الذي يتوارى عنه صاحبه ويستحي منه كاتبه ، ولا نعرف لأخباره سنداً ، كيف يكون مصدراً لنا عند استقراء التاريخ ، واستخراج دروسه وعبره؟؟ وهو(كتاب مشحون بالجهل والغباوة ، والركة والكذب والتزوير كما وصفه بذلك العلامة محب الدين الخطيب رحمه الله)(العواصم ص ٢٤٨).

نقد المتن :

وإذا تركنا سند هذا الخبر ، وما يمكن أن يوجه إليه من طعن يؤكد كذبَه واختلاقه ، واتجهنا إلى نقد المتن ، أو النقد العقلي ، كما يحلو للبعض أن يسمّيه، فإننا نقول :

إن من أوليات النظر في متن الأخبار أن تعرض على العقل ، بشرط الإحاطة بظروف البيئة والمناخ الذي وقع فيه الحدث ، وطبيعة الأحوال والملابسات إحاطة تامة ، حتى يكون الناظر في متن الخبر كأنه يعايش الحدث في وقت وقوعه ، ويتبع هذا ، بل قبل هذا أن يكون على علمٍ بأخبار الرجال الذين وقع منهم الحدث المروي ، وأن يكون لديه من أخبارهم ، مايكفي لمعرفة صورتهم النفسية والخلقية ، معرفة كاملة صحيحة ، فإن ذلك مفتاحُ النظر في المتن ونقده.

فإذا قيل لنا: «إن سعدَ بنَ عُبادة امتنع عن مبايعة أبي بكر، وعن مبايعة عمر من بعده ، وخرج إلى الشام ، وكان لا يصلي بصلاتهم ، ولايجمع بجمعتهم ، ولا يُفيض بإفاضتهم ، إذا قيل لنا ذلك ، لابد أن نسأل الأسئلة التالية:

١ - من سعد بن عُبادة؟ وماذا عن خلقه ، ومواقفه ، وتاريخه حتى هذا الموقف؟
٢ - لماذا وقف هذا الموقف؟
٣ - كيف كانت الظروف والأحوال عندما وقف هذا الموقف ؟

فعند السؤال الأول نجد الإجابة: سعد بنُ عُبادة ، سيد قومه الخزرج ، وأحد النقباء ليلة العقبة وقد بايع ليلتها(٤) على حرب الأحمر والأسود من الناس. وأخذوا العهد على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، وعندما سألوا الرسول : ما لنا بذلك ؟ قال: «الجنة» وشهد المشاهدَ كلَّها ، **وأحد رجلين استشارهما النبي صلى الله عليه وسلم في إعطاء ثلث ثمار المدينة لعيينة بن حصن الفزاري يوم الخندق ، فقالا معتزين بالإسلام ورسوله:(.. أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف)(٥)** وهو صاحب الراية يوم فتح مكة ، وكان يلقب بالكامل، ودعا له النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود:« اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة».

ثم لماذا وقف سعد بن عبادة هذا الموقف ؟

ما عائد هذا المنصب؟ وما مردوده ؟ أمن أجل مالٍ يعود عليه؟ وهو يعلم ظاهرَ الأمر وباطنَه ؟!! وأن من كان قبله صلى الله عليه وسلم كان يمضي عليه الشهر والشهران ، ولا طعام له ولأهله إلا التمر والماء !!

أمن أجل المال؟ وهو يرى الدولة الإسلامية الناشئة تقتضي من أهلها أن يبذلوا فضولَ أموالهم ، إن لإخوانهم الذين لا مال عندهم ، وإن للصالح العام وإقامة الدولة أمن أجل مال!! ، وهو واحدٌ من الذين قال القرآن الكريم فيهم:(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(٦) وقد نزلت هذه الآية عندما قسم النبي صلى الله عليه وسلم فَيْءَ بني النضير ، وأعطى المهاجرين، ولم يعط الأنصار، فطابت نفسُ الأنصار ، ورضوا، ووقوا شحَّ أنفسهم.

---

(٤) انظر ابن هشام.

(٥) انظر حدائق الأنوار : ٢/٥٨٨

(٦) سورة الحشر : ٩

أمِن أجل مالٍ؟ وهم الذين تربّوا في أحضان مدرسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلموا مقدارَ هذه الدنيا وقيمتها.

أم من أجل جاهٍ وسلطان ووجاهة في الدنيا؟ وهم الذين رأوا كيف تحولت القيادة في الدولة الإسلامية إلى تبعات ثقال ، وكيف أخرجها محمد صلى الله عليه وسلم من صورتها القبلية ، حيث كانت ترتبط بالعصبية والنسب ، وبالغنى والجاه ، ويتوارثونها كابراً عن كابر ، فصار ولاة محمد صلى الله عليه وسلم وعماله ، لا يقاسون بأي مقياس من هذه المقاييس ، وكان قمة هذا التغيير للمفاهيم القبلية الجاهلية هو توليةَ أسامة بن زيد قيادة الجيش ، وهو الفتى اليافع في نحو سبعةَ عشرَ عاماً من عمره ، وليس من أصحاب النسب والحسب ، على حين كان في الجيش من كان من شيوخ الصحابة ، وذوي المنزلة في الإسلام وقبل الإسلام.

فأي جاهٍ كان يحرص عليه سعدُ بنُ عُبادة ، ويخاصم الخليفتين من أجله، ويخرج إلى الشام غضباً أن حرماه منه.

ثم إذا جئنا للسؤال الثالث : كيف كانت الظروف والأحوال عندما وقف هذا الموقفَ؟ نستطيع أن نجيب قائلين :أفي مثل هذه الحال ؟ يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلوب المسلمين خاشعة هالعة ، والصدمة قد أخذت بالعقول ، وذهبت بالألباب؟ أفي مثل هذه الحال تتطلع النفوس إلى الدنيا والحياة ، وإلى الرئاسة والسلطان؟

ثم إن هذا الخبرَ بهذه الصورة يحمل في ثناياه دلائل كذبه واختلاقه ، فما معنى لا يُفيض بإفاضتهم؟ إن الإفاضة هنا المراد بها الحج، فهل لأمير الحج الذي يحج بالناس قيادةَ الحجيج في أثناء المناسك ، بحيث لا يطوفون إلا وراءه، ولا يخرجون إلى الموقف إلا وراءه ، ولا يفيضون من عرفة إلا وراءه !! هل هذه صورة الحج المفروض المعروفة في كتب الفقه؟

يعني هل الحج يؤدى في جماعة وله أمير قائد كالإمام في الصلاة؟ أعتقد أنه لم يقل بهذا أحد ، وإنما هو جموح القلم الذي يكشف عن الهوى ، لدى صاحب هذا الخبر ، فأتبع الصلاة والجمعة الحجَّ ، حتى يكملَ صورة

الخروج عن الطاعة لسعد بن عبادة.

ثم إذا كان في الشام ، فكيف يصلي بصلاتهم ، ويجمع بجمعتهم؟؟!

أم تراه يريد أنه لا يصلي وراء أمرائهم على الشام؟

فكيف كان يصلي إذاً؟ فإذا قبلنا(مع ما في ذلك من منتهى الشطط) أنه ظل يقاطع المساجدَ والجماعةَ في الصلوات الخمس (مع استحالة هذا من مثله) فكيف نقبل أنه قاطع الجمعةَ ، وراء أمرائهم ، فكيف يصليها؟ والجمعة لا تصح إلا في جماعة، كما هو معلوم من الدين بالضرورة ، لا يحتاج إلى إشارة ، أو تنبيه ، هل يمكن لمثل سعد بن عبادة ، أن يترك الجمعة، وهو الذي يعلم الوعيد الشديد على تركها. إن الجمعة فرض بنص القرآن الكريم:« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ »(٧)

وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وأحمد والنسائي:«لينتهين أقوامٌ عن وَدْعهم الجُمعات ، أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونُن من الغافلين» وفي حديث رواه الخمسة وابنُ حبان والحاكم والبزار ، وصححه ابنُ السكن:«من ترك ثلاث جمع طبع الله على قلبه».

أيتصور من سعد بن عبادة أن يترك الجمعة؟ إن من يقول هذا ، لا يدرك خطورةَ ما ينسبه إلى سعد ، لأنه لا يدرك الحكمَ الشرعيَّ لما ينسبه إليه، ويدّعيه عليه ، ولا يعرف عن حياة(نقيب العقبة) الذي بايع على الجهاد، ونصرَ وآوى ، وحمل اللواء بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يبغي إلا الشهادة في سبيل الله، بائعاً هذه الدنيا بكل أعراضها.

إن من يقول هذا عن سعد بن عبادة ، ماعرف عنه إلا أنه (سيد الخزرج) وكل ما أخذه من معطيات النص ، هو كلمة (سيد الخزرج) فترجمها إلى(زعيم الخزرج) وعلى الفور قفز إلى ذهنه صورةُ زعماء الأحزاب في عصره ، تصور(ديجول) حينما أسقط في الانتخابات ، فاعتزل السياسة

---

(٧) سورة الجمعة : ٩

والجحر بعيداً عن الأضواء ، إلا أنه رأى أن ديجولَ زعيمٌ عصري ديمقراطي ، فلم يعالن بخصومة ، أما سعد ، فقريب عهد بجاهلية ، ومن هنا أعلن العصيان والتمرد، وعالن بالخصومة ، أو ربما قفز إلى ذهنه صورة(إيدن) رئيس وزراء انجلترا في سنة ١٩٥٦م ، حين حيل بينه وبين كرسي الرئاسة ، وكيف أوى منعزلا في جزيرة (جمايكا) في وسط البحر.

ولكن كان ينبغي عليهم وقد جعلوه زعيماً حزبياً ، أن يسألوا كيف كان موقف أنصاره؟ وأتباعه؟ ولماذا لم يغضبوا له، ويثوروا من أجله؟ ولماذا لم يستنفرهم؟ لم يحفظ لنا التاريخ اسمَ واحد من الخزرج امتنع عن البيعة ، وهَبْ أنهم غلبتهم تقواهم ، فجعلوا غضبهم لله ، ورضاهم في الله، ألم يكن ذلك ليعطف سعد بن عبادة إلى طريق الهدى الذي عاش له ، وجاهد في سبيله؟؟ وهل من المعقول (بالعقل المتحضر) أن يتخلف عن سعد كلُّ آله وعصبته، فلا تعي ذاكرةُ التاريخ اسمَ واحد منهم؟ مع توفّر الدواعي على نقله، ذلك أن أبا بكر رضي الله عنه كان في أمسّ الحاجة إلى من يقف معه، حيث ارتجت الجزيرة كلُّها وأرجفت ، ولم يبق مع أبي بكر إلا المدينة ومكة وحدهما تقريباً، فلو خرج عليه خمسةُ نفر من الخزرج انتصاراً لسيدهم ، لشاع ذلك وذاع !!

ثم إن بقية الخبر تنطق بالخرافة ، حيث يقول:«وظل بالشام حتى قتلته الجن ، ولم يعلم الناس بموته حتى سمعوا وهم في المدينة صارخاً يقول :(نحن قتلنا سعدَ بنَ عبادة) سمعوا صوته ، ولم يروا شخصه».ثم لماذا قتلته الجن؟ هل انتقاماً ومجاملة لأبي بكر؟ أم ماذا؟

والأخ الباحث لم يذكر هذا الجزء الخرافي من الخبر ، لأنه رجل عصري لا يقبل الخرافة ، ولكن كان ينبغي أن يلفته هذا إلى عقلية رواته ومختلقيه كله ، فيطرحه وراءه ظهرياً.

وربما بدا أن نقد خبر كهذا لا يستحق كل هذا الجهد ، وهذا العناء ، وهو على أية حال رواية من بين الروايات المتعدّدة في هذه الجزئية من التاريخ، قد لا نصل في تكذيبها إلى درجة القطع ، كذلك قد لا نصل في

تصديقها إلى درجة اليقين.

والجواب أن هذا الكلام قد يُحتمل حين يبقى الخبر ، مجرد تاريخ يُقرأ ، أما حينما يكون هو(الحدث) الذي يُعتمد عليه ، لنفسر تاريخنا على ضوئه، ونفهم نفسيةً عصرنا في نوره ، ونفسر سلوكنا في هديه، فعندئذ يختلف الأمر ، ولابد حينئذ من النقد والتمحيص ، مهما اقتضانا ذلك من الجهد والبحث ، وإلا فالحدث المختلق ، سيؤدي إلى تفسير غير صحيح ، والتفسير الخاطىء سيؤدي إلى فلسفة خاطئة ، وبالتالي إلى قرارات خاطئة ، ونكون قد وجهنا أنفسنا إلى الانتكاس والارتكاس بأيدينا ، بسبب تعجلنا في فلسفة أحداث غير حقيقية ، وتحليل أخبار غير صادقة ، أو غير منطقية.

ثم إن الأخ الباحث قد يكون له عذر إذا لم يكن في الحادثة إلا خبرٌ واحد، فليس له عن تصديقه ، والاعتماد عليه مندوحة (مع أن ذلك غير صحيح ، فوحدة الخبر لا تكسبه صحةً في نفسها) ولكن في المسألة من الروايات مايقطع بأن سعدَ بن عبادة بايع في نفس اليوم ، بل إن الذين شقشقوا بالخلاف حول أبي بكر وإمامته كانوا يذكرون امتناع علي كرم الله وجهه ، ولم يذكر أحد منهم امتناع سعد إلا واحداً أو اثنين.

فهذا الخبر جاء على عدة صور:

(أ) منهم من رواه من غير تعرض لمخالفة سعد بن عُبادة وموافقته «..يقول عمر: فقلت لأبي بكر: ابسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده فبايعتُه، وبايعه المهاجرون ، ثم بايعته الأنصار. ثم كانت بيعةُ العامة من الغد». وهذه رواية البخاري([8]) وغيره من كتب السنة التي لم تذكر أيَّ خلاف على بيعة أبي بكر ، لا لأنه لم يقع خلاف ، وإنما كان هناك نقاش وتبادل رأيٍ انتهى بالإجماع على أبي بكر([9]).

(ب) منهم من روى الخبرَ وقال : إن سعدَ بن عُبادة امتنع عن البيعة أولاً ، ثم بايع في اليوم نفسه الذي بايع فيه الناس (روى هذا الطبري)

---

(٨) حدائق الأنوار : ٢/٧٦١ (لابن الديبع الشيباني).

(٩) انظر على سبيل المثال مجمع الزوائد جـ٥ باب الخلفاء الأربعة.

وحكاه عنه ابن خلدون في تاريخه[10]، ومع أن ابنَ خلدون حكى رواية امتناع سعد بن عُبادة ، وخروجه إلى الشام بتفصيل ، إلا أنه يتشكك فيها، وذلك حين يقول:«ولم يخالف في بيعة أبي بكر إلا سعدُ بن عُبادة- إن صحح خلافه- فهو يحكي خبرَ امتناع سعد بن عُبادة، إلا أنه يعلن التشكيك في هذا الخلاف[11].

وروى أحمد في مسنده أن أبا بكرٍ قال لسعد بن عُبادة: قد علمت ياسعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال وأنت قاعد:« قريش ولاة هذا الأمر فبَرُّ الناس تبع لبَرهم، وفاجرُهم تبع لفاجرهم» فقال له سعد: صدقت نحن الوزراء ، وأنتم الأمراء.

(جـ) منهم من روى خبرَ امتناع سعد ، وإصرارَه على الامتناع عن البيعة حتى وفاته، ولم نر أحداً(غير صاحب الإمامة والسياسة) أضاف «أنه كان لا يصلي بصلاتهم ولا يجمع بجمعتهم ، ولا يُفيض بإفاضتهم »، ولم نر خبرَ محاولة عمر إجباره على البيعة، ونَهْي أبي بكر له عن ذلك ، إلا في هذه الرواية التي اختارها باحثنا(ليستخرج منها عبر التاريخ ودروسَه)

فإذا كان الخبر جاء على عدة روايات بهذه الكيفية ، ولم نتخذ النظر في السند سبيلاً إلى الترجيح، وإنما اتخذنا النظر في (متن الخبر) هو السبيل للاختيار، فأي الصور أقرب لروح العصر؟ وأيها أشبه برجاله؟ وأيها أليق بأهل هذه الفترة؟ إن الذين ينادون بالتجرد من العواطف والاتجاهات ، ويطالبون بالنظر العقلي المجرد، ويدعون للبحث المنهجي الذي لا يرفع أحداً فوق النقد ، هؤلاء العصريون المنهجيون العقلانيون. لو حكّموا عقولهم فعلاً، وفتحوا عيونهم فعلاً ، وتجردوا من الاتجاهات والعواطف فعلا، لوجدوا في عداد المستحيل عقلاً، أن رجلاً مثلَ سعد بن عبادة يحدث منه هذا الذي نسبوه إليه ، من مفارقة الجماعة ، وترك الصلاة مع المسلمين، واعتزال

(١٠) تاريخ ابن خلدون : جـ ٢ ق ٢ ص ٦٤

(١١) ممن روى امتناع سعد بن عُبادة، ولحوقه بالشام ، وقتل الجن له ، ابنُ سعد في طبقاته ، وأشار ابن خلدون بعد إيراده هذا الخبر إلى تشككه فيه قائلاً:« وللناس ولوع بحكاية الغرائب والخلاف والنزاع»جـ ٢ ق ٢ ص ٦٤.

جماعتهم ، وترك صلاة الجمعة. كل ذلك لأنه لم ينتخب خليفة!! سبحان الله.

كيف يكون هذا وهو الذي بايع ليلة العقبة على حرب الأحمر والأسود. وعلى مصيبة الأموال ، وقتل الأشرف ، بغير ثواب إلا الجنة.

ثانياً : امتناع علي بن أبي طالب عن البيعة:

هذا هو الحدث الآخر الذي ساقه الباحث دليلاً على الخلاف حول شخص القائد ونص عبارته:« وشخصية عامة أخرى، كانت تمثل نواةً لتجمع حزبي هُلامي آخر، كان لأبي بكر رضي الله عنه منها موقف مشابه:

- فقد أبى عليٌّ بن أبي طالب كرم الله وجهه البيعة لأبي بكر.
- وطلب الأمر لنفسه.
- وساندته فاطمةُ رضي الله عنها زوجتُه وبنت عمه([12]).
- كما سانده كثيرون من بني عبدالمطلب »أ.هـ بنص حروفه ص١٨ ع٢، س١٤.

وبعد هذه الدعاوى الأربع العراض ، التي تنوء بالواحدة منها الجبال، والتي وجهها إلى علي كرم الله وجهه، يستمر فيكملها بدعاوى ثلاث أخر ، يوجهها إلى عمر بن الخطاب :

- « يطالب عمر رضي الله عنه بإكراه علي كرم الله وجهه على البيعة».

- «بل ويجمعُ الحطبَ حول بيت علي وبيت زوجته فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- «ويهدد بحرق البيت علي من فيه من شيعة عليٍّ إن لم يخرجوا لبيعة أبي بكر»أ.هـ. بنصه ص٨ ع٢ : **(يُذكر لتحرير المسلم المعاصر أنه علق على هذه الرواية ، بأنه لم يعثر لها على أثر في المراجع التاريخية المعتمدة).**

---

(١٢) (هكذا فاطمة بنت عم علي ، أي أن النبي صلى الله عليه وسلم عمُّ علي)!!!

ثم يستمر في توجيه الاتهامات وإقامة الدعاوى ، فيقول:

- «ويهمنا أن نسجل الدورَ الذي قام به بنو أمية ، محاولين إذكاءَ الخلاف بين بني هاشم وبين أبي بكر رضي الله عنه». ويذكر قصةَ إغراء أبي سفيان لعلي والعباس وبني عبد مناف عامة ، بالخروج على أبي بكر، قائلاً لهما:«إني أرى عَجاجة لا يطفئها إلا دم » وواصفاً لهما بأنهما الأذلان ؛ إذ قبلا خلافةَ أبي بكر.

- ويؤكد أن ذلك لم يكن رأياً لأبي سفيان يرتئيه في هذا الموقف ، وإنما كان كيداً وتدبيراً، فيقول:«وهذا الدور الكيدي لبني أمية والطلقاء منهم علي وجه التحديد، يجب أن نذكره دائماً» ص١٩ ع١ س٢٠ (هكذا يجب أن نذكره دائماً. ولست أدري لماذا يجب أن نذكره دائماً).

سقوط هذه الدعاوى :

ولعل هذه الدعاوى أسهل في الدفع والإسقاط مما قاله عن سعد بن عبادة، فنحن لا نجد أثراً لهذه الروايات الجامحة في المراجع المعتمدة ، فمن قال : إن عمر جمع الحطب حول بيت علي وفاطمة ، وهمّ بحرق البيت على من فيه من شيعة علي ؟ .. ومن قال : إن علياً دعا لنفسه؟ لم نقرأ هذا في مرجع من المراجع المعتمدة ، ولا كتاب من الكتب الموثقة ، وإذا كانت رواية انفرد بها راوٍ من الرواة ، فكيف نعوّل عليها وحدها ، ونختارها دون سواها من الروايات المتعددة التي تقول إحداها :«إن علياً عندما سمع بجلوس أبي بكر للبيعة في المسجد خرج مسرعاً عليه قميص ، وليس عليه رداء ، ثم بعدما بايع، أرسل لمن يأتيه بردائه ، فارتداه في المسجد ، وجلس حتى شهد تمام البيعة لأبي بكر» (الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ٢٠٧/٣ والكامل لابن الأثير٢٢٠/٢).

والتي تقول واحدة أخرى منها:«إن علياً لم يحضر السقيفة ، لأنه كان مشغولاً بتجهيز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو والزبير ، وبعض آل محمد «بأبي هو وأمي وبنفسي وبالناس أجمعين».[١٣]

---

(١٣) انظر حدائق الأنوار لابن الديع:٧٦٢/٢.

والتي تقول أخرى منها: «إن علياً وجَدَ في نفسه ؛ لأنه لم يؤخذ رأيه، ثم بايع، ولم يتأخر». أخرجها الحاكم وصححها ، وموسى بنُ عقبة في مغازيه.

وهذه الروايات كما ترى يمكن أن تكون كلها صحيحة ، فيمكن أن يكون وجد في نفسه ، ثم حضر إلى بيته مَن طيَّب خاطرَه ، فخرج مسرعاً إلى البيعة.

أما أنه دعا إلى نفسه ، فتلك فرية أكبر من أنه امتنع، ولم يبايع إلا مكرها أو مضطراً بعد وفاة فاطمة.

وهذا تناقض :

ويدون أن نرهق أنفسنا، ونرهق الأخ الباحث معنا، نحيله على ما ذكره بنفسه في بحثه على لسان علي كرم الله وجهَه ، إذ قال : «أقبل أبو سفيانَ بنُ حرب بن أمية وهو يقول:أين المستضعفان ؟ أين الأذلان على والعباس؟ وأنشد :

ولا يُقيم على ضيمٍ يراد به
إلا الأذلان عَيْرُ الحي والوتد
هذا علي الخسف محبوس برمته
وذا يُشجُّ فلا يَرْثي له أحد

فقال له علي :«إني وجدت أبا بكر لها أهلاً» أ.هـ بنص كلامه ١٩ ع١ . ثم نسأله قائلين :«كيف يعترف عليٌ بأهلية أبي بكر للخلافة. ثم يدعو لنفسه؟ أيستقيم هذا في أي فهم ؟

ولكن هكذا في كل عصر ، صناع الأكاذيب يتناقضون!!

ثم كيف يجمع عمر الحطبَ ، ويحيط به بيتَ علي وشيعته؟ فكم كان مقدار هذا الحطب ؟ وهل كان بارتفاع البيت؟ أم بارتفاع نصفه؟ وكيف جمع عمر الحطب؟ ومن أين ؟ وكم استغرق جمعُ الحطب وحمله إلى ما حول بيت

علي؟ ومن عاون عمرَ في ذلك؟ ومن كان معه؟ ولماذا لم يصف الرواة المولعون بالغرائب هذا الحدثَ العجيب؟؟

ثم كيف كان موقف عليّ وفاطمة(بنتِ محمد) ومن معهم ، والحطب ، يُصَفّ ويجمع حول بيتهم؟ هل أدركوا ما يراد بهم؟ أم لم يدركوا؟ وإذا أدركوا هل تشاوروا في مواجهة الموقف؟ أم أصابتهم الدهشة بالعجز والوجوم، فجلسوا في بلاهة(يريدها الباحث) ينتظرون الموت حرقاً؟

ثم ماموقف عامة المسلمين ، وهم يرون الحطب يجمع حول بيت عليّ وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ثم هل كان عمر فارغاً من مهامّ الإسلام والمسلمين ، وارتجاج الجزيرة وإرجافها بالردة؟ ليجمع الحطب ؟

ثم هل كان حرق البيت يحتاج إلى حطب من حوله؟ أعتقد أن بيوت ذلك الزمان كانت تقوم على مواد أكثرَ قبولاً للاحتراق من الحطب ، مثل القش والخشب والسعف ونحوها.

ثم هل كان عمر على يقين بأن الجماعة الذين في البيت لن يقاوموا ، فذهب وحده؟؟ أم أعد كميناً معه؟ ومن هم ؟ وكم عددهم ؟ هذه أسئلة نضعها أمام العقل المعاصر ، ونقول (للعقلانيين) تعالوا نحاكمكم إلى العقل. فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين !!!

ففي أي (عقل) تجوز هذه الرواية؟ وبأي منطق تسوغ؟ (لا نريد أن نتحاكم إلى علم الجرح والتعديل ، ونقد رجال السند ، ورواة هذا الخبر ، فذلك علم ليس من مستحدثات العصر ومنجزاته ، ولا يروق عند من يدعوننا إلى«العقل»).

ولذا سنعرض رواياة أخرى، وردت في القضية نفسها، ونضعها أمام (العقل) المعاصر ، ونسأل :

- أيها أقرب لعلي كرم الله وجهه؟

- وأيها أليق بطبعه؟
- وأيها أشبه بسابقته والمأثور عنه؟

ثم : لماذا اختار (العقلُ) المعاصر هذه الروايةَ دون باقي الروايات؟

هذه هي الحقائق :

أخرج الدارقطني عن ابن عمر قال : لما برز أبو بكر واستوى على راحلته (أي يريد الخروجَ لقتال المرتدين بنفسه) أخذ علي بزمامها ، وقال : إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد : شِمْ (١٤) سيفَك ، ولا تفجعنا بنفسك ، وارجع إلى المدينة فو الله لئن فجعنا بك ، لا يكون للإسلام نظام أبداً» وأخرجه الساجي عن عائشة أيضاً.(انظر كنز العمال: ١٤٣/٣ ، وانظر البداية:٣١٥/٦، وانظر حياة الصحابة:٨٣/٢).

روى البخاري بسنده عن عقبة بن الحارث قال : «رأيت أبا بكر رضي الله عنه. وحمل الحسن ، وهو يقول : بأبي شبيهٌ بالنبي ، ليس شبيهٌ بعلي . وعلي يضحك»(مناقب الصحابة: فتح الباري:٩٤/٧) وقد ذكر ابنُ كثير في البداية والنهاية:٢٨٦/٥. أن ذلك كان بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن الثابت الذي لا نعلم قائلاً بخلافه ، أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان أحد أربعة من أبطال الصحابة ، جعلهم أبو بكر على أبواب المدينة ، حينما خلت من المقاتلين بعد تسيير الجيوش لحرب المرتدين ، وهؤلاء الأربعة هم: علي ، وطلحة، والزبير ، وعبد الله ابن مسعود، رضي الله عنهم وأرضاهم جميعاً(راجع على سبيل المثال تاريخ ابن خلدون:٦٥/٢).

كذلك ثبت أن علياً كرم الله وجهه كان موضع استشارة أبي بكر رضي

---

(١٤) أغمد سيفك .

الله عنه. في مهمات الأمور، وعظائمها، وفي تسيير الجيوش خاصة ، أخرج ابن عساكر:١/١٢٦ عن الزهري عن عبد الله بن أبي أوفى الخُزاعي رضي الله عنه ، أنه قال : لما أراد أبو بكر رضي الله عنه غزوَ الروم دعا عليّاً وعمرَ ، وعثمانَ ، وعبدَ الرحمن بنَ عوف ، وسعد بن أبي وقاص، وسعيدَ بن زيد ، وأبا عبيدة بن الجراح ، ووجوه المهاجرين والأنصار، فقال أبو بكر: ما ترى يا أبا الحسن ؟ فقال :أرى إن سرت إليهم بنفسك ، أو بعثت إليهم نُصرت عليهم إن شاء الله .. لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يزال هذا الدين ظاهراً على كل من ناوأه ، حتى يقوم الدينُ وأهله ظاهرون»(١٥)

إن الباطل كان زهوقا :

أمام هذه الأخبار الثابتة والحقائق تزهق الدعاوى الباطلة ، ولا يبقى لها في ميزان البحث والحق كيان ، فكيف يعقل أن يكون من هُدّد بحرق بيته. وجُمع الحطب حوله مستشاراً ووزيراً؟ وكيف يكون من يدعو إلى نفسه مقاتلاً بين يدي من خرج عليه ، وامتنع عن بيعته؟ وكيف ..؟ وكيف ؟

أسئلة كثيرة لا نجد لها جواباً عند (العقلانيين) الذين يزعمون أنهم يحتكمون إلى(العقل) ويزنون به الأمور.

لا مجال للقول بالتغير :

وأخشى أن يماري أحد هؤلاء قائلا: إن هذا كان بعد فترة ، من خلافة أبي بكر، بعد أن تم الصلح بين علي وأبي بكر، والجواب القاطع ، أن ذلك مستحيل عقلاً لعدة أسباب منها:

- أن مدة خلافة أبي بكر كلّها كانت سنتين وأشهرا، وليست هذه الفترة بالتي تكفي ليتحول العدو المناوىء، الذي يدعو إلى نفسه ، ويشق عصا الطاعة ، ويهدّد بتحريق بيته عليه وعلى شيعته -ليست هذه الفترة بالتي

(١٥) حياة الصحابة ١/٤٤٨.

تكفي ليتحول هذا (العدو) إلى مستشار وقائد ، وصديق وحبيب ، لمن ناوأه وتمرد عليه.

- أن عزم أبي بكر على الخروج لقتال المرتدين والذي ردّه عنه عليّ كان في الأيام الأولى لخلافته.

- أن إقامة عليّ على أبواب المدينة وحمايتها كان كذلك في أول عهد أبي بكر بالخلافة.

ثالثاً : كيد بني أمية للإسلام !!:

هذا هو الدليل الثالث ، أو الحدث الثالث الذي اختاره الباحث ، ليخلص منه بعد تحليله لدروس التاريخ التي نتعلمها عند تعاملنا مع (أفكار الآخرين).

وهو في الواقع ليس حدثاً واحداً ، بل أحداث وآثار كثيرة لهذا الكيد الذي قام به الأمويون ، فمن ذلك :

- « إذكاء الخلاف بين بني هاشم وبين أبي بكر».

- « خضوع عثمان لتطلعات بعض أهله، ورفع بني مروان على رقاب الناس».

- « التوصل إلى السلطة بالدهاء والكذب».

- « اتخاذ قميص عثمان مبرراً مكذوباً لحرب علي».

- إن الخلاف في عهد عثمان قد وصل إلى الكليات والمؤشرات العامة في المجتمع الإسلامي.

- إن رأي عثمان في(طبيعة الخلافة) وأنها قميص ألبسه الله إياه ، هو الذي جعله يتخشن في معاملة كثيرين من خيار الصحابة ، بعد أن كان معروفاً قبل الخلافة بأنه أرفق الناس بالناس ، فضرب بعضَ الصحابة ونفى بعضَهم.

- شمل الخلافُ فيما شمل من الكليات طبيعة مالية الدولة الإسلامية ، فقد رأي فيها عثمان أنها (مال الله) الموكول إليهم للتصرف فيه كيفما شاءوا ، بينما رآه الآخرون أنه مال المسلمين.

- أطلق عثمان يده في بيت المال ، فأعطى الأغنياء ، وبالغ حتى بلغ عطاؤه لزيد بن ثابت مائةَ ألف ، وحلّى بعض أهله من النساء جواهرَ كانت في بيت المال ، وقال:«لنأخذن حاجتنا من هذا المال وإن رغمت أنوف أقوام» ص٢٧ ع٢ س١٣

- ضجر خازن بيت المال من تصرفات عثمان، فعلق مفاتيح بيت المال على منبر الرسول في المسجد ،وجلس في بيته . ص٢٨ ع١ س٣

- «كان إطلاق عثمانَ ليده في الأموال العامة بمثابة الضوء الأخضر لكل عماله في الأمصار، ليمدوا أيديَهم ،حتى إلى أموال الصدقة» ص٢٨ ع١ س١٠

- « أدت السياسةُ المالية لعثمان رضي الله عنه إلى تنمية طبقة من المنتفعين بالإسلام. وكان أغلبهم من الطلقاء» ص٢٨ ع٢ س١٣.

- «وجماعة المنتفعين بالإسلام هي التي حالت بين عليّ وبين الثورة التصحيحية عندما قاتلته وخرجت عليه» ص٢٨ ع٢ س٢١

- « كان معظمُ ولاة عثمان غلماناً تثور حول تدينهم ، وحول أخلاقهم شبهات كثيرة ، ولم يكن لهم شيء من الصلاحيات ينفعهم غيرُ صلاتهم بالخيفة» ص٢٨ ع٢ س٣٠

- خرج على عثمان ثوار الأقاليم.

- «وعارضه شخصياتٌ عامة من كبار الصحابة معارضةً سلمية، إلا أن قدرتهم على المناورة كانت محدودة ، بسبب تمادي عثمانَ في انحرافاته ، سواء في أمور الدين أو أمور الدنيا ، ومعاداته لكل من ينصح له، بل واعتدائه عليه».ص٢٩ ع٢س١٢

- «إن الخلافات والصراعات هذه ليست افتعالات تآمرية، أو انحرافات

أخلاقية، أو تحريضات عميلة ، كما يحاول البعض تصويرَها» ص٣٠ ع١ س٢٧.

- « وإن هذه الأطراف المتصارعة تحولت بعد الصراع بين علي ومعاوية إلى صيغة دينية مع أنها في الأصل سياسية».

عِرضُ الأمة :

هذه هي مجمل التهم التي كالها الباحث لبني أمية ، وخليفتهم عثمانَ بنِ عفان ذي النورين رضي الله عنه ، وإني لأعجب -ولعلك تعجب معي كيف تسنى له جمعُ هذا الحشد الهائل من التهم في هذه السطور؟ وكيف صاغ أسلوبه بهذه الحدة العجيبة؟ التي جعلت كلَّ كلامه سهاماً قاتلة ، وحراباً مشرعة وكأنه يطلب ثأراً لم تجف دماؤه بعد!!

وكل واحدة من هذه الكبائر تحتاج إلى أن نخصها بالحديث ، ونتتبَعها بالهدم والنقض والتفنيد ، فهي مفتريات وأباطيل ، كاد بها أعداء الإسلام منذ القدم ، لبني أمية ، وحُق لهم ، فبنو أمية هم الذين زلزلوا عرش الطغاة، وثأروا للشعوب المستضعفة من الاستبداد الروماني ، وأذلوا كبرياءَ القياصرة والأباطرة، فأتموا تطهير الشام ومصر منهم ، وغسلوا الشمالَ الإفريقي من رجسهم ، وركبوا وراءهم البحر ، حتى فزَّعوهم ، وقطعوا عليهم سبيل التفكير في أية عودة ، وأحكموا قبضتهم على (رودس) و(صقلية) و(قبرص) و(مالطة) ، فطهروا البحر المتوسط من قرصنتهم، وأعلنوه بحيرةً إسلامية، وتقدموا منذ فجر دولتهم نحو أسوار القسطنطينية يزلزلونها، ثم عبروا المضيق (مضيق جبل طارق) يحملونَ راية الإسلام ؛ حتى ركزوها في جنوب فرنسا ، وهم في الطريق يدكون بالعدل والرحمة والعلم معاقلَ الظلم والجبروت والجهل.

وفي المشرق امتد الجناح الثاني لدولتهم، حتى أظلوا به دولاً ما عرفت قبلهم طعم العدل ، ولا استروحت نسيمَ الرحمة ، ولا رأت نورَ العلم ، وسل بلاد السند والهند، وما وراء النهر وخراسان، وبخارى وسموقند ، وخوارزم-

يأتك الخبر اليقين، ويا ويح قتيبة بن مسلم الباهلي وإخوانه ، إذا اطلعوا علينا اليوم ، فرأوا ما نحن فيه من مهانة وهوان، ماذا سيقولون عنا؟ وماذا سيقولون لنا؟

ويا ويحهم إذا علموا أننا مع عجزنا وهواننا ، أو بسبب عجزنا وهواننا ننكفيء على تاريخنا نمزقه ، وعلى أمجادنا نلطخها بالأوحال ، وعلى أسلافنا وسادتنا ، ننبش قبورهم ، ونسحق جماجمهم ، تعويضاً عن صغارنا وذلتنا!!

يا ويح قتيبة وأضراب قتيبة ، إذا اطلعوا علينا ، فرأونا نتطاول على عهدهم وأيامهم، ونُسقط ما بأنفسنا على عصرهم ورجالهم ، إخالهم سيكونون أكرم منا ، كالعهد بهم، إخالهم سيجردون الجيوش لا للانتقام منا، والثأر لما فعلناه بسيرتهم وأخبارهم ، بل ليغسلوا عنا عارَنا ، ويرفعوا من الوحل رءوسَنا ، وينفضوا الخزي عن جباهنا ، وعندها ستنقشع عن عيوننا غشاوتُها ، وستزول عن قلوبنا عمايتُها.

يا ويحنا !!! إن التاريخ عِرض الأمة ، فلننظر كيف نصنع بعِرضنا؟؟

أي كيد هذا؟

لقد أبلى الأمويون في سبيل الإسلام منذ أسلموا ، وكان لهم الفضل في كثير من أيامه ووقائعه، قادوا الجيوش ، وقاتلوا ، وناضلوا ، واستماتوا واستقتلوا في الدفاع عن الإسلام ، ونعرض طرفاً من سيرتهم ، لنرى أيَّ كيد هذا الذي كادوه للإسلام؟

- أبو سفيان :

هذا أبو سفيان بنُ حرب ، رأس بني أمية ، يسلم يوم الفتح، ويجاهد في سبيل الله ، فيتقدم مع رسول الله إلى معركة حنين ، جنديا في جنود المسلمين، وهو الذي كانت إليه راية الرؤساء في قريش ، ويصدق في القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الطائف ، ويتصدى مع من تصدى

لأهل الطائف المتحصنين بحصونهم ، ويتعرض لرماتهم ، حتى يفقد إحدى عينيه، ويأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : يارسول الله ها قد فقدت عيني في سبيل الله. فيقول عليه الصلاة والسلام :«إن شئت دعوت الله فردت عليك، وإن شئت ، فالجنة »قال :الجنة.

كل ذلك ولما يمض على إسلامه إلا نحو شهر واحد .

ويولّيه رسول الله صلى الله عليه وسلم على نجران، ويظل والياً عليها حتى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .وقد كلفه الرسول بمهمة أخرى أخطرَ من الحرب، من الناحية النفسية ، ذلك أنه وجهه إلى (مناة) فهدمها. وهي التي كانت إلاهاً يُعبد من أيام.

ثم نلقاه هناك في حروب الشام، يوم اليرموك ، في الميدان ، في حومة الوغى، وهو يومئذ شيخ يدلف إلى الثمانين من عمره ، تحت راية القيادة ، يجالد ويجاهد ، وينادي في المسلمين يحرضهم ويحثهم، وكان يقف على الصفوف وهو يقول : الله الله، إنكم دارة[١٦]العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم ، وأنصارالمشركين. اللهم هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك ، وروى يعقوب بن سفيان ، وابن سعد بإسناد صحيح ، عن سعيد بن المسيب عن أبيه، قال : « فُقدت الأصوات يوم اليرموك ، إلا صوتَ رجل ينادي : يانصرَ الله اقترب ، يانصر الله اقترب ، فنظرت فإذا هو أبو سفيان » وانجلت المعركة عن ذلك النصر المؤزر، الذي يمكن أن يسمى (أيضاً) بفتح الفتوح ، وانجلت المعركة كذلك عن شيخ ضرير في نحو الثمانين من عمره ، ذهبت اليرموك بعينه الثانية، فألحقتها بأختها التي ذهبت بها غزوة الطائف (راجع إن شئت ، أسد الغابة:١٢/٣، ٢١٦/٥ ، الإصابة : ١٧٩/٢، الاستيعاب بهامش الأصابة:٨٥/٤).

فانظر أيَّ كيد كاده للإسلام هذا الرجل!!!

---

(١٦) أي حماةٌ قادة.

- هند :

هذه العملاقة الجسور ، ذات التاريخ العميق العريض ، التي أخذت بشاربي أبي سفيان زوجها يوم الفتح ، حين أسلم ، وأعلن الاستسلام ، ونادت قومَها: اقتلوه .. نراها في اليوم التالي تقول لزوجها:«أريد أن أبايع محمداً فقال لها: قد رأيتك أمس تكذبين ، قالت ؛ والله ما رأيت اللهَ عُبد حقَّ عبادته في هذا المسجد قبل الليلة ، والله إنْ باتوا إلا مصلين قياماً وركوعاً وسجوداً»قال : فإنك قد فعلت ما فعلت ، فاذهبي برجلٍ من قومك معك ، فذهبت إلى عمرَ بنِ الخطاب ، فذهب معها ..إلى آخر ما هو معروف عن بيعتها.

وما إن يدخل الإسلام قلبها، حتى نراها تمسك (بالقدوم) تنقض به على صنم لها في بيتها، وهي تقول : تالله إن كنا معك لفي غرور.

ويوم اليرموك ، حيث رأينا زوجها أبا سفيان تحت الراية في قلب الجيش، رأينا(هندَ بنت َ عتبة) خلف الجيش ترتجز محرضة للمسلمين على القتال ، منادية فيهم بالدفاع عن الإسلام ، مخوفة مهددة من تحدثه نفسه بالتراجع ، ومعها النساء المسلمات يمسكن بأعمدة الخيام ، وبالحجارة يتوعدن من تحدثه نفسه بالفرار.

فيالله للإسلام !! أي كيد كادته له هذه المرأة !!

- ويزيد بن أبي سفيان :

ممن أسلم يوم الفتح ، ومع النبي صلى الله عليه وسلم سار إلى حنين ، ثم الطائف ، واختاره أبو بكر الصديق رضي الله عنهما ليقود أحدَ جيوش الشام ، وخرج معه يشيعه ماشياً، وأبلي يزيد في سبيل الإسلام ماشاء الله له أن يبلي ، فكان صاحب لواء الجناح الأيسر يوم اليرموك ، وشارك في وقعة (أجنادين) ، ثم اتجه إلى مدن الساحل الجنوبي ، ففتح (صيدا) و(عرقا) و(جبيل) و(بيروت) وظل يجاهد في سبيل الله ، حتى قضى نحبه في الميدان في طاعون عمواس، رضي الله عنه وأرضاه.

- ومعاوية بن أبي سفيان :

كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورفيق أخيه يزيد في فتوحات الشام ، وخليفته في الجيش من بعده ، ولاه عمر بن الخطاب ، ثم جمع له(الشامات) كلها، فظل واليه عليها إلى يوم وفاته ، وأبو البحرية الإسلامية ، وغازي القسطنطينية ، وكان جيشه إليها بقيادة ابنه يزيد ، وكان في الجيش ابنُ عباس، وابنُ عمر ، وابنُ الزبير ، وأبو أيوب الأنصاري، وغيرُهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم(انظر الكامل لابن الأثير: ٢٢٧/٣).

فاعجب معي أي كيد كاده بنو أمية للإسلام !!!

من يكيد لمن ؟

هذا الكيد الأكبر الذي يكيده أعداء الإسلام ،للإسلام ، ولرجال الإسلام، منذ كان للإسلام الصولة والجولة ، قد وجد من يغذوه ، ويُذكي أوارَه، حتى صار ينتقل من جيل إلى جيل ، ويسري من عصر إلى عصر سريان السموم في الدماء.

هذا الكيد لم يقتصر على تشويه بني أمية وحدهم ، واتهامهم بالتآمر على الإسلام والانقضاض عليه، بل تعدى بني أمية حتى شمل كلَّ رجال الإسلام الأولين تقريباً ، وكلَّ خلفائه وقواده اللاحقين تحقيقاً.

وفي بحث الأخ الكريم شيء من هذا غيرُ قليل ، فلم يسلم من غمزه عمر ولا أبو بكر ولا علي[١٧]رضي الله عنهم وأرضاهم، وغفر لنا عجزَنا وقصورَنا.

فالذين اتهموا بني أمية بالكيد للإسلام ، هم أعداء الإسلام حقاً، الذين عرفوا كيف يكيدون له ، وليس بنو أمية هم الذين كادوا للإسلام !!!

---

(١٧) سنشير إلى ذلك فيما يلي إن شاء الله .

ونستطيع أن ندفع قائمةَ التهم التي يُكيلونها لبني أمية ، ورجال بني أمية ، إذا هدمنا الأساس الذي بَنَوْها عليه ، وهو أساسٌ واهٍ هارٍ ، سينهار بأهله في نار جهنم ، أعني اتهامَهم بفساد النية ، والكيد لهدم الإسلام .

هل يشهد العقل ؟؟

منذ تولي عثمانُ بنُ عفان رضي الله عنه سنة ٢٣هـ إلى سقوط مروانَ بن محمد آخر خلفاء بني أمية سنة ١٣٢هـ والدولة بهذا المفهوم أموية مع ملاحظة فترة «الثورة التصحيحية(١٨) التي حاولها الإمام علي كرم الله وجهه»، وهذه المدة تزيد على المائة سنة.

والسؤال الذي طرح نفسه بإلحاح : كيف يدوم سلطانٌ طوال هذه المدة ، مع ما فيه من قائمة المثالب والمعايب التي أوردها الأخ الباحث ؟؟

بل يلد السؤال سؤالاً آخر : إذا كان من الممكن أن يدوم السلطان والملك مع هذا الفسادِ كله، فكيف يتسعُ ويمتد ، ويقوى ويعلو، ويزدهر ، حتى يبلغَ هذا المدى من الاتساع ، وتدين له كل هذه الأجناس والجماعات ، ويوحدها في أمة واحدة، وتحت أمير واحد؟؟ بل كيف تزدهر العلوم والآداب ، ويستمر العمران في هذه الأمة بهذا الحد والوصف ؟؟

هل يمكن لأمة يطلق حاكمها العام «الضوء الأخضر لكل عمال الأمصار ليمدوا أيديهم حتى إلى أموال الصدقة »أن تعيش وتحيا كل هذه المدة ؟ هل يمكن لأمة «معظم ولاتها غلمان تثور حول دينهم وأخلاقهم الشبهات، وليس لهم من الصلاحيات غيرُ صلتهم بالخليفة» أن تعيش وتحيا بهذه الصورة؟؟

هل يمكن لأمة يقول حاكمها العام:«لنأخذن حاجَتنا من هذا المال، وإن رغمت أنوف أقوام »أن تزدهر وتبقى؟؟

بدون الرجوع إلى روايات ، وتمحيص الأسانيد ، وفضح المفتريات ، وكشف الأكاذيب تعالوا نحتكم إلى العقل.

(١٨) هذا التعبير ليس من عندي ، وإنما مستعار من الدكتور محرم .

هل يقبل عقل عاقل أن تقوم دولة بهذا الاتساع المكاني ، وهذا العمق الزماني ، وهي على ما وصفها الأخ الباحث ؟؟.

وإذا كانت تكيد للإسلام ، فلماذا لم تعلن الانسلاخ عنه منذ عهد معاوية، أو مروان ، أو عبد الملك، أو الوليد.حاشا لله !!!

هذه النيات من يطلع عليها :

الذين يزعمون أنهم يعلمون النيات ، ويطلعون على خبايا النفوس والضمائر، يظلمون أنفسَهم ، فما كُلفوا بهذا دينياً، ولا كُلفوا به علمياً ودراسياً ، فما يقتضيهم(منهجُ البحث)([19]) ولا (العلمُ) أن يتهموا بني أمية بأنهم «أسلموا قفزاً إلى سفائن الحكم الصاعد ، وشراءً للسلامة ، وكيداً للإسلام ، ليدمروه من داخله.

ولو حاكمناهم إلى المنهج العلمي الحق ، والمسلك الاستقرائي الأرشد ، لبطل ما يزعمون ، وسقط ما يدعون.

سر هذا الدين :

إن سر هذا الدين ، وقدرتَه على امتلاك نواصي القلوب حينما يفتحها الله لغريبٌ عجيب ، فما إن يشهد الرجل : ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، حتى يتبدل خَلقاً آخر، وتتفتح نفسُه بمعان جديدة ، وصور جديدة ، وأحاسيسَ جديدة ، لم يألفها من قبل ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، يجدها الباحث مدَّ يده لو أراد ، فهذا (أبو جندل) و(أبو بصير) ، يُسلمان بمكة بعد صلح الحديبية ، وتاريخهما وسيرتهما أشهر من أن تروى ، وهذا (نعيم بن مسعود) يسلم في أثناء غزوة الخندق ، وما هي إلا ساعات من إسلامه، حتى كان له دور في حسم المعركة لصالح المسلمين ، وهو رجل فرد ، أسلم لتوه.

وذلك الذي كان يأتي لرسول الله صلى الله عليه وسلم مغتالاً غادراً،

---

(١٩) أيها المنهج كم من الجرائم ترتكب باسمك ، ورحم الله عملاق العربية العقاد، فقد سخر من هؤلاء يوماً، فقال: إذا زدنا تعطيش (الجيم) يصير(المنهش).

فما إن يكلمه أو يمسحُ على صدره ، حتى يصير بنفسه وماله وولده فداء للرسول وللإسلام .

ما إن يسلم الرجل حتى تتفتح في فؤاده صفحةٌ جديدة:

«صفحة يقرأ فيها القارىء قبل كل شيء ماذا يصنع الإسلام بالنفوس ، ويعلمُ منها قبل كل علم ، أن هذا الدين كان قدرة بانية منشئة من لدن المقادير التي تسيطر على هذا الوجود[20]».

كيف وقد فصل صلى الله عليه وسلم في القضية ؟

كان صلي الله عليه وسلم موصولاً بالسماء ،تُعلمه بأهل النفاق ، وسماهم بأعيانهم عليه الصلاة والسلام(لحذيفة)صاحبِ السر المكنون رضي الله عنه، فكيف يغيب عنه صلى الله عليه وسلم نيات هؤلاء الأمويين الطلقاء؟؟ وكيف يوليهم الولايات ، والأعمال ، والمهمات؟؟

فقد ولى صلى الله عليه وسلم (عتابَ بنَ أسيد بنَ أبي العاص بن أمية) على أفضل الأرض وأطهرها ، على مكةَ المكرمة ، وهو أول والٍ لها بعد الفتح ، ولم يكن قد مضى على إسلامه إلا قليل ، فهو من مسلمة الفتح، ثم إنه كان يومها في مقتبل العمر ، لا يزيد عن العشرين إلا قليلاً، وأقام للناس الحج في موسمهم بعد الفتح سنة ثمان ، أي أسلم في رمضان، وأمَّ الحجيجَ بعد نحو شهرين. وقد قال له صلى الله عليه وسلم :« ياعتابُ: تدري على من وليتك؟ وليتك على أهل الله عز وجل ، ولو أعلم لهم خيراً منك ، استعملته عليهم»(انظر أسد الغابة: ٣٥٨/٣).

«واستعمل صلى الله عليه وسلم على نجران (أبا سفيان) كما أشرنا من قبل.

واستعمَل (خالدَ بنَ سعيد بنَ العاص) على صدقات بني مُذحج ، وعلي صنعاء واليمن.

واستعمل (عثمانَ بنَ سعيد بنَ العاص) على تيماء ، وخيبر ، وقرى

---

(٢٠) من كلام العقاد في وصف أثر الإسلام في نفس عمر.

عرينة.

واستعمل (أبانَ بنَ سعيد بنَ العاص) على بعض السرايا ، ثم استعمل على البحرين ، فلم يزل عليها حتى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم»[21]

أبعد هذا يصح لقائل أن يشقشق بلفظ (الطلقاء) أو (النيات) أو (الكيد) أو (المنتفعين بالإسلام) أو .. أو .. ؟؟

لقد فصل في القضية المعصوم صلى الله عليه وسلم ، وصدق الواقعُ قضاءَه ، وصدّق المستقبلُ حكمَه ، وأقر العقلُ المستقيم أمرَه.

وشهادة ثانية :

إذا كانت شهادة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، لصدق إسلام بني أمية ، ويقين إيمانهم ، قد جاءت مفهومة من توليتهم الولايات والأعمال ، فيما أوردناه آنفاً.

- فقد جاءت صريحة ناطقة باللفظ (بالمنطوق كما يقول الأصوليون) فيما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها؛ إذ قالت : جاءت هندُ بنتُ عتبة فقالت:«يارسول الله ، ما كان على ظهر الأرض أهلُ خباء(بيت) أحبَّ إليّ أن يذلّوا من أهل خبائك ، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهلُ خباء أحبَّ إلى أن يعزّوا من أهل خبائك ، قال : وأيضاً.والذي نفسي بيده».

ويقول الحافظ في الفتح :أراد بقوله : وأيضاً ، أي وزيادة ،أي وستحبينني أكثر.

ونبه هنا إلى أمور :

* أن رواية عائشة رضي الله عنها ، وبصفتها امرأة أقدر على أن تعرف ما بنفس (هند) رضي الله عنها، فلو لمحت دخَلاً أو تمويها ، أو زيفاً، ما قالت، ولا روت الحديث، أو علقت عليه.

* أن من يعرف (هنداً) وقوة نفسها، وعظمتها وكبرياءها، واستقامةَ طبعها، إنْ في الجاهلية وإن في الإسلام ، من يعرف ذلك -يستيقن صدقَها.

(٢١) العواصم من القواصم : ٨٨ من تعليق العلامة محب الدين الخطيب.

فإذا صدقها صلى الله عليه وسلم ، فهو صدقٌ فوق صدق. ولتسقط دعاوى (التقية) و(النفعية) .. .. وما يدور في رءوس البعض من أوهام .. إلخ.

ولهند في جاهليتها موقفٌ مشابه ، مع زينبَ بنتِ المصطفى صلى الله عليه وسلم، فقد كانت بمكةً مع زوجها أبي العاص بن الربيع ، وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم من يأتيه بها إلى المدينة، وكان ذلك بعد (بدر) ولما تجف دماء قريش بعدُ، وكانت (هند) قد أصيبت بأبيها وأخيها وعمها، وكانت تطوف على مجالس قريش وأنديتها تُذكي نارَ الثأر ، وتؤجج أوار الحرب ، وفي الطريق لقيت (زينبَ) بنتَ المصطفى رضي الله عنها (وكان قد تسرب خبرُ استعدادها للخروج لأبيها) فماذا قالت لها؟؟ قالت هند: (أي بنتَ محمد: بلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك !! .. أي ابنةَ عمي ، إن كانت لك حاجة بمتاعٍ ممايعينك في سفرك ، أو بمالٍ تبلغين به إلى أبيك ، فعندي حاجتُك ، فلا تستحي مني ، فإنه لا يدخل بين النساء ، ما يكون بين الرجال).

تروي زينب رضي الله عنها ذلك ، وتقول:« .. ووالله ما أراها قالت إلا لتفعل».

ثم يوم خروج زينب يتعرض لها رجالٌ من قريش ، يريدون إرجاعها ، فتسقط من على ناقتها، وكانت حاملاً، فتنزف ، وتسمعُ هند، فتخرج مسرعة، وترفع عقيرتها في وجه قومها:(معركة مع أنثى عزلاء؟؟ أين كانت شجاعتكم يوم بدر؟) وتحول بينهم وبين (زينب) ، وتضمها إليها، وتمسح عنها مابها، وتُصلح شأنها، حتى استأنفت الخروج إلى أبيها في أمن وأمان.

هذه هند !! فأيٌّ بها أشبه ؟؟

كليات وجزئيات :

بمنطق (الإسقاط) يذهب الأخ الباحث إلى أن تغييراً في (الأيديولوجية)(حسب تعبيرهم الآن) قد وقع في عصر عثمان رضي الله عنه، وكأن الدولة استبدلت بكتاب ربها الذي قتل عثمان وهو يتلوه(فلسفةً)

أخرى، فيرى أن «الخلاف انتقل مع مجيىء عثمان رضي الله عنه ، واتسع إلى حدوده الطبيعية ، إن لم يكن تجاوزَها » ص ٢٦ ع٢ س٣ من أسفل.

وهو يقصد بالحدود الطبيعية ، ما أسماه (بالكليات القيمية) ويعني بها فيما يعني: النظرة إلى الخلافة ، وطبيعتها ومصدرها، والنظر إلى المال: مال الدولة.

ولست أدري هل يقصد بذلك أن اقتصار الخلاف في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والشيخين من بعده على«النظر في الأمور التفصيلية لتعقيدات الحياة اليومية»- كان قصوراً في السياسة ، ونقصاً في الفهم ، حيث لم يبلغ «الحدود الطبيعية» فهو بذلك يطبع ما قبل عثمان بالقصور والسذاجة ، ثم يطبع عصر عثمان ومابعد عثمان بالفساد والكيد للإسلام.؟

قميص الخلافة :

يقول:«لقد شمل هذا الخلاف فيما شمل من(الكليات) طبيعةَ الخلافة ، فقد رأى فيها عثمان رضي الله عنه، ما جعله يقول:(ماكنت لأخلع قميصاً قمّصنيه الله عز وجل) أو يقول: (لأن أقدم فتُضرب عنقي أحب إلى من أن أنزع سِربالا سَرْبلنيه الله عز وجل)، ورأيُ عثمان هذا يرفع عنه المساءلة أمام الناس ، وهو رأي وافقه فيه البعض ، ولكن خالفه فيه كثيرون ، بل وخرجوا عليه بسببه»أ.هـ ص٢٧ع١س٩.

يريد -عفا الله عنا وعنه- أن يقول : إن عثمان فهم أن الخلافة جاءته تفويضاً من الله ، فليس لأحد أن يسائله ، وبهذا الشعور اندفع في استبداده وأخطائه. هذا ما يريد أن يقوله بالتحديد.

ولست أدري من أين فهم هذا الفهم ؟ ولا كيف فهمه؟ لو عاد إلى قراءة هذا الخبر الذي وردت فيه هذه العبارة عن عثمان رضي الله عنه ، وقرأه كاملاً في سياقه، ولم يقرأه مبتوراً ، لوجد أن عثمان لم يفهم أبداً أنه فوق المساءلة ، وأن الخلافة منحه الله إياها، ليصير ظلّ الله في الأرض ، لا

يسائله بشر !! لا يقول بذلك تاريخ عثمان، ولا مواقفهُ ، مع الخارجين عليه ، الذين استجاب لهم ، وعزل عمالَه وولاته إرضاءً لهم ، وقد روى الباحث نفسُه شيئاً من ذلك في ثنايا حديثه ، وعثمانُ رضي الله عنه حينما قال ذلك القول، كان في موقف المستشير ، يؤيد ذلك ما أورده البلاذري في أنساب الأشراف (٧٦/٥) من حديث نافع عن ابن عمر:«أن ابنَ عمرَ دخل على عثمان ، فقال له: انظر ما يقول هؤلاء!! يقولون : اخلع نفسك أو نقتلك.

قال له ابن عمر : أمخلد أنت في الدنيا؟

قال : لا

قال : هل يزيدون على أن يقتلوك؟

قال : لا

قال : هل يملكون لك جنة أو ناراً؟

قال : لا

قال : فلا تخلع قميصَ الله عنك، فتكونَ سنةً ، كلما كره قوم خليفتهم خلعوه أو قتلوه»(راجع ابن العربي: العواصم :١٣٠، ومحب الدين الخطيب هامش(١) نفس الصفحة).

وورد في (الطبري:١١٧/٥، ١١٨، وفي البداية والنهاية:١٨٤/٧، وفي أنساب الأشراف :٩٢/٥) رواية أخرى:«أن عثمان رضي الله عنه جيىء إليه بالأشتر، فقال :يريد القوم منك إما أن تخلع نفسك ، أو تقص منها ، أو يقتلوك!! فقال: أما خلعي نفسي ، فلا أترك أمة محمد بعضها على بعض..» وانظر (ابن العربي: العواصم :١٢٩، ومحب الدين الخطيب هامش(٣) الصفحة نفسها)فذو النورين رضي الله عنه لم يخلع نفسه(لنظرية كلية في فهم طبيعة الخلافة وفلسفتها) وإنما كان ذلك وزناً للأمور وتقديراً ورعايةً لمصلحة الأمة، رأى هو هذا الرأي ، واستشار ، فأشار عليه به الصحابي الفقيه ابنُ عمر رضي الله عنه ، وهو من هو تعبداً وورعاً وإخلاصاً، وعلماً ونوراً ، وللأسف لا يسلم من الغمز ، فيقول الأخ الباحث ، عن رأي عثمان هذا:«.. ووافقه فيه البعضُ » سبحان الله !! البعض هذا هو ابنُ عمر رضي الله عنه، ولا أدري بماذا أصف إخفاءه (وهذا الإخفاء يعتبر بمعايير علمائنا نوعاً من التدليس)لاسم ابن عمر هنا، ففيه ما فيه من إلقاء

ظل التهمة والشك والريبة على هذا الذي وافق عثمانَ في (فلسفته ونظريته)، لعلمه أنه لو أظهر اسمه ، لكان للقارىء من الخبر موقف آخر.

وكأني بعثمانَ رضي الله عنه تذكر بفتوى ابن عمر هذه حديثاً حدثه إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ قال له: «ياعثمان إن ولاك الله هذا الأمر يوماً ، فأراداك المنافقون أن تخلعَ قميصك الذي قمّصك الله ، فلا تخلعه» يقول ذلك ثلاثاً[22] (راجع ابن ماجه رقم ١١٢ باب ١١، ومسند أحمد : ٧٥/٦ ، ٨٦ ، ١١٤، ١٤٩).

بل كل مسلم يعلم أن الأمور كلها بيد الله سبحانه وتعالى ومردها إليه برغم الأسباب الظاهرة القريبة ، فهو سبحانه مسبب الأسباب ، ولذا صح أن تُسند الأمور إليه، فالمسلم دائماً يقول عن ماله، أو جاهه، أو سلطانه : هذا من الله ، ومن فضل الله ، ولا يعني ذلك أنه لا يعترف بالأسباب من جد أو اجتهاد ، أو تولية من الحاكم العام ، أو أصوات الناخبين في الانتخابات ، فعثمان رضي الله عنه حينما قال ذلك ، لم يفلسف (نظرية كلية في طبيعة الخلافة) ولم يكن قد نسي أبداً أنه تولاها باختيار من بين الستة أصحاب الشورى.

وأي قميص هذا مهما بلغ يدفع الإنسان حياته ثمناً له؟!! لقد كان الموت أمام عينيه رضي الله عنه، فأين خلع القميص ، وهو مخلوع لا محالة بالموت ؟!؟!!

إنها التضحية بالنفس في سبيل الله ، حتى لا يتحمل وزرَ سنة يسُنها في نظام الحكم الإسلامي ، بل إن إباءه رضي الله عنه أن يدافع عنه أحدٌ من الصحابة ، كان ضرباً عجيباً من الاستسلام لقضاء الله «ولم يُؤثر أن يراق بسببه مِحْجمة دم ، حتى قال لغلمانه: من ألقى سلاحه ، فهو حر»(راجع :غياث الأمم في التياث الظلم لإمام الحرمين: فقرة ١٨١ ، الطبقات لابن سعد: ٦٦/٣).

---

(٢٢) والحديث صحيحٌ ، انظر صحيح ابن ماجه، وظلال الجنة في تخريج أحاديث كتاب السنة لابن أبي عاصم ، وتخريج مشكاة المصابيح(كلها للألباني)

لمن المال ؟؟:

يرى الكاتب أن «طبيعة مالية الدولة الإسلامية ، إحدى (الكليات)التي نشب حولها الخلاف ، فقد رأى فيها عثمان رضي الله عنه، والولاة من أقاربه ، وفي مقدمتهم معاويةُ رضي الله عنه أن المال (مالُ الله) الموكول إليهم للتصرف فيه كيفما شاءوا ، بينما رآه الآخرون ، وعلى رأسهم الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري رضي الله عنه «مال المسلمين» وللمسلمين الحقُّ في مراجعة الخليفة بشأنه ومحاسبته عليه» ص٢٧ع ٢ س١.

وهذا أيضاً من بِدْع هذا العصر ، وفلسفته ، وهو تفسير للأحداث (بالإسقاط).والأمر أقرب من ذلك وأيسر ، وأهون مما يظن الظانون، فالمسألة لا تعدو خلافاً حول التصرف في فائض المال الذي أفاءه الله على المسلمين، سواء الأفراد أو بيت المال.

ذلك أن أبا ذر رضي الله عنه ، كان يرى أنه لا يحل للفرد ، ولا للدولة أن يبقى في ملكه ما يزيد عن قوت يومه وليلته ، أو شيء ينفقه في سبيل الله ، أو يعده لغريم، وكان يستشهد على ذلك بقوله تعالى : (والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم»(التوبة :٣٤)وكأنه رأى أن ما فوق المال الذي يكفي لهذه الأغراض الثلاثة يعد من الكنز، الذي توعد عليه القرآن الكريم بالعذاب الأليم(انظر محمد سليم العوا: في النظام السياسي للدولة الإسلامية:٩٦) وهذا خلاف فقهي ، لم يوافق أبا ذر عليه فقهاءُ الصحابةِ ، فابن عمر رضي الله عنه وهو من هو فقهاً وورعاً يقول: «ما أديت زكاته ، فليس بكنز ».

قال الإمام ابنُ تيميةَ رضي الله عنه في(منهاج السنة: ١٩٨/٣):«كان أبو ذر رجلاً صالحاً زاهداً ، وكان مذهبُه أن الزهدَ واجبٌ ، وأن ما أمسكه الإنسانُ فاضلاً عن حاجته، فهو كنز يكوى به في النار،واحتج على ذلك بما لا حُجةَ فيه من الكتاب والسنة.. ولما توفي عبدُ الرحمن بنُ عوف ، وخلف مالاً جعل ذلك أبو ذر من الكنز الذي يعاقب عليه ، وعثمان يناظره

في ذلك ، حتى دخل كعبٌ ووافق عثمان فضربه أبو ذر، وكان قد وقع بينه وبين معاوية بالشام(خلاف) بهذا السبب.

وقد وافق أبا ذر على هذا طائفة من النساك ، كما يذكر عن عبد الواحد بن زيد ونحوه .. وأما الخلفاء الراشدون وجماهير الصحابة والتابعين ، فعلى خلاف هذا القول، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :«ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة، وليس فيما دون خمس ذَوْدٍ صدقة..» فنفى الوجوبَ فيما دون النصاب ، ولم يشترط كونَ صاحبها محتاجاً إليها أم لا.

وقال جمهور الصحابة الكنز هو المال الذي لم تؤدَّ حقوقهُ ، وقد قسم الله المواريث في القرآن ، ولا يكون الميراث إلا من خلف مالاً ..

وكان أبو ذر رضي الله عنه يريد أن يوجب على الناس ما لم يوجب اللهُ عليهم، ويذمهم على ما لم يذمهم الله عليه ، مع أنه مجتهدٌ في ذلك مثابٌ على طاعته، رضي الله عنه كسائر المجتهدين من أمثاله ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم ، ليس فيه إيجاب ، إنما قال : «ما أحب أن يمضي عليّ ثالثةٌ وعندي منه شيء ، فهذا يدل على استحباب إخراج ذلك قبل الثالثة لا على وجوبه» أ.هـ ملخصاً من منهاج السنة ، لشيخ الإسلام بن تيمية.

فالمسألة واحدةٌ من المسائل الفقهية التي اختلفت فيها آراءُ الصحابة ، فهماً للنصوص ، ووزناً وتقديراً للأدلة ، وكلٌّ مثاب على اجتهاده وجهده ، كما هو مقرر معروف.

وليس في المسألة (كليات) ولا جزئيات ، ولا نظريات ، كما حاول البعض أن يجعلوا أبا ذر رضي الله عنه اشتراكياً «وأدلةُ خطأ هذه الفكرة كثيرة ، يكفي أن نذكر منها اختلافَ الأساس الفكري ، والعقيدي الذي يصدر عنه كلٌّ من مذهب الاشتراكيين ، ورأي أبي ذر رضي الله عنه ، ذلك الاختلاف الذي يجعل من العسير -إن لم يكن من المستحيل- إلحاقَ أحدهما

بالآخر، أو تدعيمَه وترويجَه بين الناس على أساسٍ منه»[٢٣]وإني أسأل الذين يتهمون عثمان، ويزعمون أنه ظلم أبا ذر وكان عليه أن يأخذ برأيه: هل يوافقون على رأي أبي ذر؟؟ وهل يصلح ذلك لحياة الأفراد؟ أو لسياسة الدولة؟ ، وإن من لهم إلمام بالفكر السياسي لأئمتنا يجد أن هذه المسألة مما عُنوا بها، ويتقابل الآراء فيها.

جاء في (غياث الأمم في التياث الظلم ، لإمام الحرمين): «فحاصل هذا المذهب، أنه لا يبقى في منقرض كل سنة في بيت المال مالٌ ، ويرتب في استقبال السنة المنتظرة أموالها» ثم يقول راداً لهذا المذهب : «والذي أقطع به، أن الحاجات إذا انسدت ، فاستمكن الإمامُ من الاستظهار بالادخار ، فحتمٌ عليه أن يفعل ذلك ، ولست أرى ذلك من مسائل التحري التي تتقابل فيها مسالك الظنون»(راجع الفقرات من ٣٥٤- ٣٦٥) لترى استدلالا رائعاً على وجوب ادخار الإمام وإستظهاره بالأموال، وعدم نزف بيت المال كل عام.

بين معاوية وأبي ذر:

يروي الطبري :٥/٦٦ وأكثر المصادر الإسلامية أنه لما ورد ابنُ السوداء (عبدالله بن سبأ) الشامَ ، لقي أبا ذر ، فقال: يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية ، يقول :«المال مال الله ، ألا إن كلَّ شيء لله؟ » كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين. فأتاه أبو ذر ، فقال:«ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين(مال الله)؟ قال معاوية: يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عبادَ الله ، والمال ماله ، والخلق خلقه ، والأمر أمره؟ قال أبو ذر: فلا تقله.قال معاوية: فإني لا أقول : إنه ليس لله ، ولكن سأقول : مال المسلمين»(راجع العواصم:٧٤ هامش ٢).

---

(٢٣) محمد سليم العوا ، في النظام السياسي للدولة الإسلامي الطبعة السادسة :٩٨، (وانظر أيضاً: محمد الحامد : نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام - دمشق سنة ١٩٦٣م :١١) وراجع أيضا:(محب الدين الخطيب هامش ١ ص ٧٥ من العواصم).

فالأمر كان عند معاوية سهلاً ميسورا ، مجرد تسمية بيّن لأبي ذر وجهتها ، ولو كان أمرَ نظرية(وكلية من الكليات) ما تنازل معاوية بهذه السهولة ،وهو الألمعي الذكي، الذي يعرف كيف يجادل عن رأيه ، وأخبارُه في ذلك معروفة ، لا تحتاج إلى بيان.

بل إن تسمية المال(مال الله) فيها من التعظيم لحرمة المال أكثر من تسميته مالَ المسلمين. ولكن ابن سبأ عرف رأي أبي ذر في وجوب تفريق المال ،فأغراه بهذا التفسير لكلام معاوية.

نفي وانتقام :

حتى تبلغ الفريةُ غايتها، يكملون قضية الخلاف (حول طبيعة مالية الدولة الإسلامي) بين عثمان وأبي ذر، فيزعمون أن عثمانَ نفى أبا ذر إلى (الربذة) نفياً (إدارياً)، ويستغلون في ذلك موتَ (أبي ذر) بالربَذة معتزلا بعيداً عن الناس. موهمين أن(الربَذة) كانت منفى ، يشبه ما يعده حكام عصرنا (المتحضرون).

أين الربذة ؟

يقول ياقوت في معجمه :«كانت الربذة من قرى المدينة على بعد ثلاثة أميال منها، وكانت من أحسن منزل في طريق مكة ، قريبة من ذات عرق» ، فالربذة إذاً من ضواحي المدينة ، ومن أحسن المنازل ، فكيف تصلح منفى للانتقام؟

ولم يكن خروج أبي ذر إلى الربذة بإكراهٍ من عثمان(رضي الله عنهما) عند محققي المؤرخين ، جاء في تعليق محب الدين الخطيب على العواصم (ص ٧٦) مانصه:

« ذكر القاضي ولي الدين بن خلدون في(العبر) : بقسم ١٣٩/٢ أن أبا ذر، استأذن عثمانَ في الخروج من المدينة ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أخرج منها إذا بلغ البناء سَلْعا» ، فأذن له ، ونزل

الربذة ، وبنى بها مسجداً، وأقطعه عثمان صِرْمة (قطعه) من الإبل، وأعطاه مملوكين، وأجرى عليه رزقاً وكان يتعاهدُ المدينةَ.هـ.

وبهذا أيضاً قال القاضي ابنُ العربي في العواصم نفس الصفحة(٧٦):«فلما قدم المدينة اجتمع إليه الناس ، فقال لعثمان :أريد الربذة ، فقال له : افعل »

ولعل قائلا يقول: روايات (إخباريين) لا تنهض في وجه روايات آخرين،يقولون بأنه خرج منفياً؛ **فنحاكمهم إلى حديث البخاري الذي لا يردّه مسلم ، فقد روى في صحيحه عن زيد بن وهب قال:«مررت بالربذة ، فإذا أنا بأبي ذر رضي الله عنه،فقلت له:ما أنزلك منزلك هذا ؟ قال:كنت بالشام فاختلفتُ أنا ومعاوية في:(والذين يكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها في سبيل الله).. فلما قدمتُ المدينة كثر على الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك،فذكرت ذلك لعثمان، فقال لي:إن شئت تنحيت فكنت قريباً. فذلك الذي أنزلني هذا المنزل،ولو أمروا عليّ عبداً حبشياً،لسمعت وأطعت»(فتح الباري:٢٧١/٣حدث رقم ١٤٠٦) فهذا نص في أن أبا ذر اختار التنحي إلى الربذة بمحض اختياره،وليس محكوماً عليه بالنفي من عثمان.**

وقد قال الحافظ في شرح الحديث :«وإنما سأله زيدُ بنُ وهب عن ذلك ،لأن مبغضي عثمان كانوا يشنعون عليه أنه نفي أبا ذر ، وقد بين أبو ذر أن نزوله هذا المكان كان باختياره ، ويضيفُ الحافظ في الشرح رواية أخرى من طريق عبد الله بن الصامت :«أن عثمان رضي الله عنه قال لأبي ذر بعدما جاء من الشام: إنما أرسلنا إليك لتجاورنا بالمدينة ، فقال: لا حاجة لي في ذلك ائذن لي بالربذة ، قال: فلم يكن إذاً من عثمان نفي ، وإنما كان رغبة من أبي ذر ، تبرماً من التفاف العامة ، وخوفاً من أن يفهموا كلامه على غير وجهه ، وكانت الربذة باختيار أبي ذر، ووصله عثمان وأعطاه ، وأعانه وأكرمه ، رضي الله عنهم أجمعين(انظر أيضاً محمد سليم العوا- في النظام السياسي:٩٧) و(انظر أيضاً الكامل لابن الأثير:٤٠/٣ ومابعدها).

لا نفي ولا ضرب :

في مهارة وخفة يطعن الخليفةَ الثالث طعنة بل طعنات في جملة واحدة، حين يقول : «هذا الفهم العثماني لطبيعة السلطة هو الذي دفع عثمان رضي الله عنه إلى التخشن في معاملة كثيرين من خيار الصحابة مثلِ عبدِ الله بنِ مسعود ، وعمارِ بن ياسر ، وأبي ذر رضي الله عنهم ، فضَرب بعضَهم ونفى بعضَهم الآخر»(ص ٢٧ ع ١ س ١٨).

وكما ثبت آنفاً كذبُ دعوى النفي نجد الإمامَ ابن العربي يصف دعوى الضرب قائلاً:«وأما ضربه لابن مسعود ومنعُه عطاءه فزورٌ، وضربُه لعمارإفكٌ مثله» (العواصم :٦٣) وقد بلغ ضيق ابنُ العربي بهذه المفتريات أنه رفض أن يناقشها،أو يحكي مناقشةَ العلماء ، ورفضَهم إياها قائلا:«لا ينبغي أن يُشتغل بها، لأنها مبنيةٌ على باطل ، ولا يبنى حق على باطل ، **ولا تُذهب الزمان في مماشاة الجهال، فإن ذلك لاآخر له**»(العواصم:٦٥) **هكذا قالها ابن العربي منذ نحو ألف سنة:«لا تُذهب الزمان في مماشاة الجهال، فإن ذلك لا آخر له»** ومع ذلك ما زلنا للأسف وبكل مرارة نضطر لضياع الوقت والجهد في(مماشاة الجهال) ورد مفترياتهم عن صحابة رسول الله الكرام.

والثابت أن ابنَ مسعود كان يعظم عثمانَ ويعرف له حقَّه وقدرَه ، وقد قال حينما بويع عثمان بالخلافة :«بايعنا خيرَنا ، ولم نألُ» وكان عثمانُ يعرف لابن مسعودٍ قدرَه وحقه كذلك ، فكان خازناً له على بيت مال الكوفة ، وكان سعد ابنُ أبي وقاص أميرها ، ولما اختلفا وتلاحيا(بسبب قرض اقترضه سعدُ من بيت المال) استدعاهما عثمانُ ، وعاتبهما ، وعزلَ سعداً ، وأبقى عبدَ الله بن مسعود (انظر الطبري : ٤/٢٥١).

وأما ما نشأ من خلاف بين ابن مسعود وعثمانَ بعد ذلك ، فسببه ما كان من عمل عثمانَ في جمع الناس على مصحف واحد، وأمره بغسل جميع المصاحف سوى المصحف الإمام ، الذي كتبه جماعةٌ من حفاظ الصحابة على

رأسهم زيدُ بنُ ثابت رضي الله عنه، وكان اختيارُ عثمان لزيدٍ اتباعاً لأبي بكرٍ وعمر ، وكانا قد اختاراه لجمع المصحف في عهد أبي بكر ، وذلك لأن زيداً رضي الله عنه هو الذي حفظ العرضة الأخيرة لكتاب الله على الرسول صلوات الله عليه قبيل وفاته ، فكان عثمان على حق في هذا وهو يعلم ، كما يعلم سائر الصحابة- مكانةَ ابن مسعود، وعلمَه وصدقَ إيمانه، وكان جمهور الصحابة مع عثمانَ رضي الله عنه.. ولم يثبت أنه ضرب ابنَ مسعود ولا منعه عطاءه ، وبقي يعرف له قدره ، وبقي ابنُ مسعود على طاعته لإمامه الذي بايع له ، وهو يعتقد أنه خير المسلمين ، منذ وقت البيعة(راجع منهاج السنة: ٣/١٩١-١٩٣، العواصم:٦٣ هامش ٢).

والأمرُ في قصةِ (ضرب عمارِ بنِ ياسر) أقربُ من هذا، فلم يكن من عثمان ضربٌ ولا إهانةٌ ولاتعذيبٌ ، كما يوهم هؤلاء الموهمون، ويحاول هؤلاء المجادلون ، وإنما كانت إقامةُ حدٍّ من حدود الله ، فقد تشاتم عمارٌ وعباسُ بنُ عتبةَ بنُ أبي لهب ، ورُفع الأمر إلى عثمان ، ولعله رضي الله عنه مراعاةً لمنزلة عمارٍ وسبقهِ أقام الحدَّ عليه بنفسه ، ولما بلغه غضبُ عمارٍ وتذمُّره استدعاه رضي الله عنهما وقال له :

« ياأبا اليقظان ، قذفت ابنَ أبي لهب أن قذفك .. وغضبتَ عليَّ أن أخذتُ لك بحقك ، وله بحقه ، اللهم قد وهبتُ ما بيني وبين أمتي من مظلمة ،اللهم إني متقرب إليك بإقامة حدودك في كل أحد ، ولا أبالي ..» راجع الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق :٤٢٩/٧ عن محب الدين الخطيب تعليقات على العواصم من القواصم ص٦٤.

ومع ذلك ظل عمارٌ موضعَ ثقة الخليفة ، ومستشارَه ، يستعين به في مهمات الأمور، ويكفي دليلاً على ذلك أن عماراً كان مبعوث الخليفة الشخصي (بلغة عصرنا) إلى مصر ليستطلع أحوال من فيها من السبئيين والمناوئين الذين يؤلبون على عثمان !!!

وعذراً سنقول مع ابن العربي ثانية : «لا نُذهب الزمانَ في مماشاة الجهال، فإن ذلك لا آخر له».

إلام انتهى الباحث ؟؟

لقد انتهى باحثنا الكريم الدكتورمحرم إلى نتيجة خطيرة ، بل أكبر من خطيرة ، وللأسف كانت هذه النتيجة من الوضوح (عنده) إلى درجة أنه قطع بها، وتأكيداً لهذا القطع والجزم تعجل بها ، فقدمها بين يدي كلامه.

وهذه النتيجة هي :«استحالةُ التفاهم مع الآخرين الذين هم منا ، واستحالةُ الإنصاف في تقويمهم قولاً وعملاً» وهاك نص عبارته :« فلدينا من الموانع الموروثة ما يحول دوننا والتفاهم معهم (الآخرين الذين هم منا) أو الفهم عنهم ، أو الإنصاف في تقويمهم قولاً وعملاً».

والسؤال الآتي:ماذا بعد ذلك ؟ ما الحل ؟ وكيف العلاج؟
كيف نتخلص من «الموانع الموروثة» وهل نملك ذلك أو نستطيع إليه سبيلا؟؟

إن هذه الإجابة جبلٌ من جبال اليأس يسدّ الطريقَ على كل تفكير في الإصلاح ، ويقطع الأملَ في أي علاج!! وهذا هو الخطر الأكبر الذي يترتب على تشويه تاريخنا وتزييفه بهذه الصورة ، وهذا تحقيق للقول الحكيم:«إن التاريخ ليس علم الماضي، بل هو علم الحاضر والمستقبل» وما لم تصحح أمتنا تاريخها، وتعي ماضيها، وتعرف كيف تقرؤه ، وكيف تحلله، وكيف تفهمه ، لن يستقيم لها طريق إلى مستقبلها، ولن يسلم لها حاضرها.

رابعاً: موقفنا من أفكار الآخرين الذين هم غرباء عنا :

وسنحاول أن نطوي الأوراقَ ، ونرفع الأقلام ؛ إيثاراً للإيجاز ، وطلباً للاختصار، فنلخص كلامنا فيمايلي:-

يرى الباحث استحالةَ النقل المادي عن الحضارة: حضارة الآخرين دون التأثر بالإفرازات المعنوية لهذه الحضارة ، ويضرب أمثلة «بالقيم المعنوية التي هي ولابدّ منتقلة مع المستورد من السيارات والطائرات ، وأجهزة

التكييف ، وأجهزة الإعلام ، وغيرها الكثير من منجزات العصر المادية».

ثم يهاجم بعنف الرأيَ القائلَ بأنه من الممكن أن ننقلَ المنجزاتِ المادية للحضارة ، دون إفرازاتها المعنوية ، ويرى أنها (زعمٌ) خاطىء و(مغالطة) و(حماقة) ، والأولى أن نورد نص كلامه ، حيث قال :«ولعل في هذه الأمثلة التنبيهُ الكافي إلى المغالطات التي يرتكبها البعض ؛ إذ يزعم أن في الإمكان نقل الإنجازات المادية عن الآخرين ، دون التأثر بقيمهم الفكرية ، وإبداعاتهم المعنوية، كما أن فيها الإدانة المناسبة للحماقات التي يدمنها آخرون حين يقوِّمون ثقافات الآخرين، من منطلقات انتقائية ، فيرون في إنجازاتها المادية قمة سموّ ، بينما هم يتوهمون في إبداعاتها الفكرية، القيمية والسلوكية قاعَ انحطاط »أ.هـ بنصه : ع ٢ ص ٤٢

والباحث كما ترى يخرج بهذا الرأي على كل رجال الفكر والرأي ، وينكر ويتنكر لكل تجارب الأمم ، ومواريث العصور، فلم نر قبله من يقول بهذا التلازم بين الإنجازات المادية ، والقيم الفكرية ، والإبداعات المعنوية ، أبداً لم يقل بهذا أحد ، ولم نسمع به من قبل .

كما أنه مخالفٌ لما هو واقعٌ أمام أعيننا وتحت أيدينا ، ولما هو معروف في تاريخ الأمم ، وتجارب العصور.

فمما هو واقع أمامنا الآن ، ويجري تحت سمعنا وبصرنا ، ما نراه من الصراع حول احتلال ناصية الإنجازات المادية ، بدون التأثر (بالقيم الفكرية) و(الإبداعات المعنوية) فلا ينكر أحدٌ أن الصين استطاعت أن تنقل «الإنجازات المادية» دون «القيم الفكرية» و«الإبداعات المعنوية» ومثلها اليابان ، وقد حَكَوْا أن امبراطور اليابان احتفل في ميدان عام بإحراق شباب أول بعثة عادت من الغرب ، ذلك أنهم أرسلوا لدراسة «المنجزات المادية» والعودة بها إلى اليابان ، فهناك أغْرَوْهم بدراسة فلسفة التربية ومناهجها ، فلما عادوا «بالقيم الفكرية» و«الإبداعات المعنوية» كان جزاؤهم الإحراق بالنار، فإذا صح أن هذه العقوبة الحاسمة كانت هي السببَ في نجاة اليابان من الأخطبوط «الفكري» والمسخ «المعنوي» فنحن عندنا العشرات بل المئات -

ربما يعرفهم الدكتور محرم- يحتاجون للاحتفال بهم على طريقة امبراطور اليابان.

إن روسيا أو الصين على استعداد أن تدفع الملايين مقابل أن تحصل على سرٍّ من أسرار المخترعات «الإنجازات المادية»، ولكنها في الوقت نفسه على استعداد أن تدفع الملايين مقابل أن تمنع (القيم الفكرية) و(الإنجازات المعنوية) الغربية أن تعبر حدودها.

هذا هو واقع الحال الذي تلمسه الأيدي ، ولا ينكره أحد.

وهذا أيضاً ما ينطق به التاريخ ، فقد وقفت أوربا أما حضارتنا هذا الموقف ، استعاروا منا(الإنجازات المادية) فنقلوا علومَنا ، ومخترعاتنا، ومناهجنا حينما التقَوْا بنا في الأندلس ، ومعابر الحضارة الأخرى ، ولكنهم لم يأخذوا (قيمنا الفكرية).

وكذلك فعلت أمتنا في فجر نهضتها ، وإبان مجدها، أخذت منجزات الحضارات والأمم السابقة ، وطوّعتها لها، وبنت عليها ، ورفعت بناءها ، ولكن لم تأخذ (قيّمها الفكرية) ووثنيتّها ، وانحرافها.

فلست أدري لما قاله الأخُ الباحث وجهاً ، ولم أكن بحاجة إلى الإطالة في مناقشته فيما استدل به من أمثال وحكم ، يرى أنْ فات أوانُها ، **لولا أنه تعرض للحديث النبوي الشريف ، وهو حديث صحيح :« إن المنبتّ لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى» وأورده مورد الاستهزاء والسخرية ، ناسياً إياه (لعصر الركايب). وبقليل من التدبر يدرك الأخُ أن هذا المثل وهذه الحكم التي في معناه ، لا تعني أبداً، دعوة إلى البطء ، والتراخي، وضياع الوقت ، وإنما هي تعني: إحكام الأمر وحسن تدبيره ، وبذل الجهد في حدود الإمكانات ، والتخطيط للعمل على ضوء القدرات المتاحة ، وإن عصر (الركايب) هو نفسه الذي أنتج الحكمة القائلة:(الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك)** ، ولعل الأخ يرى الآن من نافذة مكتبه ، أو مسكنه مكتوباً أمام عينيه ذلك النداء الصارخ :«لاتُسرع وعد سالماً) وهو

نداء وليد(عصر الصواريخ والطائرات الأسرع من الصوت) وهو ليس على أية حال دعوة لتضييع الوقت والتراخي والتمطي ، وإنما دعوة إلى إحكام القبض على مقود السيارة ، وحسن تقدير الحركة ووزنها ، ولعله يذكر تلك الحكمة التي يقولها العقلاء الآن في عصر الصواريخ:(لا تسرع بي أيها السائق فأنا مستعجل) وقد قالها عصرُ(الركايب) بصورة أجمل وبعبارةٍ أكثرَ دقة وإحكاماً ، وأروعَ أسلوباً وجمالاً:« رُب عَجلةٍ تَهبُ رَيْثاً).

إن (عصر الركايب) أيها الأخ الكريم ، هو الذي غالى بالوقت ، وجعله أثمن وأغلى ما نملك ، بل جعله كل ما نملك ، فقال:«الوقت هو الحياة» إن أسلافنا قالوا وكتبوا عن الوقت وقيمته ما يملأ مئات الصحائف ، بل إن حياتهم وثمارَ أعمالهم ، وعددَ مؤلفاتهم يشهد بمدى حرصهم على الوقت وإفادتهم منه.

ولكن من يقرأ ؟

وما حيلتنا ، والذين يريدون أن يقودوا الفكر والرأي في أمتنا ، لم يعرفوا شيئاً عن تاريخهم ، ولم يدرسوا ، بل يقرءوا شيئاً عن تراثهم ، فهم يعادون (شيئاً) لم يعرفوه ، فلا تثريب عليهم ، إذ (الناس أعداء ماجهلوه)

على أية حال لو أنصفنا أنفسنا ، وراجعنا موروثنا الثقافي والقيمي من (عصر الركايب) لوجدناه يستوعب كل منجزات العصر، وقادراً على التلاؤم مع كل عطاء العصر ، وبدائع مخترعاته ، وليس عندنا -والحمد لله- بيقين ذلك الذي يقول عنه: « إن جميع المفاهيم الفكرية التي هي نبت وجود مادي قديم ، لابد أن تنقرض ، وتخلي الساحة لكل ماهو خير منها ، وهذا الذي هو خير إنما هو القيم والأفكار الجديدة التي ترتبط بالوجود المادي الحديث القائم وتتوافق معه».

ولعل ما سقناه من مناقشة لزعمه بأن (عصر الركايب) كان لا يقيم للوقت وزناً ويدعو للبطء والتراخي ، لعل ذلك فيه الكفاية ولو إلى حين.

ولكن الذي لا يُغفر للأخ الباحث هو ذلك الاستنتاج العجيب الغريب الذي ختم به بحثه ، فكان بئس الختام والعياذ بالله.

استمع إليه يقول :« ثم نقف أخيراً أمام حديث شريف يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو أنه صح ، لما جاز لأحد أن يتطاول ، فيزعم أننا ما عدنا في حاجة لأن نأخذ عن الآخرين شيئاً، من عوائدهم، ولا من أفكارهم ، ذلك أنه يُروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

«إن عبد المطلب سن في الجاهلية خمس سنن أجراها الله في الإسلام : حرم نساء الآباء على الأبناء ، فأنزل الله قوله:« ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء» ، ووجد كنزاً ، فأخرج منه الخمس ، وتصدق به ، فأنزل الله قوله:« واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه ، وللرسول ، ولذي القربى، واليتامى والمساكين وابن السبيل..» ولما حفر زمزم سماها سِقاية الحاج ، فأنزل الله قوله تعالى « أجعلتم سِقاية الحاج ، وعمارةَ المسجد الحرام، كمن آمن بالله واليوم الآخر..» وسنَّ في القتل مائة من الإبل ، فأجرى الله عز وجل ذلك في الإسلام ، ولم يكن للطواف عدد عند قريش ، فسن فيهم عبدُ المطلب سبعةَ أشواط ، فأجرى الله ذلك في الإسلام»أ.هـ.

هكذا !!!

يقف أمام هذا الحديث ، ليأخذ منه الرد والقمع «لكل من (يتطاول) (فيزعم) أننا ما عدنا في حاجة لأن نأخذ عن الآخرين شيئاً»!!

فهو يقول صراحة: إنه كما أخذ الإسلام من الجاهلية القديمة ، فلا علينا إذا أخذنا نحن الآن من (الآخرين) من عوائدهم !!! ألسنا نقتبس كما اقتبس الإسلام من قبل !!!

ومن العجيب أنه يقول ذلك بثقة ويقين ، ويصف من يقول غيره (بالتطاول) و(الزعم) ، مع أن الأمر لو عُرض على أي مبتدىء في العلم ، لأدرك فساد هذا القياس الجرىء !!! فكيف يسوي بين أمرٍ أدركه الإسلام من حسنات الجاهلية، فأقره وبين أمر« يزعم » هو أنه يأخذه الآن من عوائد(الآخرين) ليكمل به الدين (وحتى لا أُغير تعبيره ولفظه:أقول : ليسد به ، حاجتنا) أين هذا من ذاك ؟؟

أين هو ، من قوله تعالى:«اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا»(سورة المائدة : ٤)

وأين هو من قوله صلى الله عليه وسلم:« لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا: كتاب الله وسنتي».

أيرى هو أنه كان على الإسلام أن يغير كلَّ الأحكام والآداب والعوائد التي قبله، وإلا فمن حقنا نحن أن نأخذ من (الآخرين) مثلما أخذ؟؟

لقد جاء الإسلام فوجد الجاهليين يكرهون عقوق الآباء ، ويكرهون الكذب ، ويدعون إلى الصدق ، ويكرمون الضيف ، ويمدحون الأمانة ، أإذا أقر ذلك ونزل فيه قرآن ، أو ورد فيه حديث يكون معناه ، أن من حقنا أن نأخذ من (الآخرين) مثلما أخذ الإسلام من الجاهليين ؟؟ « ودقَّة بـدقَّة»، سبحان الله ، ولله في خلقه شئون .. والبحث ألوان وفنون.

كل هذا على فرض صحة هذا الحديث «الذي وقف أمامه»!! ودعانا للوقوف معه أمامه!! فإذا كان هذا (الحديث) باطلا لا أصل له ، فستنهار الدعوى التي أقيمت عليه من غير عناء، وشأنه في هذا الحديث شأن كلام(الإخباريين) الذين تقوّلوا ما شحن به مقاله من أقاويل على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الطاهرين.

والأخ الباحث ، يرى أن « موقفنا من أفكار وثقافات الآخرين هو بغير شك موقف غير متوازن ، بل غير سوي» ص٤٣ ع١.

ويرى أن «البعض منا يتصوّر القرآن ويصوّره للآخرين حشداً عدائياً من النصوص ، يجمع قلوب المسلمين وعقولهم على الصدود العدواني تجاه المخالفين لهم في الدين» ص٥٥ ع٢.

وراح يجمع النصوص من هنا وهناك ، ويضرب الأمثلة من القديم والحديث يؤكد بها بدهيات : لا يجادل فيها ، ليثبت أن الإسلام دين التسامح، ودين الحرية ، لا يرفض الرأي الآخر ، وأننا لا نملك تجاه المعاندين إلا الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

ونحن مع الباحث الكريم في أن الإسلام دين التسامح ، ودين الحرية ، يقبل الرأي المخالف ، ويتعايش معه ، ولا يملك تجاهه إلا الدعوة بالموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، ولا يكره أحدا أيا كان ،بل يأمر بحمايته حتى يبلغ مأمنه، والمثل الذي ضربه لسماحة الخليفة المأمون مع زعيم «المناوية» المجوسي ، وشموله برعايته ، ليس مثلا فذا ولا غريباً ، فأمتنا عرفت هذا منذ يومها الأول ، وهذا هو سلوك حكامها ، وعلمائها وقضاتها ، وعامتها وخاصتها على طول تاريخها إلى اليوم، وانظر حولك تجد أعشاش التبشير وأوكار الاستخبارات ومعاهد المسخ والتشويه والتدمير ، يقوم عليها، قساوسة وبطارقة ورهابنة في ثوب أساتذة حينا ، وفي ثوب خبراء ومساعدين حينا ، ومكشوفي الوجوه والهوية حينا آخر.

وأمتنا مع ذلك ترعاهم ، وتحميهم ، بل تحنو عليهم.

هذه هي أمتنا ، وهذا هو شأننا الذي ينبغي أن يكون ، ونحن نوافقك عليه . ولكن لنا ملاحظة صغيرة يسمح لنا بها الأخ الباحث تتعلق بمن يوجه إليه هذا الكلام، وبالوقت الذي يوجه فيه!!

لقد كُتب هذا الكلام في وقت عصيب ، وُجهت فيه ضربة قاصمة إلى العاملين في الحقل الإسلامي ، وإلى حملة دعوته ، في ثلاث دول عربية في وقت متقارب ، والفكر الإسلامي في باقيها في حالة يعلمها كل صاحٍ ونائم .

بل إن الحادث الآن أن الأقلية غير المسلمة في عدد من الدول الإسلامية تريد أن تفرض سيطرتها ، بل هي فعلاً فرضت نوعاً من السيطرة الفكرية ، بل الإرهاب الفكري ، وجعلت الكثرة الكاثرة ، والأغلبية المسلمة ، تفرض على نفسها ألواناً من المجاملة تصل إلى حد يمكن أن يوصف بالاستخذاء والخنوع ، فحين يُطلب من كاتب أن يبتر الآية الكريمة «إن الدين عند الله الإسلام» ويحذفها من مقاله رعاية لخاطر الأقلية غير المسلمة ، حتي لا تجرح مشاعرهم محافظة على الوحدة الوطنية ، حين يكون الوضع هكذا ، أليس من حقنا أن نسأل ، مجرد سؤال لا يحمل غير معناه: لماذا نقول ذلك الكلام في هذا الوقت ؟؟

والسؤال الثاني : لمن يتوجه الأخ بهذا الكلام ؟؟

أخشى أن يكون قد توجه به إلى المسلمين الذين يُحرَّقونَ ويُقتَّلون في الهند بعشرات الآلاف !! أو يتوجه به إلى المسلمين الذين أبيدوا في أوغندا ، وأخرج من بقي منهم على قيد الحياة ، من مدنهم وقراهم ، أم تراه يتوجه به إلى مسلمي (أوجادين في الصومال) أو مسلمي (أريتريا) أو مسلمي (أثيوبا) أو مسلمي (الفلبين) أو .. أو ... لا أريد أن أقول :إن سماحة المسلمين هي التي جنت عليهم ، أبداً لن أقول هذا ، ولكن أيضاً لن أقول للمسلمين المطحونين المشردين وهم أقلية ، والمفزّعين الخائفين ، وهم أغلبية : أين السماحة والمعاملة بالحسنى؟ لأني أخشى إذا قلت ذلك أن يفسر كلامي على غير ما أحب وأرضى.

والأخ الباحث يرى أن الدين لا مجال له في تقويم «أفكار الآخرين» وأن النظر في أفكار الآخرين من منطلق ديني من دواعي «الشذوذ»و « عدم التوازن» في التفكير والتقدير ، ويرى أن الدين لم يعد له وجود ولا أثر في الصراعات الموجودة في عالمنا الحديث . وقد أجهد نفسه ليثبت وهمَ من يقول بذلك ، وكان من أدلته:

- أن ألمانيا حطمت أوربا المسيحية.
- أن أوربا المسيحية استعمرت دولا مسيحية.
- أن أوربا المسيحية استعمرت أمريكا المسيحية ، و كان بينهما حروب» ص٤٨ ع٢ بتصرف يسير.

وهذه الأدلة لم تسلم له ، ولو سلمناها ، فهي لا تنهض دليلاً على أن الدين لا يوجه حركة الصراع في العالم ، فربما كانت حركة هتلر ذات (الصليب المعقوف) تبغي قيادة المسيحية كلها لعمل أخطر وأكبر ، بدليل عداوته لليهود الأعداء الألداء للمسيحية.

أما الصراع والحروب بين أوربا وأمريكا، فلم يكن عدواناً أوربياً على أمريكا المسيحية -كما يقول- بل إن المجتمعات الأمريكية نشأت -كما هو معلوم- من أصل أوربي ، وظلت مرتبطة بأوربا الأم ، حتى تضخمت ،

وقويت وكبرت الفروع وفاقت الأصول والأغصان والجذور ، فكان ما كان من صراع وحروب.

وأيّاً ما كان الأمر ، فإن الصراع بين هذه الدول المسيحية يظل محكوماً بضوابط الصراع بين أبناء العمومة. فنحن لا ننكر أن يكون بين الدول المسيحية صراع، فهذا ضد طبيعة الأشياء ، وإنما الذي ننكره أن يقال : إن هذه الدول لا تتحد ضدنا من منطلق ديني بل وعنصري ، إنها تختلف فيما بينها ثم تجتمع علينا، ولست أدري كيف يفسر الباحث إعدام هذه الدول لفائض الإنتاج الزراعي والحيواني ، على حين يعاني العالم الثالث من المجاعات ، وإن مشكلتهم في التخلص من بحيرة الحليب وجبل الزبد ، التي جعلتهم يتخذون قراراً في مجلسهم الاقتصادي الأوربي بإعدام الأبقار رمياً بالرصاص تخلصاً من زيادة إنتاجها ، ومن عجب أن تحمل وكالات الأنباء هذا الخبر مع نفس أخبار الضحايا الذين يسقطون جوعاً ، ومن أعجب العجب أن «مثقفينا» «المستنيرين» «المتحضرين» يستقبلون هذا التصرف ببلادة غريبة، وكأنه لا عجب ولا غرابة ولا شذوذ في ذلك ، وكأنما كتب عليهم أن يبرروا كل ما يقوم به(السادة) الغربيون ، بل ويدعوننا إلى أن ننهل من (أفكار الآخرين).

ويقول الباحث -تأكيداً لوجهة نظره- إن المسيحيين في الشرق لم يكونوا أسعد حظاً من المسلمين في ظل الاستعمار ، وهذا عدم معرفة بالتاريخ ، وعدم دراية بما كان ، فلو قرأ تاريخنا كما ينبغي ، لرأى كيف تعاون المسيحيون لا مع الصليبيين فحسب بل مع التتار أيضاً ، ولعله صدّق مسرحية المعلّم (يعقوب) ذلك المسيحي الذي تعاون مع حملة نابليون على مصر ، ولم يطق العيشَ بعدها فخرج مع الجنود الفرنسيين عند خروجهم ، وإن التزييف والتشويه للتاريخ جعله بطلاً (قومياً) يدافع عن (مصريّة) مصر ضد الأتراك ، ومثلوا مسرحية باسمه تعمق هذا التزييف ، وتنفي عنه خيانة أمته تعاوناً مع أبناء الصليب الجدد.

وحينما وجد الباحث أن دور الإسلام في الصراع ضد الاستعمار لا يمكن إخفاؤه، وأن الاستعمار لم ينكر عداءه الصريح للإسلام ، قال: إنه كان

يحارب الإسلام « لأنه رأى فيه عناصر تمايز ، ومدد قوة ومتاريس صمود ، وأسلحة كفاح ، فحاول جاهداً أن يحطم عناصر القوة هذه» ص ٤٨ ع١.

هكذا حين تلوح الحقيقة أمامه ولا يستطيع لها إنكارا، يحاول أن يفسرها قائلا: إنهم يعادون الإسلام ، ويضربون الإسلام ، لا بصفته دينا، ولكن بصفته عنصر تمايز ومدد قوة.

ويكفينا منه أن يصرح بهذا ، وينطق به ، فهم يضربون الإسلام سواء كان ذلك لذاته ، أو لأثره فينا ،. المهم أن الدين هدفهم . وكفى هذا .

وحينما رأى أخبث أعدائنا يقيم دولته (إسرائيل) على أساس ديني فيتخطى العصور والدهور ويختار لها اسماً ينطق بمعناه ، وبما يعنيه (إسرائيل) ثم يبعث الروح في التوراة ويجعلها محور التعليم والثقافة والفكر ، والاتجاهات والاهتمامات ، ويحيي اللغة العبرية من موات ، ويجعلها لسانه الذي به يتعلم ، ويتكلم ، ويطرب ويغني ، يرى الباحث كل هذا ، فلا يصدق عينيه ، وأذنيه ، وما يلمسه بيديه.، ويقول إنها «عناصر دينية يوظفها العدو صبغة مظهرية للمجتمع الإسرائيلي» كذا قال ص٤٩ ع١. ويقول:«إنهم يقيمون في مواجهتنا مجتمعاً علمانياً معاصراً» كذا قال ص٤٩ ع١

ولست أدري كيف تختلط (العلمية) و(العلمانية) لدى الباحث بهذه الصورة ، إن كان يريد أن القوم أقاموا مجتمعاً يعتمد على العلم وأحدث معطياته ومنجزاته ، فهذا حق ، ولكنه تصوّر أن الدين خصيم العلم وقسيمه ونقيضه ، فلا يجتمعان، وأعياه أن يجد تفسيراً لاهتمام القوم بالدين والعقيدة ، فقال:«إن الدين عندهم مظهرية شكلية» والقوم في الواقع لا يعرفون المظهرية ، وإنما تركوها لنا.

وكنت أعجب من إصراره على إبعاد الدين عن مجال المعركة الآن في هذا العصر، ولكن الآن زال العجب ، فهو يظن أن الدين لا يمكن أن يجتمع مع العلم ، وما دام العلم هو مصدر القوة وعمادها ، فليتنح الدين وليبق العلم.

ملاحظات حول العبارات والألفاظ :

كذلك لم يسلم من تجاوزات التعبير والألفاظ ، والشطط في استخدامها، ونضرب مجرّد نماذج وأمثلة بمايلي :

* يستخدم تعبير «الدعوة المحمدية» بدلاً من «الدعوة الإسلامية»، وهذا استعمال الذين ينسبون المسلمين إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنهم لا يؤمنون برسالته ، فيجعلون المسلمين جماعته.

* يستعمل كلمة «التجديد» و «الثورة» للتعبير عن الإسلام ، وكلمة «الرجعية» و «المحافظة» في التعبير عن الكفر ، ولا يخلو ذلك من إيحاء بتفسير مادّي للصراع بين الكفر والإيمان.

* ويكثر في حديثه «الدعوة المحمدية الثورية» و «المجتمعات الثورية الناشطة الصاعدة» «الكثرة الكاثرة من الثوار» «شورية الثورة» «ديمقراطية الثورة» «الممارسات النضالية لكل عنصر في جيش الثورة».

* ولا يتورّع أن يستخدم مثل تلك التعبيرات في حق الرسول صلى الله عليه وسلم من مثل قوله:«وذلك رغم المساحة الكبيرة التي تظل حكراً للزعامة الثورية (يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم) تمارس فيها إدارة الصراع وتوجيه العمل الثوري..»

هكذا : الرسول زعامة ثورية تحتكر مساحة كبيرة من السلطة يمارس فيها إدارة الصراع وتوجيه العمل الثوري!! نعوذ بالله من الشطط والسقط.

* وفي جانب الصحابة رضوان الله عليهم يصفهم بأنهم «طليعة ثورية مؤمنة متمثلة في الصفوة من أصحاب الرسول الذين قادوا عن طريق حزب السابقين في الإسلام المجتمع من بعد »!!

هكذا كبار الصحابة وصفوتهم طليعة ثورية ، والسابقون في الإسلام حزب !!!

* ومن هذا الباب أيضاً هذه النعوت والصفات الجارحة ، والساخرة التي

وزعها على مخالفيه في الرأي وهو يتحدث عنهم من مثل :«تصورات عدوانية» «توهمات جاهلة» «تستخدم الشقاق اللفظي لعمل أحجبة» «انحيازاً جاهلاً وغبياً ينتقي ما يوافق هواه المتحامل» ، « يتعسف في استخدام ..» ، «أرى فيها انحيازاً متعالياً وغبياً» ، « التهوين الساذج»، « التحامل الطفولي » .. إلخ ..إلخ .

ليس أمراً شكلياً :

وربما بدا للبعض أن هذه ملاحظات شكلية ، وأن قصاراها أن نقول : إنه لم يحسن اختيار الألفاظ ، أو وضعها في مكانها المناسب لها ، ولكني أقول إن هذه «الألفاظ» وهذه «العبارات » لها ما وراءها فهي تنبيء عن خبيء ، إن هذه الألفاظ «مصطلحات» لها مدلولات ، ولها ظلال ، ولها إيحاء.

شنشنة أعرفها من أخزم :

إنني أرى وراء هذا الكلام (شخوصاً) تلوح بسحنتها الكالحة خلف السطور، وتبدوا قواريرُ السم بأيديها وراء المعاني ، وتظهر بصماتُها فوق الجمل ، ويفوح خبيث تآمرها من وراء العبارات.

أرى (ماكدونالد) و(فلوتن) و(فلهاوزن) و(جب) و(مرجليوث) وعصبتهم خلف هذا المقال. وحاشا أن أتهم الأخ الباحث بالنقل منهم ، ولا يمكن أن يرد لي هذا بخاطر ، وإنما قائمة مصادره التي أحال عليها ، تنطق بذلك ، وتشهد به ، فكلها من عصارات فكر المستشرقين ، وأصحابها تلاميذ مخلصون للمستشرقين ، وصل فكر أساتذتهم منهم إلى النخاع ، وهم لا ينكرون ذلك ، بل يفاخرون به ويباهون.

هدم بناءه بيديه :

لقد أقام هذا البحث الشامخ داعياً إلى التعامل مع «أفكار الآخرين» بدون طعن في النيات ، وبحثٍ عن الضمائر ، وتفتيش عن العقيدة ، واتهامٍ

بالكفر والزيغ والضلال، لهذا أقام بناءه».

ولكنه هدمه بيديه حين أدارحديثه كله على اتهام النيات والضمائر والطعن في العقائد ، حيث اتهم بني أمية بالكيد للإسلام ، وأنهم لم يكونوا مسلمين عن اقتناعٍ واعتقادٍ ، وإنما خوفاً من سوط الإسلام الزاحف ، وقفزاً إلى سفائن السلطة القادمة.كذا قال.

لم يسلم منه أبو بكر:

فقد غمز أبا بكر صدّيق الأمة ، بل اتهمه صراحةً ، وذلك إذ يقول : «ومواقف أبي بكر رضي الله عنه تجاه البيعة الأولى للاستخلاف ، ثم تجاه سعد بن عبادة رضي الله عنه المنافس له ، المناويء عليه ،تكشف عن سياسي متمكن ، ومناور ذكي ، عينه على الإسلام ، وقلبه مع استمراره ، وعقله مع ديمومة دولته ، **فالرجل يقدم الآخرين ، فيقدمونه مرشحاً للخلافة فائزاً بها ، ثم هو لا يغضبه أن يمتنع سعدُ بن عبادة رضي الله عنه عن البيعة ، بل يتركه وشأنه ، محاذراً أن يغضب قومه ، وهم أحد الأعمدة التي يقوم عليها الإسلام في المدينة»أ.هـ. بنصه ص١٢ع١**

هكذا أبو بكر الصديق مناور ذكي!! يقدم الآخرين فيقدمونه للخلافه فائزاً بها، أي أنه رضي الله عنه حينما قدم عمر وأبا عبيدة للخلافة ، وعرض عليهما أن يبايعهما بالخلافة «كان مناوراً» ولم يكن يعني مايقول ، وإنما يطيب خاطرهما ، ويشهد لهما ، فيشهدان له ، على طريقة : (شيّلني وشيّلك)و(اشهد لي بدرهم أشهد لك بدينار).

ويؤكد غمزه هذا للصدّيق في موضع آخر حين يقول: «إن الذين امتنعواعن بيعة أبي بكر رضي الله عنه هم من الشخصيات العامة التي لا تقف بمفردها ، ولكنها مؤهلة لأن يجتمع حولها تأييد بعض المسلمين ، ولذلك فإن الحكمة السياسية تستلزم نوعاً من الحرص السياسي ، والود العملي في التعامل معهم ، بما لا ينشط قدراتهم الشخصية ، أو الوراثية ،

أو القبلية لجمع المزيد من المؤيدين حولهم في عقر عاصمة الخلافة ، وهذا هو ما قصده وما فعله أبو بكر رضي الله عنه»أ.هـ ص٢٠ع٢

أرأيت؟ إن أبا بكر سياسي ماهر عرف كيف يداهن ويصانع هذه الشخصيات الخطيرة ، حتى يأمن خروجهم عليه ، ونجح (بالحرص السياسي) و(الود العملي) في تحقيق ما أراد.

والواقع أن (الود العملي) هذا تعبير مبتكر يهنأ صاحبه عليه ، فنحن نعرف (الودّ) أمراً قلبياً يتعلق بالقلب والعواطف والمشاعر، فأما (الود العملي) فمعناه لاشك « تزييف للعواطف والمشاعر ، وتمويه للنيات والضمائر» ونعوذ بالله.

وعمر أيضاً :

نعم لم يسلم الفاروق من غمزه ولمزه ، حيث يقول: «..فعمر رضي الله عنه الذي لم يكن يصبر على تأخر سعد بن عبادة رضي الله عنه، أو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن بيعة أبي بكر رضي الله عنه ، يجمع أغلبية أهل الشورى في المدينة وراءه ، ويرى عدم قتال مانعي الزكاة» ص ٢٠ ع١.

هكذا !! عمر قادر على قتال الأفراد الذين امتنعوا عن البيعة لأبي بكر، لا يستطيع أن يصبر عليهم ، أما جماعات المرتدين ، فهو غير قادر على مواجهتهم ضعيف أمامهم ، يرى عدم قتالهم ، بل وأغلبية أهل الشورى يجرهم وراءه في هذا التخاذل. والعياذ بالله.

هذه مجرد أمثلة وتستطيع أن تجد في كلام الباحث منها الكثير.

يبريء ابن سبأ وآله :

ومن عجب أن هذا الذي لم يسلم منه أحد ، فاتهم بني أمية كلهم ، واتهم الصديق ، وغمز الفاروق والمعاصرين من الكتاب والمفكرين ، والعاملين في الحقل الإسلامي ، هذا الذي اتهم الجميع في نياتهم ينفي أشد

النفي وأبلغه أن يكون هناك دورٌ كيدي تآمري لابن سبأ والسبئيين ، فلا يستطيع عقله أن يتصور دوراً كيدياً لهؤلاء اليهود الحاقدين على الإسلام ، ولكنه مقتنع تماماً بما كاده بنو أمية للإسلام ، وبتآمر القيادات الإسلامية وكيدها بعضها لبعض. ونعوذ بالله من الخذلان.

بهذا النهج لن نتقدم أبداً :

منذ أزمان والجهود تبذل في صدق وإخلاص ، لتحقيق الأحداث ، وتصويب الأخبار ، وتدقيق الآثار ، ووصل العلماء ،والمحققون إلى الكثير في هذا الميدان ، أفبعد كل هذا الجهاد ، وهذه التصويبات ، وبيان الخطأ والزلل والخلل في هذه الروايات، يعود الدكتور محرم ليعتمد عليها ويتخذها أصلاً ، يعود ليبدأ من نقطة الصفر ، يعود ليتردى في نفس الوهدة التي أنقذنا فكرنا وتاريخنا منها ، ونعود نحن لنصحح ، ونصوّب ، ونحقق مرة ثانية ، فمتى نفرغ من هذه القضايا وننتقل إلى غيرها؟

إن (مسلماً معاصراً) يتخذ (الأغاني) و(الفتنة الكبرى) و(الإمامة والسياسة) وكتب محمد عمارة مصدراً لتاريخ صدر الإسلام والعصر الراشد، لا يكون قد خالف المنهج فقط، بل يكون قد داس المنهج بنعاله ، وتخطى أوليات المنهج وأبجدياته ، بل برهن أنه دخل ميداناً ليس من فرسانه، وأقحم نفسه في علمٍ ليس من رجاله ، فمن هنا ضلّ عن الصواب وأضلّ غيره، ورحم الله إمامنا ابن حجر العسقلاني : إذ يقول : « من تكلّم في غير فنّه أتى بالعجائب»

تساؤل :

هل هناك مَن يقعد لنا على منابع الفكر ليسممها ؟

هل هناك أيدٍ خبيثة توجه ثقافتنا وفكرنا؟

إن علماءنا وأئمتنا لم يقصروا ، فقد اجتهدوا ، وبذلوا في سبيل النقد والتمحيص والتحفظ على الأهواء في نقل التاريخ مابذلوا ؛ ولكننا نقرأ من

زاويةٍ يرادُ لنا أن نقرأ منها.

قديماً كتب القاضي ابن العربي كتابه (العواصم من القواصم)، وكتب الأصفهاني كتابه(الأغاني) فلماذا كل مثقفينا ، ومؤرخينا ، ودارسينا ينهلون من ذلك النهر المسموم(الأغاني) دون سواه ، من المسئول عن ترويج هذا الكتاب؟ وتيسيره ، وتقريبه، ما بين (مختصر الأغاني) و ..(وأين)(العواصم من القواصم)؟ لقد طُبع منذ نحو ستين سنة ، وقام العلامة محب الدين الخطيب بتقديمه وتحقيقه والتعليق عليه ، وتقريبه ، فلماذا لا يذكره أحد.

وفي عصرنا الحديث كان عندنا مدرستان ، مدرسة الشيخ علي يوسف ، وعبد الله النديم ، ومحمد رشيد رضا ، وأحمد زكي باشا ، والعلامة أحمد تيمور، ومحب الدين الخطيب ، ومصطفى صادق الرافعي ، ومن معهم . ومدرسة لطفي السيد ، وأحمد أمين ، وقاسم أمين ، وطه حسين ، وتلاميذهم.

فلماذا شاع فكر المدرسة الثانية؟ في تفسير تاريخنا وفي موقفنا من (أفكار الآخرين) ، ولم يشع فكر المدرسة الأصيلة النقية ؟

والجواب معروف لكل ذي بصر وبصيرة ، ذلك أن المدرسة الثانية ، مدرسة التغريب هي التي ورّثها المستعمر مقاعد التوجيه وقيادة الفكر ، ومكن لها وحمى ظهرها ، باعتبارها حاملة لوائه والمقاتلة في سبيله. فإلى متى لا يعي (المسلمون المعاصرون) هذه الحقيقة ؟

خاتمة ونتائج :

١ - نؤكد سلامة المنهج -منهج الدكتور رضا محرم- الداعي إلى تفسير التاريخ ودراسته ، وتحليل مشكلاتنا المعاصرة في ضوئه . ولكن بشرط التحفظ على أهواء المؤرخين ، والالتزام بمنهج رجال الحديث في نقد الروايات التاريخية ، وتمحيصها ، ثم مع ذلك الاطمئنان إلى سلامة المشاعر الإسلامية والعواطف الدينية لمن يدرس التاريخ ويحلله،

حتي يعرف كيف يستجيب للحدث بحسٍّ إسلامي . وضمير ديني ، فيقدر على استيعابه بجميع ملابساته ، ومعطياته، فيحسن تفسيره ، ويصدق تحليله.

٢ - نحن مع الأخ الباحث في أن الخلاف والاختلاف في الساحة الإسلامية ، غير محكوم بضوابط ، ولا قوانين، بل كثيراً ما يفلت الزمام ، فيؤدي إلى تبديد كثيرٍ من الطاقات ، وإهدار قُوى كان الأولى بها أن توجه إلى مجالٍ غير مجال الصراع.

٣ - ولكن الذي نرفضه ولا نوافق عليه أن هذه الظواهر التي نشكو منها الآن ثمرة طبيعية(للموروثات التاريخية) ، فقد بيّنا أن ما فسره الأخ الباحث على أنه من وقائع التاريخ وموروثاتنا السابقة ، ليس إلا روايات وتلفيقات سممت نبع ثقافتنا ، بعمدٍ وتدبيرٍ أحياناً ، وبخطأ وغفلة أحياناً أخرى .

ولذلك نرجو أن يعاود الأخ بحثه -وجميع المخلصين- عن أسباب أخرى ودوافع أخرى لما يجري الآن من صراع ويدور من نزاع ، حتي إذا عرفنا مكمن الداء أمكن العلاج.

٤ - أعتقد أن الأخ الكريم سيوافقني ويرجع عن قوله بالنسبة للتعامل (مع الآخرين الذين هم غرباء عنا) : إنه لابد من أخذ الحضارة -إذا أردنا أخذها- بكل معطياتها وآثارها المعنوية والاجتماعية والخلقية ، فما أعرف -من المنصفين- سلفاً قال بهذا الرأي.

وأجده واجباً عليّ أن أكرر للأخ الدكتور محرم الشكر والدعاء لي وله بالتوفيق والسداد .

* * *

القرامطة المعاصرون

اعتدت كلما راعني من حاضر أمتي ما يروع ، وفزّعني من واقعها ما يفزع أن ألوذ بالتاريخ ، وأبداً تاريخُ أمتي لا يخذلني ، فدائماً أجدُ فيه التفسيرَ وأجد فيه العزاء ، وأجد فيه الأمل .

وفي الشهور الماضية تولى (كاتب فنان)[1] من هؤلاء «القرامطة» الذين يحملون (المطِرقة والمنجل) !! يهوون(بمطرقتهم) على كل أصيل تليد ليحطموه ويزيلوه. ويتربصون (بمنجلهم) لكل نبتة لأمل ، وكل عود للمستقبل ، ليحصدوه، يمهدون بذلك (للدُّب) المستوفز .. حمانا وأعاذنا الله.

(١) هو ذلك الأديب الكاتب الشاعر عبد الرحمن الشرقاوي ، وكان ذلك في ما بين ١٩٨٣-١٩٨٤م حيث بدأ بنشر مقالات أسبوعية مطولة في صحيفة الأهرام تحت عنوان (علي إمام المتقين) وتحت هذا الستار استمرّ نحو أربعين أسبوعاً باسم تمجيد الإمام «علي» كرم الله وجهه- يشوّه صحابة رسول الله أجمعين ، لم يترك منهم أحداً، فكان ذلك بحق صورة حية للقرامطة.

تولى هذا الكاتب «سَحْل» خيار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث مكنت له كبرى الصحف العربية اليومية ، على طول أربعين أسبوعاً (زد أو انقص منها قليلا) مكنت له من صفحة كاملة كل أسبوع ، يصول فيها ويجول ، ولا من دافع ولا رادع «طلب الطعن وحده والنزالا».

فمن له مثل هذا الموقع ليردع ؟؟ ، ومن يملك مثل هذا المنبر ليدفع؟؟ وحيل بين الكتاب والعلماء والرّد ، حيث كانت تُحوّل كل الردود والتعقيبات إلى هذا الكاتب فيطويها، ويخفي ذكر أصحابها، ويوجعهم همزاً ولمزاً، وسباً وشتماً .

ومن عجب أنه يعود ليبكي ، ويندب الرأي المكبوت ، والفن الموءود ويستصرخ كلَّ من هب ودب ، على «كهنوت الرقابة الدينية» و«غوغائية علماء الدين» و «استبداد الهيئات العلمية والروابط الإسلامية» !! (رمتني بدائها وانسلّت).

لُذتُ كعادتي بالتاريخ ، تاريخ أمتي، فقال لي:لا تُرع إنه ضلال قديم كَيْدُه مفضوح وسهمه طائش ، وسيفه مفلول !! وأقرأني صفحة أسلافهم ، صفحة (القرامطة) وقال لي: لو تقرءون !! لو تتدبرون !! لو تتنبهون !!

فهل تأذنون أن أشرك قراءكم الكرام في قراءة هذه الصفحة التي أقرأنيها التاريخ!!! صفحة القرامطة؟ كم أكون شاكراً لو أذنتم ، حتى أؤدي الأمانة التي حمّلنيها التاريخ .

التاريخ يعيد نفسه

(القرامطة)

القرامطةُ إحدى فرق الباطنية ، الذين اختصهم الإمام الغزالي حجةُ الإسلام بكتاب من كتبه ، تحدث فيه عن (فضائحهم)وجرائمهم وخبائثهم.

١- منهج القرامطة :

جاء هذا المنهج كما كشفه الإمامُ الغزالي على لسانهم إذ قالوا : نتحصّن بالانتساب إلى الروافض ، والاعتزاء إلى أهل البيت ،ونتودد إليهم بما يلائم طبعهم : من ذكر ما تم على أسلافهم من الظلم العظيم ، والذل الهائل ، ونتباكى لهم على ما حلّ بآل محمد -صلى الله عليه وسلم- ونتوصل به إلى تطويل اللسان في أئمة سلفهم، الذين هم أسوتهم وقدوتهم، حتى إذا قبّحنا أحوالَهم في أعينهم وما يُنقلُ شرعُهم إلا بنقلهم وروايتِهم ؛ انسد عليهم بابُ الرجوع إلى الشرع، وسهل علينا استدراجُهم إلى الانخلاع من الدين»أ.هـ (بنصه ص ١٩)

هذه هي خطتهم ، وهذا هو منهجهم كما ترى :

١ - ادعاء الغيرة على الإسلام وتجلية مبادئه.
٢ - تمجيد آل بيت المصطفى عليه الصلاة والسلام .
٣ - البكاء على ما أصاب آل البيت ، وحل بهم.
٤ - التوصل بذلك إلى سب أئمة الصحابة وكبارهم، وتقبيح أحوالهم.
٥ - سد الباب بين المسلمين وشرعهم حيث قبحوا الصحابةَ ،وما يُنقل الشرع إلا من جهتهم.

(انتبهوا أيها السادة) هذه هي خُطةالقرامطة . . . وانظروا حولكم. . . .

٢- وسائل القرامطة :

كان للقرامطة وسائلُ يستدرجون بها الأتْباع ، ويصطادون بها الأنصار والأشياع ، وهي مُرتَّبةٌ على درجات بدقة بالغة ، تُعتبر بحق مثالاً لعبقرية (العمل السري) كما سماها أحد الباحثين المحدَثين . أما الإمام الغزالي (حجة الإسلام) فقد سماها: (درجات حيلهم)وهي:(١- التّفرُّس ٢- التأنيس ٣- التشكيك ٤- التعليق ٥- الربط ٦-

التدليس ٧- التلبيس ٨- الخلع ٩-السلخ).

ويقول الإمام الغزالي : «في الاطلاع على هذه الحيل فوائد جمة ، لجماهير الأمة».

وهاك شيء من تفصيل حيلهم :

(١): أما التَّفَرُّس :

فمعناها أن يكون الداعي فطناً ذكياً ، يميز بين من يمكن استدارجُه ومن لا يمكن ، قادراً على تأويل النصوص، والإيهام بأن لها باطناً لا يعرفه كلُّ أحد ، **كما يكون قادراً على أن يقدم لكل واحد ما يتفق مع مزاجه وميله ومذهبه.**

(٢) وأما حيلةُ التأنيس :

فهي أن يجتهدَ الداعي في التقرب إلى من يدعوه ، والتظاهر له بالتنسك والتعبد ، والمواعظِ الرقيقة، والتبشير بأن الفرج منتظر.

(٣) وأما حيلةُ التشكيك:

فهي أن يجتهدَ الداعي في تغيير اعتقادِ المستجيب، وذلك بالأسئلة عن الحكمة في مقررات الشرع ، وغوامض المسائل ، ومتشابه الآيات ، وأسرارِ الأرقام في مثل : «سبعِ سماوات»- «ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية»- «عليها تسعةَ عشرَ».

٤- وأما عن حيلة التعليق :

فتكون بأن يطوي عنه سرَّ هذه الشكوك ، ويوهمه بأنه يملك حقيقتَها ويعرف كُنهها ، ولكن لا يمكن البوح بها لكل أحد ، ولا في كل حين ، بل لابد من عهود ومواثيق على من يريد معرفةَ هذه الأسرار ، ويتركه هكذا معلقاً.

٥- وأما حيلة الربط :

فتأتي بعد التعليق ، بأن يربطه بأيْمانٍ مُغلظة ، وعهودٍ مؤكدة ، لا يجسر على المخالفة لها بحال (ومن اطلع على نسخة العهد يقشعر بدنُه لهذا الإرهاب الذي ينطق به).

٦- وأما حيلة التدليس:

فتكون بالتدرج في بث الأسرار إليه ، بعد أن ربطه بالأيمان والعهود المؤكدة، يأخذ في إطلاعه على قواعد المذهب شيئاً فشيئاً ، ويوهمه أن لهذا المذهب أتباع كثيرون ، ولكنه لا يعرفهم ، بل له أن يسمي بعضَ المرموقين الذين يُقتدى بهم(على شرط أن يكونوا في بلاد أخرى لا يمكن مراجعتهم) مدعياً له أنهم على نفس مذهبه.

٧- وأما حيلة التلبيس:

فتكون بالاتفاق على بعض المسلّمات ، والقواعد البدهية ثم يستدرجه منها إلى نتائج باطلة ، وذلك بعد أن يكون قد أسلم له قياده.

٨ ؛ ٩ - الخلع والسلخ :

وهما بمعنى واحد إلا أن الخلع يختص بالعمل ، فإذا أسلم المستجيب قياده وبدأ العمل والتنفيذ لما يريده منه القرامطة ، يكون قد انخلع عن مجتمعه، ووصل إلى درجة الخلع .

وأما السلخ : فيختص بالاعتقاد الذي هو خلع الدين ، واعتقاد فلسفة المذهب قلباً وإيماناً ، بعد أن أخذها منهجاً وعملا.

« فهذا تفصيل تدريجهم الخلق واستغوائهم ، فلينظر الناظر فيه ، وليستغفر الله من الضلال ».هذا تعليق الإمام الغزالي بنصه.

وإلى الله المشتكى ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وكان للقرامطة جولة ودولة :

كان القرامطة يتخفَّوْن -كما رأينا- في زيّ أهل البيت ، ويزعمون أنهم يبكون على ما أصابهم ، ويظهرون التعبد والتمسك والتزهد ، ويبشرون بالعدل الشامل بين الناس. وبسياسة جديدة في المال ، تُشبع الجياع، وتنصر العمال والفلاحين .

فاجتمع إليهم المخدوعون من البسطاء ، وأفجاج العرب والأكراد ، وجُفاة الأعاجم ، وسفهاء الأحداث ، ولعل هذا الصنف هم أكبر الناس عدداً، ثم الحقدة ممن أزال الإسلام دولتهم ، كأبناء الأكاسرة ، والدهاقين ، وأولاد المجوس المستطيلون ، ثم المغامرون الباحثون عن دور العاشقون للتسلط والسيطرة.

وصار لهم بهؤلاء وهؤلاء أتباع وأشياع ، وجند وأنصار ، أقاموا بهم دولة واتخذوا لهم عاصمة !! فلننظر على أيّ نظام قامت دولتهم ؟؟

كان أول شيء أنهم كشفوا هُويتهم ، فأباحوا المحرمات ، وأزالوا المحظورات ، ونادوا بالشيوعية في النساء والأموال ، وبالطبع -كالشيوعية الحديثة- عجزوا عن تحقيقها في الأموال ، فبقي قادتهم ورؤساؤهم ، يكتنزون المالَ دون عامتهم ، ويسومونهم الخَسْف والعذاب ، ويستغلّون جهدهم وعرقهم.

ثم كشفوا عن هدفهم الأول ، وهمّهم الأكبر ، وهو هدم دولة الإسلام ، فعاثوا في الأرض فساداً ، وشنوا الحروب ، في العراق ، والخليج ، والشام ، ومصر ، والحجاز، وروّعوا الآمنين ، وقطعوا الطريق ، ونهبوا القوافل ، وذبحوا الرجال وسبَوْا النساء والأطفال ، وصار من كانوا يزعمون أنهم دعاة العدل ، وأئمة الزهد ، وحماة للضعفاء، صاروا مردةً شياطين ، صاروا مصدر الظلم والقهر والاستبداد والاستغلال .

وكملت جرائمهم بعدوانهم على الحجيج ، داخل الحرم ، يوم التروية (٨ ذي الحجة) فذبحوا الحجاج وألقوا بجثثهم في بئر زمزم ، ومزقوا أستار الكعبة ، ونزعوا بابها وميزابها ، وبلغت جريمتهم غايتها، بكسر الحجر الأسود ، وقلعه من مكانه ، وخطفه والعودة به إلى عاصمة ملكهم ، حيث ظل سنين إلى أن زالت دولتهم، وانفض المخدوعون من حولهم ، الذين طمعوا في جنة الشيوعية ، وما ذاقوا إلا وبالها وجحيمها.

فهل يعقلون ؟؟!

محتويات الكتاب

من أعمال المؤلف

أولاً: مكتبة إمام الحرمين الجويني (تصدر تباعاً بعون الله تعالى). صدر منها:

١ ـ البرهان في أصول الفقه. في مجلدين كبيرين.
٢ ـ الغياثي (غياث الأمم في التياث الظلم) من أجلّ ما كتب في الفكر السياسي الإسلامي.
٣ ـ الدرة المضية فيما وقع فيه الخلاف بين الشافعية والحنفية.
٤ ـ الجزء الأول من نهاية المطلب في دراية المذهب.
٥ ـ رسالة في إثبات الاستواء والفوقية.
٦ ـ رسالة في الاجتهاد والتقليد.
٧ ـ السلسلة في معرفة القولين والوجهين.
٨ ـ مسائل عبدالحق بن هارون لإمام الحرمين وإجابته عليها.

ثانياً ـ في التأليف:

٩ ـ إمام الحرمين: حياته وعصره.
١٠ ـ أبو القاسم الزهراوي ـ أوّل طبيب وجرّاح في العالم ـ
١١ ـ فريضة الله في الميراث والوصية.
١٢ ـ فقه إمام الحرمين (خصائصه وآثاره).
١٣ ـ الرسول ﷺ في بيته.
١٤ ـ جمع السُّنَّة وتصنيفها بواسطة الحاسب الآلي.
١٥ ـ (الكومبيوتر) ـ حافظ عصرنا.
١٦ ـ المستشرقون والتراث.
١٧ ـ العقل عند الأصوليين.

ثالثاً ـ من قضايا الثقافة الإسلامية:

١٨ ـ نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي.
١٩ ـ لغة القرآن . . . ماذا يراد بها؟
٢٠ ـ المستشرقون والتاريخ الإسلامي.
٢١ ـ جنوب السودان وصناعة التآمر ضد ديار المسلمين.
٢٢ ـ الزبير بن العوّام (الثروة والثورة).
٢٣ ـ مجتمعنا ماذا دهاه؟
٢٤ ـ القوميات . . ما وراءها.
٢٥ ـ المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي.



تطلب جميع منشوراتنا من :

الشركة المتحدة للتوزيع

بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف ٨١٥١١٢ - ٣١٩٠٣٩ - ص ب ٧٤٦٠
برقياً : بيوشران - الهاتف الدولي ٦٠٣٢٤٣